قوة الأناس

الكاتبة: مي أبو صير.

تدقيق لغوي: أحمد فؤاد مرسي.

الإخراج الفني: ضياء فريد.

تصميم غلاف: عمرو علاء.

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٧٧٦٧

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٨٩-٥٠-٣

كاريزما للنشر والتوزيع

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

قوة الأناناس

رواية

مي أبو صير

إهداء

- إلى من علمني أن داخل الكتب حياة.... إلى روح والدي.
- إليكِ، أمي الجميلة.
- أخي الغالي، رأيك كان حافزًا زادني ثقة.
- إلى أختيَّ الحبيبتين، وزهورهما الصغيرة.
- د/ شادي الشهاوي، دام تشجيعك سببًا من أسباب النجاح.
- صديقاتي؛ مي غالي، رانيا درويش، رضوى المسلمي؛ من دون وجودكن ما كانت هذه الرواية.
- إلى زوجي الحبيب، بطل رواياتي وسر نجاحي.

قوة الأناناس

هل يتحمل قلب الرجل أكثر من واحدة بحب صادق حقيقي؟

وهل لكل النساء القدرة على تحمل أن يكون لهن شريك في من يحببن؟

قديمًا قالوا إن النساء كالزهور؛ لكل لون معنى.

واليوم أخبركم أن النساء كالفاكهة؛ لكل واحدة طعم مختلف.

مِن الرجال مَن يتقبل تذوق أكثر من نوع، ومنهم من يكتفي بنوع واحد.

هناك من الفاكهة من ترفض المشاركة في أحد الأطباق لتظل بمفردها، ترفض التفكير في مشاركة إحداهن في قلب حبيبها ليصبح الأمر كابوسًا يؤرق حياتها، ومنهن من تتقبل أن يشاركها غيرها ليصبح المذاق مختلفًا.

أن تتقبل امرأة أن تشاركها إحداهن في زوجها ليس ضعفًا، وإنما هو قوة... نعم، قوة (قوة الامتلاك).

ولكن كيف تقتنع امرأة بنكهة وقوة الأناناس أن تشاركها من هي بنكهة المانجو؟ كيف تقتنع هي لتقنعه بعدها؟!

لا تتعجل الإجابة... ولا تحاول معرفة سر الفاكهة الآن...

فقط انتظر للنهاية... وعُد واقرأ البداية.

الفصل الأول

وقف أمام المنزل الضخم والذي حمل بداخله الكثير من ذكرياته: طفولته وأحلام مستقبله، ليأخذ نفسًا عميقًا يستعد به للمواجهة قبل أن يدخل مندفعًا طارقًا الباب بعنف، لتفتح له السيدة التي يعرفها جيدًا ويحمل لها في قلبه قدرًا من الود، ليصيح قائلًا:

«**أين سليم بيه؟ أين هو؟**».

ردت عليه عفاف – والتي لم تكن سوى مديرة المنزل – بمحبة:

«**يا لها من غيبة طويلة! بني، كيف حالك؟**».

صمت يحيى برهة، وأخذ نفسًا مقررًا إعطاء نفسه بضع لحظات من الهدوء؛ فليس لهذه السيدة التي حملته صغيرًا ذنب:

«**عُذرًا، سيدة عفاف**».

ردت بمحبة: «**اهدأ، بُني... سليم بيه على وصول، انتظره قليلًا وسوف أُحضر لك كوب القهوة الذي تحبه**».

«**فعلًا أشتاق للقهوة من يديكِ، ولكن دعيني هذه المرة؛ فأنا لا أريد الانتظار في هذا البيت**».

في نفس اللحظة فُتح باب المنزل ودخلت تنادي عفافَ قائلة بإرهاق: «**حضري لي الغداء وأرسليه مع صباح إلى غرفتي من فضـ...**».

قطعت كلامها بمجرد أن رأته أمامها، ظلت في السير تجاهه دون أن تنطق بأي كلمة، ليتفاجأ هو بوجودها الذي لم يكن يعلم به، ولا بعودتها من السفر، فلم ينطق إلا باسمها:

«حنيــــن».

خطواتها تجاهه وكأنها شريط لثلاث سنوات مضت دون أن تراه... نظراتها تعاتبه على سنوات الفراق، ترى الشوق في عينيه مهما حاول إخفاءه، تقف في صمت تنتظر منه البداية لتتحدث العيون تارة بالشوق وتارة بالعتاب، يفصل بينهما بوصات وكأنه جذبها له من دون إرادتها، تغمض عينيها تستمد منه الأمان... تتردد يدها في الوصول إليه لتتأكد من وجوده... أغمض عينيه هو الآخر يقاوم اختراق هذه البوصات للوصول إليها... عقله يريد إبعادها وقلبه يرفض، وتقف يداه بينهما حائرتين.

أيام طفولتهما في هذا المنزل الكبير؛ حياتهما، ضحكاتهما، قصصهما، ومغامراتهما... أين السعادة التي كانت؟ وأين الأمان؟

ليظل الصمت الذي وقف معه الوقت، لحظات يحيى فيها قلبها لتذيقه طعم الحنين.

لم يشعر الاثنان كم من الوقت مضى، وكأنهما يعوضان سنوات العمر الماضية. كم كان يتمنى ألا يتركها! لم تتخيل هي أن تمر عليها سنون دون رؤياه.

آه لو تعلم ماذا حدث لي، يحيى!

وآه لو تعلمين كيف هي حياتي من بعدك، حنين!

من يتخيل أن هذين الواقفين يخشيان الاقتراب افترقا قبل زفافهما بأيام بعد خطوبة دامت لسنين؟!

«**من هذا الذي بالخارج؟!**».

قالتها صباح لعفاف في المطبخ، فقد دخلت الأخيرة فور وصول حنين لإعداد الطعام لها وللسيد سليم الذي أوشك على الوصول.

«**لماذا السؤال، صباح؟ وما شأنك من الأساس؟!**».

ردت صباح بتوتر: «**منذ أن بدأت في إخراج الأطباق هما على نفس الحال لم يتحركا**».

تركت عفاف ما بيدها؛ فقد سمعت صوت سيارة السيد سليم بالخارج وأسرعت تخرج من المطبخ وهي تقول:

«**إنه يحيى ابن عم حنين، لا تشغلي بالك بهما**».

وبمجرد خروجها صاحت بهما بقلق:

«**يحيى، حنين، ماذا بكما؟! السيد سليم بالخارج، سيدخل حالًا**».

رجعت حنين للخلف خطوة مصدومة وكأنها أفاقت للتو، واندفعت تجري على السُّلم مقهورة القلب أمام رد فعله البارد تجاهها. ماذا كانت تنتظر منه؟! ماذا كانت تتوقع عند رؤيته وهو الذي طلب منها الذهاب معه لترفض هي وتخضع لإرادة والدها؟!

أما هو، فلم يكن حاله أفضل منها، فقد كان بداخله الكثير من التناقضات، أمسك رأسه بكلتا يديه يحاول أن يفيق ليحدث نفسه بتشتت قائلًا:

«إنها حنين... نعم، حنين كانت هنا منذ لحظات... أخذتِ أنفاسي معكِ، حنين، وابتعدتِ».

دخل سليم المنزل ليتفاجأ بوجود يحيى أمامه، فنظر إليه وعلى وجهه ابتسامة سخرية توحي بالنصر:

«أهلًا، ابن أخي الغالي، كنت أنتظر زيارتك ولكن في الشركة وليس هنا. على العموم في الحالتين جئت بنفسك؛ واضح أنك لم تستطع الانتظار للغد».

رد عليه يحيى بتحدٍّ:

«لكن، عمي، مؤكد أن السبب مختلف، إذا كنت تخيلت أن ما تفعله لتدمرني قد تنجح فيه فأنت واهم؛ أنا لن أستسلم بهذه السهولة. لم أتخيل أن يصل بك الحال لأخذ مناقصة بالخسارة فقط لتدمرني، ولكن... البادي أظلم».

رد عليه سليم ببرود غير مماثل لثورة يحيى: «**تعقل، يحيى، وارجع ونفذ ما أريده، أفضل لك من أن تبدأ من الصفر كل يوم، فأنا لن أتركك**».

رد يحيى محاولًا ألا يثور أمام هذا المستبد:

«راعيت كثيرًا أنك عمي وأن شركتك التي تفخر بها هذه تحمل سنوات شقاء وتعب والدي، ولكن أنت من بدأت الضرب تحت الحزام».

«يحيى، أنا لن أتركك تنجح مجددًا، اعلم ذلك... ارجع ونتفاهم أفضل من عنادك هذا».

«لم أكن أنوي الوقوف أمامك، عمي، ولكن إن يصل الحد للتربص بي في كل المشاريع فاعلم أني ابن سامح علوان أخيك الذي استوليت على كل أملاكه لترمي لي بالفتات».

انصرف مغادرًا المنزل لينطلق بسيارته التي أصدرت بدورها صوتًا مرتفعًا، أخذ قلب من هي في الأعلى يقذف به أرضًا ليتركه على الأسفلت ويبتعد!

فعندما يكبر العناد بداخلنا، عندما يحمل كل منا رأيه على حد سيفه ولا يتقبل رأي الآخر؛ هنا تبدأ النفوس في حمل الضغينة والحقد، يصبح كل طرف في وضع الاستعداد دون تقبل أن يكون رأيه صوابًا يحتمل الخطأ أو خطأً يحتمل الصواب.

لو فقط نترك لأنفسنا فرصة الاستماع! لو فقط يضع كل منا نفسه مكان الآخر لنفكر بمنطقه! للأسف دائمًا ما نعرف ذلك بعد تكرار الخطأ. ولكن المهم أن نتعلم قبل فوات الأوان.

أما في غرفتها بالأعلى فقد جلست على فراشها بائسة، تتساقط دموعها بهدوء، أمامها ألبوم للصور القديمة، ذلك الشيء الذي يبدو أنه انتهى مع عصر أصبح أبسط ما فيه هو تجميع الصور عبر الهواتف الذكية، تبتسم أمام كل صورة رغم احتفاظها بدموعها، فلكل صورة ذكرى وفكرة بُذلت من أجل تصويرها وتحميضها لتوضع في النهاية بين هذه الصفحات وتصبح جزءًا من كتاب مصور للذكريات، وكأن الابتسامة والدموع قررا مشاركتها الذكريات، وقد خشيت منذ

وصولها المنزل أن تفتحها وتقلب بين طياتها لتخرجها من فوهة النسيان، أمسكت بصورة تجمع أفراد العائلة: ثلاث فتيات وولدًا.

«**مؤكد أن من صورها معاذ**».

قالتها لنفسها بابتسامة انشقت مقاومة لتخرج من الحزن، واستمرت في مشاهدة الصور، وها هي صورة أخرى في حوض السباحة، هي طبعًا من صورتها ليحيى، وسلمى دائمًا ما كانت تخشى السباحة.

«**آه يا سلمى! كيف حالكِ الآن؟ وكيف حال قلبكِ المجروح؟ أما زال ينزف مثل قلبي.**».

استندت بظهرها على الفراش لتعود بذكرياتها معهم.

في الماضي

صغيرة هي كانت في سن المراهقة، في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية، وسلمى التي تكبرها بعام في الصف الأول الثانوي، ومثلها رهف، أما يحيى فكان في السنة الأخيرة في كلية الهندسة، هذه حديقة نفس المنزل، كم كانت تمتلئ بالضحكات وصياح الشباب يتسامرون بين حكاية وأخرى! سلمى تجري في اتجاه حوض السباحة، وتأخذ بيد يحيى ليقفزا معًا. تبتعد هي بظهرها كالعادة، تخشى المياه؛ فمنذ أن سقطت فيه وهي صغيرة وتعرضت للغرق لا تقربه أبدًا، لتجد سلمى تُخرج لها لسانها لإغاظتها وهي تمرح مع أخيها. كم يسعدها مشاهدتهما معًا وكم تسعدها ضحكاتهما!

أما هي فخوفها من المجهول، ترددها، عدم ثقتها في نفسها الذي كان بسبب قسوة والدها معها؛ كم يكره عدم إنجابه ولدًا! ربما مهزوزة الشخصية لا تقوى على اتخاذ قرار، لا تستطيع فعل

شيء بمفردها، لا بد من حارس، لا بد من رفيق، ولا بد من طاعة الأوامر.

صعدت سلمى من المسبح ببهجة، ودخلت بعدها لتبدل ثيابها.

«ما رأيك، حنين، أن أعلمك السباحة؟».

قالها يحيى وهو يخرج من المياه لتُجيبه برفض:

«أنت تعلم خوفي كلما اقتربت من الماء؛ كيف سأتعلم السباحة؟!».

قال بإصرار:

«لهذا، حنين، لا بد أن تتغلبي على خوفك. يحزنني أن تشاهدينا دائمًا من بعيد. حنين، جربي ولن تخسري شيئًا».

«أنا هكذا سعيدة».

قالتها وهي تحاول الذهاب، ليمسك بها قائلًا:

«انتظري واسمعيني جيدًا، إلى متى ستُفضلين الهروب على اجتياز أي أمر؟! حنين، هل تثقين بي؟».

هزت رأسها بالإيجاب: «وهل عندك شك؟!».

ليقول وقد زاد إصراره:

«إذًا ثقي بي، حنين، وهيا تخلي عن خوفك؛ أنا معكِ ولن أتركك».

خلع قميصه المبلل بسبب اندفاع سلمى وتهورها، ألقى به بعيدًا وأمسك يدها بقوة ليجذبها تجاه المياه:

«حنين، تشبثي برقبتي ولا تتركيني أبدًا، ولا تقلقي؛ أنا معكِ».

أطاعته محاوِلة أن تسيطر على خوفها، ثقة منه، وثقه به. ظلت ترتجف فترة بمجرد نزولها المياه، وما إن بدأت تهدأ وتعتاد المياه حتى يبدأ بالسباحة وهي معلقة في رقبته كطفل صغير. كم

يحب تشبثها به في الحياة! وكم يخشى عليها من دونه! لتبدأ أول خطوة في تعلمها السباحة. ظلا هكذا كل يوم ومن دون علم سلمى، إلى أن أجادت السباحة بمهارة.

وجاء اليوم المنتظر لتقرر سلمى – كالعادة – إغاظتها، جرت وأخذت معها يحيى الذي لم يتعود يومًا رفض طلب لصغيرتيه، أشار يحيى لحنين وقد وقفت مترددة لحظات، لتتفاجأ سلمى بعدها بقفز حنين في الماء.

صرخت سلمى بهلع لاختفاء حنين تحت الماء، وبدأ الشك يدخل قلبه، فقد اختفت ولم تظهر، أخذ نفسًا ونزل تحت الماء قبل أن يفاجأ بها تخرج من الماء من آخر حوض السباحة وهي تضحك.

«لقد فعلتِها، حنين».

قالتها سلمى بابتسامة ما ظهرت حتى اختفت وهي تنظر ليحيى الذي وقف فخورًا بتلميذته.

«وأنت يا باش مهندس تتآمر معها وتُخفيان عني أمر تعلمها السباحة؟! لن أنسى لكما هذا الموقف أبدًا».

قالت حنين بسعادة وإحساس بالزهو بنفسها تكاد تجزم أنه الأول في حياتها: «حتى تكفي عن إخراج لسانكِ لي يا بلهاء».

استلقت حنين على فراشها بعد هذه الرحلة القصيرة التي خاضتها مع ذكرياتها، لتستسلم للنوم وعلى وجهها طيف ابتسامة نسيتها منذ زمن.

وما بين الليل والصباح عيون تذهب لعالم آخر أو تظل في عالمها تحارب الأرق، استيقظت صباحًا مقررة الخروج من قوقعتها

التي فضلت الاعتكاف بها منذ لحظة عودتها، سبعة شهور لم تحاول البحث عن ماضيها المفقود، ولا عن قلبها الضائع!

مرت عدة أسابيع تذهب للنادي، تجلس بعيدًا بمفردها، لا تحاول الاختلاط بأحد رغم معرفتها بمعظم الوجوه، تُخرج رواية اشترتها في الحال لأنها ما كانت تشتري إحدى الروايات إلا وأمضت طوال الليل في قراءتها إلى أن تنهيها لتنفصل بها عن واقعها، تعيش بين أبطالها، ربما تجد معهم لحظات تفقدها، أو حياة تتمنى عيشها.

استمرت على هذا الحال، ولكن في هذا اليوم الذي ظنته سوف يمر كسابقيه جلست في مكانها المعتاد بهدوء، لترفع رأسها من وراء نظارتها الشمسية التي تعمدت عدم خلعها حتى لا يعرفها أحد، تنظر حولها كل فترة تبحث عن مجهول ربما يأتي ليؤنس وحدتها، مستغلة عدم معرفة أحد بها بعد خلعها الحجاب!

وعلى الطاولة المجاورة، والتي اختارت الجلوس بالقرب منها عن قصد هذا اليوم، كان يجلس ثلاثة من الأصدقاء واضح أنهم يتناولون الغداء.

«**ألم تتصل بصديقك يا دكتور ليأتي للغداء؟**».

قالتها رحمة وهي توجه حديثها إلى معاذ الجالس جوارها.

«**بالتأكيد اتصلت به، ولا أعتقد أنه سيأتي**».

«**عندك حق في ذلك، هو فقط لا يفعل شيئًا في حياته سوى إعطاء الأوامر**».

ليتحدث باسم: «**هل هو ما زال هكذا، لا يكل ولا يمل من العمل؟! يعمل كالآلة دون الشعور بالإرهاق! سافرت وعدت وهو كما هو**».

قالت رحمة بأسى:

«**للأسف فقد الإحساس بالحياة**».

ليرد عليها معاذ محذرًا:

«**اتركيه، رحمة، ولا تركزي معه. الحمد لله أنه خرج من محنته ووصل إلى هذه المرحلة؛ هل نسيتِ كيف كان حاله قبل أن تشاركيه؟!**».

ليرفع معاذ هاتفه ويتصل برفيق عمره وشريكه:

«**أين أنت يا رجل؟**».

....

«**جيد جدًا. هيا، نحن في انتظارك، ننتظرك لنتناول الطعام معًا**».

دخل عليهم شخص بعشوائية قائلًا: «**أسمع أحدًا يقول طعام وانتظار، أكيد أنا المنتظَر**».

تحدث باسم بسخرية: «**دائمًا أنت متطفل، أمجد**».

رد أمجد ببساطة: «**وإن لم أتطفل عليكم، أصدقائي، فعلى من أفعلها؟!**». قالها وهو يتظاهر بالبحث عن أحد لتقع عيناه عليها، تجلس بمفردها بعيدًا:

«**عندكم حق؛ هناك من يستحق التطفل أكثر منكم**».

نظر الجميع في نفس الاتجاه لتقول رحمة بنفاد صبر:

«**ما زلت أهوج، أمجد. احترم وجودي**».

رد عليها أمجد ببساطة وهو ما زال ينظر للجالسة بعيدًا:

«**أنتم من تأخذون الدنيا على أعصابكم وتُمضون شبابكم وحياتكم دون التمتع بما في الدنيا من جمال**».

نفخ معاذ بضيق قائلًا:

«**أنا لا أفهم كيف تستطيع تحمل نفسك هكذا! ما الذي يجبرنا على تحملك إلى الآن؟!**».

قال باسم محاولًا تدارك الأمر: «**أمجد، لا نريد مشاكل هنا**».

تكلم أمجد بكل برود وكأنه لم يسمع شيئًا:

«**وهل تقنعني أنها تجلس بمفردها تقرأ فعلًا؟! أراهنك أن الكتاب بالمقلوب**».

قالت رحمة بنفاد صبر: «**لا يصح هذا، أمجد. إن كنت ستستمر على هذا الأسلوب فلا داعي لجلوسك معنا**».

وصل يحيى أخيرًا وجلس دون أن ينطق أي كلمة، وأخذ يأكل بكل هدوء، ليقول له باسم:

«**ألقِ التحية يا باش مهندس**».

لم يرد عليه، واستمر في الأكل وهو ينظر إلى رحمة:

«**رحمة، هناك أوراق أحضرتها معي لا بد أن تراجعيها اليوم، ضروري**».

ضحك معاذ بسخرية: «**ألهذا السبب جئت؟! كان يجب ألا أُدهش لسرعة حضورك**».

ضحكت رحمة وهي تقول: «**كنت واثقة أن وراءه سببًا**».

تحدث أمجد وكأنه في عالم آخر، وعلى وجهه ابتسامة ماكرة:

«**لقد نامت الفتاة؛ يبدو أن ليلها كان طويلًا**».

وقف مُبعدًا كرسيه، فقال باسم بدهشة:

«إلى أين أنت ذاهب؟ اعقل، أمجد. كف عن هذه التصرفات الصبيانية».

أشار له أمجد بعدم اهتمام، وتحرك في اتجاه الطاولة المجاورة، وأمسك بالمقعد المقابل للفتاة وجلس عليه بكل بساطة، رفعت رأسها بدهشة عندما شعرت بحركة جوارها، لتقول باعتراض:

«ما هذا؟! من أنت؟».

رد عليها أمجد بكل برود، وعلى وجهه ابتسامة سخيفة:

«آسف؛ ظننتكِ أخرى. ولكن لا مانع من التعارف».

«من فضلك انصرف حالًا، ولا داعي لهذا الأسلوب الساذج».

رد ببرود وقد أطلق ضحكة مستفزة: **«وهل جلوسك بمفردك تمسكين كتابًا ليس بأسلوب قديم؟»**.

وقفت حنين بتأهب وهي تقول: **«الزم حدودك وانصرف من أمامي، وإلا فستندم عندما أكسر عظامك»**.

انتبه يحيى لهذا الصوت الذي يعرفه جيدًا، رفع رأسه عن الطعام، وترك الملعقة التي بيده لتحدث صوتًا إثر ارتطامها بالطبق، وقف دون أن ينظر خلفه محدثًا نفسه بصوت مسموع: «**حنين!**».

الفصل الثاني

ربما تعتقد أنك بعيد عن المواجهة، ولكن هناك أقدارًا مهما ظننت أنك تحركها فاعلم أنك لست المحرك الوحيد لها، فهناك يد أقوى منك تلقي بك إليها مرغمًا، فقد حانت اللحظة.

أبعد يحيى كرسيه بعنف وهو يصرخ باسمها: «**حنين**».

انتبه الجميع لما قاله، فوقفت رحمة على الفور تنظر إلى الواقفة بعيدًا وهي تقول: «**من؟! حنين ابنة عمك؟! كيف لم نعرفها؟!**».

لم ينتظر يحيى لتكمل كلامها، فاندفع تجاههما، لتقول رحمة برعب: «**ستحدث كارثة**».

أسرع معاذ وباسم للحاق بيحيى الذي تحول فجأة من إنسان هادئ بارد إلى شعلة نار حتمًا ستحرق أمجد.

في نفس اللحظة وقفت حنين تحمل أغراضها لتنصرف من أمام هذا السمج لتفاجأ به يمسك يدها وهو يقول: «**اهدأ يا قمر، ولا داعي لهذه الأفلام**».

فاجأته حنين بضربة في ركبته بقدمها في حركة معروفة للدفاع عن النفس، لتربك تصرفاته وهي تصرخ فيه: «**والله إن اقتربت لأكسرك**». حاول جذبها كثورهائج؛ فرد فعلها أهانه أمام من حوله وقد اتجهت كل العيون إليهما، ليتفاجأ بيحيى يمسك يده قائلًا:

«**هل جُننت إلى هذه الدرجة؟**».

رد بسخرية: «**يحيى باشا حامي الديار ومنقذ الأحرار، ما دخلك أنت؟!**».

وما كان من يحيى إلا أن ربت بعنف على كتفه وهو يقول:

«**انصرف من وجهي يا أمجد، وإلا فستندم**».

تدخل أخيرًا معاذ وباسم ليقول الأخير:

«**أمجد، إنها حنين ابنة عم يحيى؛ لا داعي لافتعال المشاكل، وانصرف**».

ابتسم أمجد بتهكم وهو يقول: «**ابنة عمك؟ جيد! هذا أدعى لأن تتركها لي**». قالها وهو يلتفت إلى حنين التي رجعت للخلف تحاول مقاومة بكائها؛ ستحدث مشكلة بسببها كانت في غنى عنها، ليكمل هذا الوغد حديثه:

«**جميعنا يعلم ما فعله عمك. لا تقلق، عزيزي، سأنتقم لك بطريقتي**».

أنهى كلامه وهو ينظر إلى حنين نظرات زادت وقاحة، ليزيد من غضب يحيى وثورته، فهجم عليه وهو يقول:

«**ماذا تقول يا حيوان؟ إنها عرضي. ماذا تعاطيت اليوم لتكون بهذه الوقاحة؟ هل تستوعب ما تقول؟!**».

أعطاه يحيى لكمة على وجهه، تداركها الآخر سريعًا حتى لا يسقط أرضًا، وبسرعة وقف باسم ومعاذ بينهما ليمنعا التشاجر بالأيدي.

نظر يحيى إلى حنين صارخًا فيها: «**اذهبي من هنا فورًا ولا تأتي إلى النادي مرة أخرى. هل سمعتِ؟ اذهبي حالًا**».

ألجمها صراخه وصدمها، لتجري دون نقاش تحاول لملمة كرامتها.

قال معاذ بقلق لرحمة: «**اذهبي وراءها سريعًا، لا تتركيها**».

تحركت رحمة مسرعة تحاول اللحاق بها، فقد كانت تجري مهرولة كالأطفال لا تنظر خلفها.

بعد معاناة استطاع معاذ وباسم فض الاشتباك ليذهب أمجد وهو يتوعدهم جميعًا، فلم تكن هذه المرة الأولى التي يحتد فيها الخلاف بينه وبين يحيى بالتحديد، فبينهما الكثير من المشاحنات التي جعلت النفوس تحمل الكثير منذ سنوات الجامعة، وذهب وراءه باسم ليقول له:

«**لقد تجاوزت هذه المرة أكثر من اللازم، أمجد. لا يصح ما فعلت ولا ما قلت**».

ليقول أمجد بغل: «**أعدك أن ترى مني ما لم تكن تتخيله عندما قامت بدور البريئة، أما صديقك فسيرى ما يمكن لأمجد أن يفعله. صدقني، أنا أنتظر الفرصة منذ زمن، وقد حانت؛ سأريه ماذا أستطيع أن أفعل، ويريني حينها كيف سيظل يظهر بدور الشهم أمام الجميع. أنا وراءه حتى أكسر عينه**».

وبعد أن استطاعت رحمة اللحاق بها:

«**حنين، أنتِ لا تستطيعين القيادة بهذه الحالة**».

جذبت رحمة مفتاح السيارة من يد حنين، وفتحت لها الباب بجوار كرسي القيادة قائلة:

«**اجلسي قليلًا واهدئي**».

استجابت حنين لها؛ فقد كانت في حالة لا تستطيع فيها المناقشة، ودارت رحمة حول السيارة لتجلس هي أمام عجلة القيادة، لتقول وقد وجدتها تمسك برأسها:

«**حنين، هل أنتِ بخير؟**».

ولكنها سريعًا ما غابت عن الوعي.أمسكت رحمة بهاتفها بقلق لتتصل بزوجها فورًا قائلة:

«**معاذ، أنا أمام النادي في سيارة حنين، لقد فقدت الوعي**».

أغلق معاذ الهاتف، وجذب يحيى من يده، فقد كان يقف كالأسد يريد الانقضاض على الفريسة مرة أخرى:

«**يحيى، حنين فقدت الوعي بالخارج**».

لم يناقشه يحيى في ما قال، ليركض متجهًا خارج النادي. وقبل أن تمر دقيقة كان الاثنان أمام السيارة، فتح يحيى الباب المجاور لحنين، وجلس على ركبته ممسكًا بيدها وهو يقول بقلق:

«**حنين، ماذا بكِ؟ حنين...**».

أشفق عليه معاذ وحاول إبعاده قائلًا:

«**يحيى، ابتعد عنها قليلًا؛ أعطني فرصة للكشف عليها**».

قالها وهو يحاول أن يأخذ منه يدها ليقيس لها النبض، ليتفاجأ بيحيى يقول له: «**لا تلمسها**».

رد معاذ بدهشة: «**نعم؟! أنسيت أني طبيب أيها الأحمق؟!**».

أبعده معاذ بيده ليكمل قائلًا:

«**لا مجال لهذا الهراء، ابتعد، ولا تلمسها أنت، أنسيت أنك طلقتها؟**».

أعطى رحمة مفاتيح سيارته وهو يقول لها: «**أحضري حقيبتي من السيارة بسرعة**»، ووقف يقيس لها النبض ليوجه حديثه إلى يحيى يعنفه:

«**افرد لها الكرسي. تحرك، يحيى. هل ستقف هكذا كثيرًا؟!**».

دار يحيى حول السيارة ليجلس جوارها، وقام بفرد الكرسي الجالسة عليه، من يراه يعلم أنه في حالة يُرثى لها، حالة اختلفت عمَّا ظهر عليه منذ قليل. ربما لو رأته هي هكذا لما كانت صُدمت بهذا الشكل وفضل عقلها أن يغيب عن الوعي.

وبعد أن قام معاذ بالكشف عليها وإسعافها، بدأت حنين في استعادة وعيها تدريجيًّا ليقول لها معاذ:

«**منذ متى لم تأكلي، حنين؟ هل تعانين من انخفاض الضغط دائمًا؟**».

هزت رأسها بـ «**نعم**» محاولة التركيز.

لحظات واستوعبت من هو يجلس بجوارها، فنظرت إليه بعتاب وأدارت رأسها إلى الجهة الأخرى، وقالت لمعاذ:

«**أريد الذهاب من هنا**».

هز معاذ رأسه بتفهم، وقال لها: «**يجب أن تأكلي الآن أي شيء**».

لم تُجب بأي كلمة، فقط كانت تمسك رأسها. غادر يحيى السيارة دون أن يتحدث معها بأي كلمة، ربما خشي أن يضعف لو ظل جوارها، أحيانًا يحتاج الشخص التفكير أكثر من مرة وخاصةً عندما يحدث ما لم يتوقعه قبل الوصول مع نفسه لنتيجة، فلم يكن عنده الوقت الكافي لاتخاذ أي قرار. عادت رحمة لتجلس جوارها تحاول إقناعها بشرب بعض من العصير الذي أحضره يحيى، محاولة الحديث معها حتى تُخرجها من هذه الحالة.

مدت رحمة يدها بالسلام وهي تقول: «**أهلًا، حنين، فرصة سعيدة. أقصد كنت أتمنى أن نتقابل في فرصة أفضل. أنا رحمة، مهندسة زميلة يحيى منذ الدراسة، والآن شريكته في العمل، هل تذكرينني؟ رأيتكِ منذ سنوات مع يحيى، كنتِ حينها في المرحلة الثانوية على ما أعتقد**».

ردت حنين باقتضاب: «**بالطبع أذكركِ**».

فتحت حنين الباب المجاور لها تستعد للنزول من السيارة وهي تقول: «**أريد الذهاب**».

ردت رحمة ببساطة:

«**أغلقي الباب، حنين. سأقود أنا السيارة، لقد اتفقت مع معاذ على ذلك**».

لتقول برفض: «**لا داعي، شكرًا، أنا بخير**».

قالت رحمة بإصرار:

«**انسي تمامًا أن أتركِكِ هكذا. سوف يأتي معاذ خلفنا بسيارته لأركب معه بعد توصيلك، لا تقلقي**».

«**ولكن...**».

لتقاطعها رحمة بابتسامة قائلة:

«**هذا قرار نهائي ليس لكِ فيه حرية الاختيار**».

وبدأت فورًا تشغيل السيارة لتستعد للتحرك.

أدارت حنين رأسها إلى الخلف لترى يحيى وقد استعد للانصراف هو الآخر. أكانت تتخيل أنه سيعود للاطمئنان عليها؟ أغمضت عينيها بحزن تحاول أن تعود لصوابها، تخبر نفسها أنها كانت تعيش في وهم مات منذ سنين، حتى سمعت منه كلمة الطلاق بكل سهولة، مسحت دمعة خانتها ونزلت دون استئذان وهي تؤكد لنفسها أنه إن كان لا يزال هناك قليل من الاهتمام فمؤكد أنه بدافع صلة الدم والعشرة، وأنها لا تتطلع إلى أكثر من ذلك. أما خارج السيارة، فقد بدأ الاثنان في الاستعداد للمغادرة، ليقول يحيى:

«**طمئنِّي عند وصولها**».

رد عليه معاذ بتعجب: «**ولماذا لم تقُم بتوصيلها أنت؟!**».

قال متظاهرًا بالبرود: «**لا يفرق كثيرًا، رحمة ستقوم بالواجب**».

«**لماذا تقسو عليها هكذا؟! من يراك الآن لا يصدق أنك نفس الشخص الذي هرول إليها منذ دقائق وصرخ فيَّ ألا ألمسها**».

«**معاذ، لا داعي لهذه السخافات. إنها ابنة عمي؛ هل غريب أن أقلق عليها؟!**».

«**حسنًا، يحيى. واضح أنك نسيت أني أعرفكما منذ عمر طويل**».

وفورًا انصرف يحيى دون إلقاء التحية عليه، ولم يحاول النظر خلفه.

بدأت رحمة بالحديث محاولة كسر حاجز الصمت وهي تقود السيارة، قائلة:

«**هل أصابكِ إغماء من قبل؟**».

تحدثت حنين وكأنها لم تسمع ما قالت:

«**هل تزوجتِ معاذًا؟**».

«**أجل، حنين، أنسيتِ؟ لقد تعرفت على معاذ عن طريق يحيى. أعتقد أنكِ حضرتِ مع يحيى حفل خطبتي، أليس كذلك؟**».

«**أجل، أتذكر بالطبع. ولكني لم أحضر حفل الزفاف**».

ردت رحمة عليها وهي تحاول أن تخطف النظرات إليها بين الحين والآخر: «**تقريبًا سلمى هي من حضرت مع يحيى. أنتِ كنتِ قد سافرتِ**».

ردت حنين بدهشة لفتت نظر رحمة: «**سلمى حضرت حفل زفافك على معاذ؟! واضح أني فاتني الكثير**».

وحركت رأسها بأسى لتكمل:

«**أصبحت أعرف أخبارهم من بعيد.. لم أعد طرفًا في حياتهم**».

ولم تحاول رحمة الحديث معها مرة أخرى. وبمجرد أن وصلتا أمام منزل حنين التي تعرفه رحمة جيدًا، سلمت عليها رحمة وغادرت

في هدوء لتركب مع زوجها، ولم يشعر أحد بذلك الجالس في سيارته بعيدًا، لم يستطع معاندة قلبه الذي أبى ألا يطمئن عليها.

جلست بجوارمعاذ وعلى وجهها علامات الحزن الذي لم يخفَ عليه ليقول:

«**ما بكِ، رحمة؟ لا داعي لكل هذا البؤس**».

قالت بأسى:

«**إنهما لا يستحقان الفراق. أنت تعلم مثلي ما هي حنين بالنسبة ليحيى**».

«**أتعلمين، رحمة؟ صراحة، لولا علمي بوجود حنين لكنت شعرت بالغيرة من هذا اليحيى**».

ضحكت رحمة ضحكتها التي تأسر عقله دائمًا وهي تقول:

«**أتغار ممَّن خطبتني منه يا رجل؟!**».

قال مغازلًا إياها وهو ما زال ينظر أمامه يركز في القيادة:

«**أغار عليها من فم المتكلمِ... أغار عليها من أبيها وأمها... إذا حدثاها بالكلام المغمغمِ... أغار عليها من ثيابها إذا لبستها فوق جسم منعَّمِ**».

ابتسمت؛ ربما لا تعرف كيف تخجل منه، ولكنه أربكها كالعادة ليعم بعدها الصمت الذي جعلهما يذهبان لذكريات بعيدة:

وقفت رحمة مترددة أمام الكلية وهي ترى تجمعًا من الطلاب كانت تبحث عنه، أخذت نفسًا عميقًا وقررت الذهاب، فلا حل أمامها إلا هذا.

«باش مهندس يحيى، من فضلك ممكن لحظة؟».

دُهش يحيى؛ أفاتنة الكلية تريد الحديث معه؟! ليتفاجأ بزملائه ممَّن يقف معهم يأخذون الأمر بوقاحة أحرجت الفتاة ما بين همهمة واستظراف.

فقال أمجد: «إنه محجوز يا باش مهندسة».

نظر إليهم يحيى بضيق وقد هم بالانصراف، ولكن عاد ليقول لها:

«لحظة، آنسة».

التفت إليهم مرة أخرى قائلًا بغضب: «أقسم بالله إن لم تصمتوا وتحترموا المكان الذي تقفون فيه فسأعلمكم أنا الأدب. أوصل بكم أن تحرجوا الفتاة؟! هل هذه الرجولة من وجهة نظركم؟!».

وانصرف بعدها ليضحك أمجد وهو يقول:

«مبالغ فيه هذا الشخص».

فرد عليه باسم: «حقيقة هو أحرجنا، أمجد، لا تنكر».

ذهب يحيى لها وقال: «خير، آنسة؟ هل أستطيع مساعدتكِ في شيء؟».

«أنا... أنا كنت أريد منك شيئًا... وإذا كان هناك حرج من الأمر فلا عليك، لا يوجد مشكلة».

«خير، رحمة؟ ما الأمر؟».

«أعرف أن عائلتك تمتلك شركة مقاولات... وكنت... كنت أود مساعدتك لي لأعمل بها».

نظر إليها بتمعن قائلًا: «أتحتاجين العمل لهذه الدرجة؟».

«لا أخفي عليك... أنا أعمل لإكمال دراستي، فأنا أعيش هنا في العاصمة بمفردي، وقبلها كنت أعيش مع عائلة أبي، فأبي متوفى وأمي لا أعلم عنها شيئًا...»، لتكمل وقد نظرت إلى الأرض بخجل تحاول منع دموعها:

«أنا لن أستطيع إكمال دراستي إلا بهذه الطريقة».

قالت حكايتها ولم تخجل من شيء. وكم أبهرته ثقتها واعتزازها بنفسها رغم انكسارها الواضح! ليقول ببساطة محاولًا أن يُظهر الأمر طبيعيًّا:

«أنا أتدرب فعلًا في الشركة. أعدكِ غدًا سأخبركِ الرد، ولكن... لي استفسار... من أين تصرفين الآن؟ ولماذا أنا من طلبتِ مني ذلك؟».

ابتسمت رحمة وقالت بثقة:

«أنا الآن أعمل مساءً بأحد محلات بيع الملابس. الأمر صعب؛ لا أجد وقتًا للمذاكرة، وكذلك أقابل الكثير من السخافات. أما بالنسبة لماذا أنت؛ فصراحة أنت الوحيد الذي لم تحاول إيذائي بالكلام أو حتى.. بالنظر.. إن لم تستطع مساعدتي فمؤكد لن تجرحني».

أخذ نفسًا وهو يقول لها بابتسامة مواسية:

«لا عليكِ. من الآن أخواتي البنات زدن واحدة».

«ابتسمت له بامتنان وهي تقول: «كم أخواتك إذًا؟».

قال بابتسامة وكأنه يفكر:

«والله رسميًّا واحدة، أما فعليًّا فهن ثلاث، والآن أصبحن أربعًا».

«لم أفهم شيئًا... ولكن شكرًا لذوقك». قالتها وانصرفت بهدوء تُمني نفسها بنجاح الأمر؛ ربما تتغير حياتها.

هل ستعود لهذا السجن الذي فرضته على نفسها؟ هل كُتب عليها الوحدة وكأنها المذنبة؟ هل هي الوحيدة التي تستحق العقاب؟

وبمجرد دخولها غرفتها جلست أرضًا بجانب فراشها، وأغمضت عينيها وأخذت تحدث نفسها:

«**لماذا، يحيى؟ لماذا آخر أمل لي أن أظل جوارك تمحيه؟ لماذا مصمم على تركي أواجه الدنيا بمفردي؟ أنا لم أعد أقوى على المواجهة وحدي...**».

تبكي، وكأن البكاء سيغير الواقع، وكأنه سيحل مشكلة أو سيعيد الزمن للخلف. تبكي ولم يعد معها سوى الذكريات، لتتذكر كيف تعلمن ثلاثتهن رياضات الدفاع عن النفس بسعادة ومرح. ربما هذا ما أفادها كثيرًا فيما بعد!

صباحًا..

جلس باسم أمام يحيى في مقر شركة الأخير، ليرحب به يحيى قائلًا:

«**أهلًا بك، باسم، أخيرًا زرتنا!**».

رد باسم بجدية:

«**يحيى، لم آتِ اليوم إلا لأني أعلم أهمية ابنة عمك بالنسبة لك**».

أضاق يحيى ما بين حاجبيه وقال له بحدة:

«**وما دخلك بحنين؟!**».

رد باسم وقد توقع منه الثورة:

«**أمجد لا ينوي خيرًا أبدًا تجاهها. حقك عليَّ يلزمني أن أنبهك. أنت تعرفه؛ ليس متزنًا لنتوقع ماذا ممكن أن يفعل**».

تفاجأ بيحيى يرد عليه بهدوء غريب: «**أتعلم يا باسم إذا اقترب منها فماذا يمكن أن أفعل به؟**».

حاول بعدها الخروج من الموضوع؛ فالحديث عن حنين يربك تفكيره، فقال:

«**هل عدت من السفر نهائيًّا؟**».

«**أجل، لا أنوي السفر مرة أخرى؛ فأنا لم أشعر أني استفدت الكثير، بالعكس؛ أريد أن أحقق نجاحًا هنا في بلدي، فمهما طال السفر فسأعود، فلماذا لا أعود من الآن وأستقر وأثبت نفسي هنا؟**».

رد يحيى بسعادة واضحة: «**إذًا فكر في العمل معنا؛ نحن نحتاج وجودك، وقد عرضت عليك ذلك قبل سفرك وأنت صممت أن تخوض التجربة، والآن أعرضه عليك مرة أخرى**».

وقبل أن يتحدث باسم أشار له يحيى بيده ليكمل حديثه:

«**قبل أن ترد فكر جيدًا، ومعك كل الوقت**».

رد باسم باقتناع: «**حقًّا أنا متردد في أمور كثيرة؛ دعني أرتب أفكاري أولًا قبل أن أرد عليك**».

بعد مرور عدة أيام لم تذهب حنين فيها إلى النادي مرة أخرى، وكأنها تمتثل لأوامر شخص لم يهتم بوجودها، ظلت تخرج يوميًّا تجلس أمام النهر، تغير مكانها كل يوم مبتعدة عن متابعة المتلصصين، تقرأ كالعادة أو تسير بلا هدف أو بالأصح بلا أمل، لتعود في يوم وتجد ما لم تتوقعه ليكمل حظها العسر؛ ناداها والدها وكأنه في زحام عمله تذكر وجودها فجأة! ليقول بجدية شديدة كعادته: «**أنتظرك منذ فترة، لمَ هذا التأخير؟**».

ردت ببرود: «**هل تحتاج شيئًا، أبي؟**».

«**نعم، هناك ضيوف مدعوون على العشاء اليوم، أريد منكِ استقبالهم معي، أريدكِ أن تكوني في أبهى صورك**».

لتقول بدهشة: «**لماذا في أبهى صوري؟!**».

«**لأن الأستاذ زاهر رشوان صديق قديم لي ورجل محترم، من الرجال القلائل الذين شرفتني معرفتهم منذ مدة، سيحضر لزيارتنا وسوف يكون معه ابنه. صراحة حاول التلميح لي بأن ابنه يريد الارتباط بكِ**».

فصُدمت وردت باندفاع: «**لكن، أبي، أنا لا أريد الارتباط، أنا غير مستعدة لذلك. وأنت تعلم ما مررت به؛ ليس مرة أخرى، أبي!**».

خرج عن هدوئه وقال بنبرة مرتفعة:

«ماذا تقولين؟! هل تريدين أن أتصل بالرجل وأقول له: 'عفوًا، لا تأتِ منزلنا اليوم؛ فالسيدة حنين غير مستعدة'؟! اسمعيني جيدًا، لقد صبرت عليكِ كثيرًا، ولن أتركك تضيعين فرصة كهذه. ومع ذلك، اجلسي معهم اليوم وبعدها نتناقش في الأمر، بعد أن تريه، وعندها ستكون كل الأمور واضحة».

هزت حنين رأسها بحسرة وصعدت لغرفتها دون روح، دون حياة، ودون حلم؛ هكذا هي دائمًا مطيعة بسلبية، ما الجديد؟!

في المساء وعلى موعد العشاء

نزلت حنين مع والدها لاستقبال الضيوف المنتظرين، لتفاجأ بابن السيد زاهر؛ هو ذلك الشخص الوقح المدعي أمجد، الذي تشاجرت معه في النادي. وأمام صدمتها، رسم أمجد ابتسامة هادئة على وجهه، وقدم لها باقة من الزهور بكل لياقة، ليبتسم والدها ابتسامة نصر كأنه أصاب هدفًا.

قررت أن تمرر اليوم بهدوء، وألا تذكر اسم يحيى لوالدها نهائيًّا حتى لا يزداد عنادًا وينقلب الأمر عليها.

بعد تناول العشاء جلس الجميع يتسامرون، ولكن الحديث لم يخلُ - كعادة والدها - من الصفقات؛ فاتفق مع زاهر أن يتولى تشييد وبناء القرية السياحية بكاملها، التي يخطط زاهر لبنائها في منطقة الساحل، على أن يتم إمضاء العقود في اليوم التالي.

وخلال مناقشاتهم استأذنت حنين لتغادر إلى الحديقة؛ ربما تستطيع أخذ أنفاسها بعيدًا عن حديث والدها الرتيب. ظلت تتجول وهي شاردة، لتقف أمام مجموعة من الزهور في زاوية من سور

الحديقة خلف المنزل، جلست على الأرض تمسح على الأزهار وكأنها تنظفها من غبار الزمن، تبتسم وهي تشكر بداخلها عفاف التي اعتنت بهذه الزهور أثناء عدم وجودها، بعكس أشياء كثيرة بالمكان قتلها التجاهل وعدم الاهتمام، وعادت بذكرياتها – كالعادة – إلى اليوم الذي غرست فيه هذه الزهور.

في الماضي

«انظر، يحيى؛ لقد زرعت عودًا من الزهور التي أحضرتها لي في عيد ميلادي، وقد بدأت الأوراق الجديدة في الظهور. ما رأيك؟».

«جميل، حبيبتي. ولكن انتبهي له حتى لا يذبل».

«لا، أبدًا، لن أتركه يذبل وسترى؛ كلما كبر فسأقطع منه جزءًا وأغرسه هنا حتى يملأ المكان أزهارًا، سأجعله يعيش أطول وقت ممكن. أعدك».

وفي هدوء ذكرياتها وجدت يدًا تمسك بها لتنتفض من مكانها وهي تحاول تخليص يدها منه:

«**أنت مرة أخرى؟! كيف تأتي ورائي بهذه السهولة؟! ألا يهمك وجودك في منزلي؟!**».

ضحك بسخرية ليستفزها أكثر:

«**لا، لن أقبل حديثك بهذه الطريقة معي مرة أخرى**».

«**تقبل أو لا تقبل ليس شأني. ابتعد من أمامي**».

تفاجأت به يمسك يديها الاثنتين، يثبتهما خلفها على حائط السور. وقبل أن تصرخ وضع يده على فمها ليقول بتهديد:

«أحذركِ من التهور، سوف تندمين عندما يجدونكِ ملقاة على هذه الأرض وسط ورودكِ الجميلة؛ فأنا لا يهمني فعل أي شيء».

فتحت حنين عينيها باتساع مصدومة، مدركة أن هذا الشخص ليس طبيعيًّا. ابتسم وأكمل حديثه:

«أردت إخباركِ فقط بشيء صغير يا حلوتي للعلم بالشيء؛ لأرى تأثير الخبر الجميل عليكِ: وافق والدكِ على خطبتنا، والحفل بعد يومين من الآن، وقبل تسجيل عقود الشراكة».

حاولت حنين التخلص منه أو ركله بقدمها، ولكنه كان قد أحكم تقييدها، وأكمل حديثه المستفز: **«حبيبتي، لا تخرجي من المنزل بغير علمي، أفهمتِ؟ نحن الآن في حكم المخطوبين، أليس كذلك؟».**

تركها وهو يضحك، وقد أعجزتها الصدمة عن الحديث، ليكمل قائلًا:

«نسيت إخباركِ؛ شهران فقط على الزفاف، استعدي، أنا لا أقبل بأي ليلة بسهولة، لي مواصفاتي الخاصة، لقد نبهتكِ، استعدي من الآن، ولكن لا تستعدي كثيرًا؛ فالطلاق سيكون هدية صباحيتك يا عروس. فأنا لست ممَّن يفضلون هذه القيود، ولكن أشعر أن الأمر هكذا سيكون ممتعًا».

وأطلق ضحكة مستفزة وهو يكمل:

«سوف يصبح خبر الموسم؛ ابنة رجل أعمال مشهور، سليلة الحسب والنسب، طُلقت يوم صباحيتها. وطبعًا السبب معروف، وقتها سيبحثون عن فضيحة. ماذا سيكون شعور ابن عمك الشجاع وقتها؟».

تركها وغادر ضاحكًا، ظلت في مكانها لا تستوعب ما قاله هذا الخسيس، تحرك رأسها بعدم تصديق، من أين لها بهذا المجنون؟ هل كان ينقصها ذلك؟! وإذ بها تجلس على الأرض تبكي بكاءً بطعم مرارة ثلاث سنوات اعتقدت أنها أنهت بها كل مرار حياتها. كانت تنتظر الأفضل، ولكن يبدو أن هناك الكثير في انتظارها.

وبعد أن أفاقت من صدمتها، دخلت المنزل لتجد والدها يبحث عنها، فقد انصرف الضيفان أخيرًا.

«**حنين، أين كنتِ؟ لماذا لم تعودي لتوديع الضيوف؟!**».

قالها بغضب، فلم يجد أي رد منها وكأنها لم تسمعه، ليردف قائلًا:

«**على العموم، اتفقت أنا وزاهر أن خطبتكِ لأمجد يوم الخميس القادم**».

انتبهت حنين لحديثه ونظرت له بعدم تصديق، لتقول وعيناها أشبه بكتلتين من الدماء:

«**خطوبة مَن، أبي؟ وهل وافقت أنا؟! حددت خطبتي دون علمي؟! كيف، أبي، تسلبني أبسط حقوقي؟**»، ليرتفع صوتها أكثر قائلة: «**كيف تتخيل أني سأوافق بهذه السهولة؟! تبيعني بصفقة، أبي! بعد كل ما حدث لي تعود وتريد بيعي!**».

قال بحدة: «**بنت، تهذبي وأفيقي لما تقولين**».

«**بالعكس، لقد أفقت، ولكن للأسف بعد أن أضعت كل شيء. تبيعني، ولكن هذه المرة بالرخيص، ولشخص رخيص**».

رفع سليم يده لتتفاجأ بصفعة سقطت على أثرها أرضًا، لتقول بتحدٍّ:

«لا، أبي، هذه المرة لن أصمت، حتى لو قطعتني فلن أرضى، لن أباع، كفاني انتهاكًا، كفاني ذُلًّا. مهما فعلت بي فلن أوافق».

قالتها وهي تصرخ بمرارة، فما كان منه إلا أن خلع حزامه بجمود وأخذ ينهال عليها ضربًا. ورغم صدمتها فإنها استمرت على نفس كلماتها:

«لن أُباع، أبي، لن أقبل أن تتعامل معي وكأنى أحد أملاكك. تعلمت الدرس متأخرًا. لن أصمت مرة أخرى».

زادت ثورته وهو يقول: **«عديمة التربية، أنا سأربيكِ من جديد»**.

«أجل، لم تربِّني، لم أجد إلا إياها تربيني. قلتها سابقًا، وأيضًا لم تربِّني».

تدخلت عفاف وصباح لتخليصها منه، ومع ذلك جذبها من شعرها يصعد بها إلى غرفتها:

«فعلًا، سأربيكِ من جديد».

رماها داخل الغرفة، وخرج يهتف بحدة وهو يقول للواقفتين أمامه:

«حذار أن تخرج من الغرفة دون علمي. أسمعتما؟».

تركهما وغادر إلى غرفته، لتدخل إليها عفاف فورًا تُطيب جراحها وهي تبكي حال هذه التعيسة التي تركها الجميع مع هذا الأب القاسي.

أما صباح، فما كان منها إلا أن رجعت لتكمل عملها وعلى وجهها علامات الجمود والصدمة ولا تعرف ماذا تفعل.

في الصباح، بمجرد خروج سليم من المنزل، خرجت حنين من غرفتها بخطوات حذرة تحاول الهروب من هذا الكابوس.

قررت الهروب رغم تأكدها أن والدها قد أعطى الأوامر بعدم خروجها، ولكن لا بد لها من المحاولة، ولا بد أن تنجح هذه المرة. وبمجرد نزولها السلم وجدت صباح أمامها، فصرخت بفزع، وظلت ترجع بظهرها تتخيل ماذا يمكن أن يفعل أبوها بها إذا علم بمحاولة هروبها التي لن تنجح أبدًا بوجود أحد في المنزل.

تفاجأت بصباح تمسك يدها تجذبها في اتجاه المطبخ، ولم يكن أمامها أي خيار غير أن تذهب معها، لتجدها تفتح لها الباب الخلفي للفيلا والموجود في المطبخ وتقول:

«**لو خرجتِ من الباب الأمامي فسيمنعكِ الأمن. هذا أفضل. هل معكِ مال؟**».

هزت حنين رأسها بـ «**لا**»، فما كان من صباح إلا أن أخرجت من جيبها ورقة من المال أعطتها لها وهي تربت على كتفها بشفقة وتقول:

«**اركبي سيارة أجرة من أول الشارع الخلفي حتى لا يراكِ أحد**».

أخذت حنين المال وأطلقت العنان لقدميها، هرولت وكأنها في حلم. وبمجرد أن ركبت السيارة وسألها السائق أين تود الذهاب، لم تتذكر سوى عنوان واحد.

وصلت حنين أمام شركة يحيى، وحاولت الدخول لتجد الأمن يمنعها، فشكلها مثير للريبة؛ علامات الضرب تظهر عليها، هندامها غير المنظم، شعرها المنتشر حولها بعشوائية.

فقال موظف الأمن: «**عفوًا، سيدتي...**».

قالت بارتجاف واضح في صوتها: «**من فضلك، أريد المهندس يحيى**».

نظر إليها رجل الأمن وقد ارتاب من شكلها:

«**عفوًا، هو لم يحضر بعد. من فضلكِ ابتعدي من أمام المدخل**».

«**أرجوك، لا بد أن أقابله. حدثه، أخبره أني أريده، قل له حنين. من فضلك**».

قالت كلماتها بتوسل وقد بدأت في البكاء، لتكمل قائلة:

«**أنا ابنة عمه، لا بد أن أقابله**».

أوشكت على الانهيار؛ ممَّا جعل رجل الأمن يشفق عليها ليجد زميله يقول:

«**وهل تصدق أن ابنة عمه لا تعرف رقم هاتفه أو حتى منزله؟!**».

جلست على السلم ترتجف، فلم تعد تحتمل الوقوف، ولم تتحرك رغم محاولات الرجلين إبعادها، إلى أن وصلت رحمة إلى الشركة لتتفاجأ بحال حنين، فقالت بدهشة:

«**حنين، ماذا بكِ؟!**».

الفصل الثالث

عندما يشتد بك الهم، وتشعر أنه قد ضاقت بك الدنيا، فاعلم أنه دائمًا بعد الضيق فرج، وبعد العسر يسر.

نظرت حنين إلى رحمة بتوسل وكأنها وجدت أخيرًا طوقًا للنجاة.

«**أريد يحيى، أرجوكِ**».

لم تستوعب رحمة ماذا ممكن أن يكون قد حدث لهذه المسكينة، فجذبتها لتقف وهي تحاول إسنادها، واتجهت بها إلى سيارتها بعيدًا عن مدخل الشركة الذي بدأ يلفت نظر المارة:

«**اركبي، حنين، سنذهب ليحيى، لا تخافي**».

أطاعتها حنين كطفل صغير ليس بيده فعل شيء، لتقول رحمة تحاول طمأنتها:

«**لا تخافي، سأتصل به، فقط اهدئي**».

حاولت رحمة الاتصال بيحيى، ولكن من الواضح أنه ما زال نائمًا، فهي تعلم وصوله من السفر فجرًا، ولم تجد أمامها إلا الاتصال بزوجها.

بعد سماع معاذ ما حدث عبر الهاتف قال لها: «**رحمة، اذهبي بها في اتجاه شقة يحيى وليس منزل العائلة. هو هناك الآن، وأنا سأسبقكِ**

إلى هناك. لا داعي لذهابها بهذا الشكل إلى والدته وأخته حتى نعلم ماذا حدث».

غيَّر معاذ اتجاهه ليذهب إلى يحيى هو الآخر، وحاول الاثنان الاتصال به ولكن لا فائدة. وصل معاذ قبل رحمة، وصعد إلى الشقة وظل يضرب الجرس فترة، وأخيرًا استيقظ يحيى الذي دُهش من طرق الباب بهذا الشكل. أخذ كنزته ليرتديها، وخرج مسرعًا، وبمجرد فتحه للباب قال بكسل:

«**معاذ، ماذا حدث لكل ذلك؟ ألا تعلم أني وصلت فجرًا؟ ماذا هناك؟!**»

ليقول معاذ بهدوء: «**رحمة في طريقها إلى هنا ومعها حنين، يبدو أن هناك أمرًا ما حدث لها؛ وجدتها منهارة أمام الشركة تبحث عنك**».

انتفض وكأن النعاس هرب فجأة وهو يقول: «**ماذا بها حنين؟**».

«**رحمة أخبرتني أن هناك علامات ضرب عليها، وأنها في حالة انهيار ولا تريد التحدث في أي شيء، كل ما تقوله فقط إنها تريدك**».

جذب يحيى مفاتيحه وهاتفه من على الطاولة بالقرب من مدخل الشقة، وخرج مسرعًا وخلفه معاذ الذي أغلق الباب خلفه.

اتصل يحيى برحمة ليطمئن على قرب وصولهما؛ وربما تكون قد فهمت شيئًا منها:

«**ماذا حدث لها؟**».

«**لا أعرف، يحيى. وجدتها...**».

قاطعها قائلًا: «**أعطيها الهاتف**».

«**لا يمكن، يحيى، هي نائمة؛ واضح أنها مرهقة**».

«أين وصلتِ الآن؟».

«أنا اقتربت. شارع واحد وأكون أمامك».

أغلق الهاتف وأخذ ينظر إلى الطريق وهناك ألف خاطرة تجول برأسه، يتحرك يمينًا ويسارًا، فقال معاذ:

«اهدأ، يحيى، قليلًا».

«مستحيل أن تُقدم على المجيء لي وهي بخير، معاذ. أتفهم؟ أنا أعرفها جيدًا؛ هناك شيء كبير».

وقفت سيارة رحمة أمامهما، فأسرع يحيى باتجاه الباب المجاور لحنين، وبمجرد أن فتحه تفاجأ بشكلها وما هي عليه، فقالت رحمة محاولة طمأنته:

«يحيى، هي نائمة، لا تفزعها».

هتف بها بحدة: **«من قال إنها نائمة؟! من قال إنها بخير؟!»**.

أبعده معاذ ليقوم بشد جفنها لأسفل وهو يقول:

«يحيى، هي نائمة فعلًا، لا تقلق. واضحة علامات الإرهاق عليها».

لم يرد عليه، ولكنه مال عليها واضعًا يده تحت ساقيها واليد الأخرى وراء رقبتها، وحملها صاعدًا بها إلى شقته. ساعده الاثنان في فتح الباب والدخول بها، واتجه بها إلى غرفة النوم، وضعها على الفراش أمام نظرات معاذ ورحمة المدهوشة، فقالت رحمة:

«يحيى، سأظل معها، لا تخف، سأحاول إيقاظها بعد قليل. انتظر فقط بالخارج».

نظر إلى معاذ قائلًا: **«هذا الضرب حديث، أليس كذلك؟»**.

هز معاذ رأسه بحزن، ونظر إلى زوجته ليقول: «**رحمة، أيقظيها بهدوء وحاولي فحص جسدها لنتأكد من عدم وجود جروح تحتاج إلى تدخل**».

نظر إليه يحيى بقلق: «**ماذا تقصد؟**».

أجابه معاذ بعملية: «**وهل تعتقد أن من ضربها هكذا سيهتم كيف يضربها؟**».

أخذ يحيى نفسه بصعوبة، فجذبه معاذ خارج الغرفة وأغلق الباب.

حاولت رحمة أن توقظها بهدوء بعد أن تأكدت أنها لا تعاني أي إصابات شديدة، بدأت حنين في الاستجابة، وكأنها لم تنم منذ زمن. وما إن فتحت عينيها ووجدت نفسها على الفراش حتى صرخت دون وعي ودون حتى أن تنظر لرحمة التي صُدمت من رد فعلها:

«**اهدئي، حنين؛ أنا رحمة**».

ولكن لحظة واقتحم يحيى الغرفة، لم يقاوم صراخها ولا استغاثتها به، لم تنطق أي كلمة أخرى غير اسمه، ضمها بين ذراعيه يحاول تهدئتها وكأنه مغيب. وأمام نظرات رحمة المدهوشة لمعاذ، ما كان من معاذ إلا أن قال:

«**يحيى، قم معي واتركها تهدأ لتخبرك ماذا حدث فيما بعد**».

رفع رأسه ينظر لمعاذ، واستوعب ماذا فعل، فأبعدها عنه بهدوء قائلًا:

«**حنين، أنتِ معي، لا تخافي من شيء**».

ارتجف قلبها لكلمته، فكم كانت تشتاق له! لتقول متوسلة:

«**لا تتركني مرة أخرى، لم أعد أستطيع التحمل، لم يعد لي طاقة**».

رد بحنو: «**أعدكِ هذه المرة لن أفعلها، لن أتركك منذ هذه اللحظة، لا تخافي، فقط اهدئي لأعرف ماذا حدث**».

وبمجرد وقوفه ليخرج من الغرفة، إذ بها تهتف: «**لا تتركني**».

وقد بدأت في مسح دموعها بظهر يدها لتكمل: «**أنا بخير، لكن لا تتركني**».

تحدثت رحمة أخيرًا بعد كثير من الصمت: «**حنين، قومي معي اغسلي وجهكِ وتناولي أي شيء، وبعدها تحدثا معًا كما تريدين**».

تحركت معها حنين بطاعة، وخرج يحيى مع معاذ الذي ظل يعاتبه على هذا التهور:

«**ما عهدتك هكذا، يحيى. أنسيت أنها لم تعد زوجتك؟ اهدأ يا رجل، هل ستنهار بجوارها؟!**».

ليقول يحيى بحرج ظهر في صوته: «**أنهِ هذا الحديث الآن، معاذ، وانسَ؛ ما حدث لن يتكرر، اطمئن**».

رد معاذ بتفهم: «**أنا فقط أنبهك لتصرفاتك. هي لم تعد الصغيرة التي ترعاها، لم يعد معقودًا قرانكما، وليست هي سلمى أختك. أعلم أنك تراعي الله فيها، فلا تترك مشاعرك تحركك، وخصوصًا أنك اليوم لست كالأمس. هل تفهمني، يحيى؟**».

هز يحيى رأسه وظل صامتًا، وما إن خرجت مع رحمة حتى تفاجأ الجميع به يقول: «**اذهبي، رحمة، إلى الشركة؛ فلا بد من وجود**

أحدنا هناك. وأنت، معاذ، اذهب إلى عملك ولا تخف؛ كل شيء سيصبح على ما يرام».

نظر الاثنان له بذهول ولم يستطيعا الكلام، تحرك يحيى وجذب معاذًا جانبًا ليقول:

«**انتظر مني مكالمة، معاذ. ولا تقلق، صدقني سأخبرك بكل شيء**».

حاول معاذ الاعتراض قائلًا: «**ولكن، يحيى...**».

قاطعه يحيى بحزم: «**هي لن تتحدث أمامكما، وبحالتها هذه لا يمكن أن أذهب بها إلى أي مكان عام، أفهمت؟**».

رد معاذ بغير اقتناع: «**حسنًا، يحيى، سأنتظر مكالمتك**».

انصرف الزوجان، وعاد يحيى لها ليجدها تجلس على الأريكة مغمضة العينين، فظن أنها نامت مرة أخرى. وبمجرد أن استعد ليعدل من نومتها، وجدها فتحت عينيها لتقول: «**لم أنم، يحيى**».

أمام المبنى

قال معاذ لرحمة: «**اتركي سيارتكِ هنا وتعالي معي أوصلكِ للشركة، وسأمر عليكِ بعد العمل**».

ابتسمت له رحمة وهي تقول بمشاغبة: «**سأذهب كما أخبرتك، معاذ، لا تحاول**».

«**إذًا انتظريني بعد العمل لأذهب معكِ**».

مدت رحمة يدها لتخلع نظارته الطبية وكأنها تُفقده هذه الهالة الجادة حوله وهي تقول بنعومة: «**قلت لك لا تحاول**».

أخذ نظارته منها وهو يهز رأسه بيأس ويفتح لها باب سيارتها لتركب، وذهب هو في اتجاه سيارته. ظلت رحمة تنظر إليه بتأمل وهي جالسة أمام عجلة القيادة وكأنها في بداية قصتهما ولم يمر أكثر من ثلاث سنين على هذا الزواج، تبتسم وهي تشاهد كل تفاصيله وكأنها المرة الأولى التي تنتبه لها، نظارته الطبية التي تزيده وسامة وجاذبية، أناقته المعتادة ببدلته الرسمية التي لا يتخلى عنها إلا نادرًا بطوله المميز، حتى وقار وسحر ابتسامته لها من وراء زجاج سيارته بعينيه البنيتين كلون شعره.

«**يا لك من مُهلك، حبيبي!**».

قالتها لنفسها عندما استوعبت أنه لاحظ تأملها له، وإذ به يغمز لها وهو يدير سيارته قبل أن يشير لها أن تتحرك ليتحرك وراءها. وقد رماها بسهامه للمرة التي لا تعرف عددها.

مهما مرت الأيام سيظل من في القلب كما هو، محفوظًا في مكان خفي لا يستطيع الوصول إليه إلا عقل المحب الذي أخفاه بجدارة. خدعك من قال إن البعيد عن العين بعيد عن القلب، عقلك وحده هو من يستطيع إخراج هذا الحب والرمي به بعيدًا إن كنت ترى أنه يستحق ذلك، أو حبسه خلف أبواب أغلقتها عليه بإحكام منتظرًا حكمك بالإفراج عنه.

جلس يحيى جوارها متحدثًا بحنو أنعش روحها: «**ماذا حدث لكِ؟ أهو من فعل بكِ هكذا؟**».

هزت حنين رأسها بـ «**نعم**» دون أن تتكلم، فقال بأسى: «**أتصل به قسوة القلب إلى هذه الدرجة؟**».

ردت عليه بكل هدوء: «**ليست الأولى، يحيى. الفرق فقط أني استطعت الهرب هذه المرة**».

رد باستفهام: «**ماذا تقصدين؟ ماذا حدث، حنين؟**».

وكأنها تحولت بمجرد وجوده جوارها لتصبح أخرى تنسى ما حدث لها وهي تقول:

«**سأخبرك كل شيء، لكن... أشعر بالجوع**».

نهض فورًا ملبيًا طلبها ليمسك الهاتف ويطلب كل ما يعلم أنها تحبه. وأثناء انتظارهما الطعام، أخذت تقص عليه كل ما حدث منذ أن رأت أمجد في منزلهم إلى أن هربت من المنزل بمساعدة صباح، صُعق ممَّا وصل إليه هذا الوغد وما خطط له، وما صدمه أكثر هو تصرف عمه وقسوته على ابنته الوحيدة؛ فمهما كان فمن المفترض ألا يحبها أحد مثله!

رن جرس الباب ليقول يحيى: «**بالطبع الطعام قد وصل**».

استلم يحيى الطعام، وأخذ في فتح الأكياس أمامها ليجدها تنقض على الطعام كمن لم يأكل من قبل. ظل ينظر إليها لا يعرف أيفرح بوجودها أمامه أم يحزن على حالها. كيف وصلت لهذه الحالة من التناقضات؟

ليقول ولم يستطع الانتظار حتى تنهي طعامها: «**لماذا لم تخبري أباكِ بما فعله هذا الحقير معكِ؟**».

«**لم يكن ليصدقني، يحيى**».

ردها عليه ببساطة وهي ما زالت تأكل صدمه أكثر، فقال بدهشة:

«**لماذا توقعتِ هذا؟ ما تقولينه ليس هينًا**».

«**لأنه لم يصدقني من قبل**».

تركت الطعام من يدها وكأنها تذكرت شيئًا، وأكملت بتوتر وقد بدأ يشعر بأن القادم ليس أفضل:

«**حنين، ماذا تخفين؟ ماذا حدث؟ تحدثي. هل حاولتِ الهرب من قبل؟ ولماذا؟!**».

بدأت تقص عليه ما عانته ببساطة لا تتناسب مع ما تقول، وكأنها تحكي له قصة ليست هي بطلتها: «**أجل، حاولت الهرب منذ ثلاث سنوات. ولكن للأسف لم أستطع؛ كنت ضعيفة كما وصفتني أنت تمامًا عندما أخذتهم جميعًا وتركتني وحدي**»، لتذكره بما حدث وتقص عليه ما لم يعلمه.

في الماضي

حمل جميعهم الحقائب ليغادروا منزل العائلة لأول مرة، اتجه يحيى بوالدته وأخته للسيارة، وأمام بكائهما وإصراره هو على عدم الاستمرار في هذا المكان مع هذا الشخص بعد ما فعله، قام بالدخول مرة أخرى ليجد حنين ما زالت واقفة كما هي تمسك بالسلم وتبكي، لا تعرف كيف تتصرف، نظر إليها ليقول:

«لآخر مرة أقول لكِ تعالي معنا».

صاح فيه سليم: «ما لك بها؟ أردت الذهاب، فلا مشكلة، اذهب رغم ما عرضته عليك. لكنك غبي؛ ستعود رغمًا عنك يومًا نادمًا على ما تفعل الآن».

رد عليه يحيى بنفاد صبر: «تريدني أن أعمل عندك وأنا لي مثلك وأوافق، تريد أن أطيعك في ما لست مقتنعًا به وهو مالي! حقًّا خدعك عقلك هذه المرة».

قال سليم بحدة: «لا تصدق نفسك، هذه الشركة مجهود سنين، متخيل أن أسلمك نصفها بهذه السهولة؟! أنا أعطيتك ما أرى أنك تستحقه أنت وأمك وأختك».

رد يحيى وقد استعد للمغادرة، فليس للحديث فائدة: «سأعود، عمي، وآخذ حقي. أعدك بذلك».

نادى بعدها حنين التي ما زالت واقفة كما هي: «حنين، لا بد أن تأتي معنا. تحركي، لمَ تقفين هكذا؟».

قال سليم بسخرية: «وهل هي من حقك أيضًا، ابن أخي الغالي؟!».

رد يحيى بثقة: «نعم، حقي. وأنت تعلم ذلك».

ليصيح فيه سليم: «طلقها. الأمر بسيط».

حاولت هي أن تتحدث لأول مرة: «أبي، أرجوك. كنا سعداء، لماذا كل هذا؟!».

صرخ فيها مرة أخرى قائلًا: «اصعدي لغرفتك ولا أريد رؤيتكِ الآن».

نظرت ليحيى قائلة بهمس: «لا تتركني».

فقال محاولًا: «إن لم تأتي معي، حنين، الآن؛ فتأكدي أنك خسرتِني».

ظلت واقفة كما هي لتستجيب أخيرًا لأمر أبيها وتدور صاعدة باقي درجات السلم ليوقفها صوت يحيى مناديًا إياها: «حنين، لآخر مرة أقولها لكِ، تعالي معنا».

نظرت لأبيها بترجٍ ولم تتحرك، لتُفاجأ به ومع وجع كرامته وكبريائه الذي قتله ضعفها وخوفها من والدها:

«أنتِ طالق، حنين... طالق».

أفاقت حنين من ذكرياتها على صوته يقول:

«**تركتكِ مع والدكِ، لم يكن بيدي أخذكِ معي دون إرادتكِ، وأنتِ لم تحاولي حتى طلب المجيء معنا، كنتِ سلبية تنتظرين مني أن آخذكِ بالقوة، ولكن للأسف كان صعبًا. لم تعطيني الفرصة لأدافع يا حنين**».

لتقول دون النظر إليه: «**أخبرني أنك ستعود من أجلي وتقبل ما يريد. أخبرني أنك لن تتركني وستعود لنعود جميعًا كما كنا**».

ضحك بسخرية قائلًا: «**هذا ما تخيله وتخيلتِه أنتِ، ولكن غاب عنه وعنكِ أني لم أعد ذلك الصغير الذي أطاعه لفترة كان يعتقد فيها أنه يفعل ما لمصلحته. لم أتخيل عندما قررت المغادرة أنكِ لن تأتي معي. لم أفكر أبدًا أني سوف أذهب وأنتِ لستِ معي، ولكنكِ من اخترتِ يا حنين**».

«**وأرحت ضميرك بهذه الفكرة، يحيى، ولم تبحث عني بعدها**».

أسرع ليدافع عن نفسه قائلًا: «**أنتِ من سافرتِ، سافرتِ دون إخباري، سافرتِ ولم تحاولي حتى التواصل معي بأي شكل. تركتكِ لتحققي حلمكِ في السفر وإكمال دراستكِ. تعلمين جيدًا أني لم أكن أقبل ذلك، ووجدتِها فرصة. أليس كذلك؟**».

تفاجأ بها تضحك بشدة وتقول ببساطة: «**ولكني لم أسافر**».

«**ماذا؟!**». قالها بصدمة ثم أكمل: «**كيف؟! أنا كنت أسأل عنكِ السيدة عفاف! أخدعتني هي الأخرى؟! أين كنتِ، حنين؟!**».

انسابت عبراتها وهو أمامها لا يستوعب ما تقول. «**انطقي، حنين. أين كنتِ؟**».

حاولت التحدث لتقص عليه ما لم يتخيله عقله.

منذ ثلاث سنوات

«ماذا، أبي؟ عريس؟! أنا لن أتزوج سوى ابن عمي الذي تسببت في طلاقي منه قبل زفافنا بأيام. لم أطِعْك إلا لوعدك لي بأنه سيعود، ولم يحدث. إذًا سأنتظره حتى يعود».

«أنا من يقرر من ستتزوجين. هو ليس مناسبًا لكِ، وما أقوله تنفذينه دون نقاش. انسي أمر ابن عمك هذا، هو لن يعود، لقد نسيكِ ولم يتذكر سوى الأموال».

تكلمت حنين بجرأة لم يعهدها أبوها بها وهي تقول له وأنفاسها تتسارع:

«وأنا لن أوافق على غيره. ظللت معك لأنك أبي، وأنا أعلم أنك ظلمت ابنَي عمي. لكن أن تزوجني بهذه الطريقة لن أقبل»، لتفاجأ به يجذبها من ذراعها بقوة قائلًا «اخرسي. هل هذا ما علمه لكِ ابن عمكِ وأمه؟! هذا جزاء تركي إياكِ معهم. أتريدين أن تتزوجي هذا الغبي ليأخذ كل شيء في النهاية على طبق من ذهب وفوقه أنتِ هدية؟! هل هذا ما يريده؟!».

لتقول وهي تبكي بقهر: «أنت قلتها، أبي، تركتني معهم. أنت لا تعلم عني شيئًا، لم تكلف نفسك عناء التفكير في أمري. وتأتي الآن لتخبرني أنك أبي وتريد أن تزوجني؛ فقط من أجل أن تكسره أكثر! من أجل أن تحرق قلبه، تحرقني كلي!».

صفعها بقسوة هذه المرة وهو يصرخ فيها: «إياكِ أن أسمع هذه السخافات مرة أخرى. هل فهمتِ؟ أنا أحميكِ منهم، كل ذلك لأجلكِ؛ سيأخذون أموالكِ من بعدي لأنكِ فتاة، يريد الزواج منكِ ليأخذ كل شيء، استطاع تعليقكِ به لأنكِ ساذجة، نجحت أمه أن تجعلكِ تابعة لهم، وأنا من سهلت لهم هذه الفرصة».

رجعت حنين من ذكرياتها لتقول: «**حاولت الهرب بعدها للمجيء إليكم، ولكن كان متأكدًا أني سأفعلها، ومنعني الخدم وأخبروه**».

لتطلق لشهقاتها العنان، ولم تعد تستطيع التحدث بعدها، نظر لها يحيى بصدمة مما تقول، وشعر بالوجع بداخله لأنه استأمن من لا يستحق، لم يحاول مقاطعتها، أو ربما لم يجد ما يقول.

لتكمل حديثها أو بالأحرى وجعها بعد وقت ليس بالقصير، استطاعت فيه أن تقنع نفسها أن القادم أفضل: «**عندما علم عاد فورًا إلى المنزل ليكمل تربيته لي كما قال – فأنا لم أجد أُمًّا تربيني –. صراحة بعدها لم أعد أتذكر كيف ضربني، أو حتى مدى الألم الذي شعرت به؛ فالألم بداخلي كان أكبر من أن أشعر بضرباته القاسية وكأنه يعاقبني لأني فتاة**».

أغمض يحيى عينيه وكأنه لا يستطيع النظر إليها، لترتفع أكثر بمستوى الصدمات لتخبره أخيرًا وبجرعة واحدة ودون تمهيد:

«**حاولت الانتحار بعدها، ودخلت في انهيار عصبي. وأدخلني بعد ذلك مصحة للأمراض النفسية**».

الفصل الرابع

وقف يحيى مصدومًا بمجرد سماعه لحنين وهي تخبره بدخولها مصحة للأمراض النفسية. وجدها تغمض عينيها وتكمل بهدوء، وعلى وجهها ابتسامة سخرية:

«**اجلس، يحيى، الآتي سيكون أصعب عليك ممَّا فات. لا تتعجل الصدمة**».

رمى نفسه على الأريكة مرة أخرى وهو لا يصدق ما تقوله، ليقول بصعوبة:

«**كيف لم تعرف عفاف كل هذا؟! لماذا لم تخبرنا؟!**».

أكملت حنين بهدوء وكأنها تزيح عنها عناء السنين بكلامها معه:

«**علمت منها بعدما عدت من السفر أنه أرسلها لزيارة أهلها في البلدة، وعندما عادت أخبرها أني سافرت لإكمال دراستي كما قالت لكم، وقد وجدت كل العاملين بالمنزل قد غُيِّروا**».

قال يحيى بشك: «**تقصدين بالسفر اعتقادها أنكِ سافرت**».

ضحكت بشدة لتخبره: «**قلت لك لا تتعجل الصدمة، لقد سافرت فعلًا؛ قضيت في المصحة سبعة أشهر، بعدها عاد بي للمنزل فترة لا أتذكر منها أي شيء سوى أخذي للمهدئات والنوم، إلى أن أنهى أوراق**

سفري لمشفى آخر بالخارج؛ سافرت للعلاج وليس للدراسة. أنا دخلت كلية التجارة مرغمة، أنسيت أنني كنت أتمنى دراسة الفنون الجميلة كسلمى؟ كيف أكمل دراسة شيء لم أحبه؟! أنا حلمت بالسفر معك وليس بمفردي، يحيى».

أمسك يحيى رأسه مصدومًا، لا يستوعب ما تقول، رفعت نظرها إليه لأول مرة منذ بدأت الحديث لترى رد فعله، ولكن وقع نظرها على محبس الزواج الذي يرتديه في يده اليسرى، نعم هي رأته في النادي ولكن كذبت عينيها، والآن تأكدت، قالت بحسرة: «**هل تزوجت؟**».

نظر إليها بعدما كان ينظر أرضًا بعينين حمراوين، لا يقوى على مواجهة عينيها، لتتفاجأ به وكأنه يبكي، رغم محاولته عدم إظهار ذلك، ليقول لها ما لم تتوقعه:

«**وجودكِ معي بعد ما قلتِه أصبح خطأ، حنين**».

قالت بصدمة: «**ماذا تعني؟ هل ستتركني مرة أخرى؟!**».

رد عليها بهدوء: «**اصمتي، وكفاك غباء**».

نظرت له بعدم فهم، فأكمل هو حديثه: «**هل تعلمين ماذا يمكن لوالدكِ أن يفعل وهو معه أوراق تثبت دخولك مصحة نفسية؟ أنا بهذه الطريقة خطفتكِ. لن يبحث عنكِ والدكِ كثيرًا، مؤكد سيعرف أنكِ معي**».

ضحكت بسخرية على حالها وهي تقول: «**شكرًا، ابن عمي؛ لعدم وصفك لي بـ... مجنونة، أعلم أني بالأوراق عديمة الأهلية. أذلك ما تقصد؟**».

«**أنا أتحدث بجدية الآن. أنتِ تعلمين أنه يمكنه فعل ذلك ولن يهمه شيء. لا بد أن نبحث عن حل**».

ردت عليه بكل بساطة وكأنها فكرت في الحل من قبل: «**إذًا تزوجني**».

نظر لها بدهشة من طلبها هذا، وقال بأسى: «**للأسف، حتى هذا لا يمكن فعله**».

سألته بحسرة: «**لأنك تزوجت. أليس كذلك؟**».

قال بضيق منفعلًا لا يريد سماع تعليقاتها: «**كفاكِ غباء ودعيني أفكر في حل**».

ردت بإصرار: «**أخبرني أولًا لماذا لا تريد الزواج مني؟ تزوجت من؟ هل أعرفها؟**».

رد بنفاد صبر: «**أنتِ مصرة على خلط الأمور. ببساطة، لنفس السبب، حنين، سيطعن في زواجي منكِ. هو الوصي عليكِ؛ لا يمكن زواجكِ من دونه. واصمتي قليلًا، يكفي ما قلتِه، ودعيني أفكر**».

ظل صامتًا فترة يسند مرفقيه على رجليه ويغطي وجهه بكفيه، لاحظ بعدها هدوءها، نظر لها فوجدها تضم قدمها إلى صدرها على الأريكة وقد نامت، فحملها بهدوء وذهب بها للفراش، بعدها خرج من الغرفة ليُجري عدة مكالمات، يعرف أن الحل ليس سهلًا، ليبدأ مكالمته الأولى:

«**رحمة، اسمعيني جيدًا؛ أي أحد يسأل عني، أنا ما زلت مسافرًا. ونبهي الأمن ألا يذكر أحدهم ما حدث صباحًا. هل فهمتِ؟**».

«**لا تخَف. فعلت ذلك بالفعل**».

أغلق معها وأجرى مكالمته الثانية.

«**معاذ، أريدك أن تمر عليَّ بعد عملك من دون رحمة. أريدك في أمر هام**».

«**لا تقلق. رحمة عندها مشوارها المعتاد من دوني؛ لن يشغلها وجودي اليوم**».

بعد مرور ساعتين تقريبًا استغرقهما يحيى في التفكير، وقد ظل يتحرك في المنزل كأنه لا يقوى على الجلوس، يجمع أفكاره بعد كل هذا التشتت، وصل معاذ أخيرًا ليقص عليه يحيى ما عرفه من حنين ليتفاجأ بدوره:

«**أنا أخبرك ذلك، معاذ، ليس لأنك صديقي فقط؛ أنا أريد رأيك في أمر حالتها الصحية ونصيحتي. ماذا أفعل؟**».

رد عليه معاذ بعملية: «**إذا كان ما تحكيه حنين حقيقيًّا، فهذا يعني أنه يجب الحصول على ملفها الطبي لاستشارة طبيب متخصص في أسرع وقت**».

قال يحيى بدهشة: «**ماذا تعني بـ 'إذا كان حقيقيًّا'؟!**».

«**أعني أنها من الممكن أن تكون تعاني من تخيلات، أو ربما لديها مرض نفسي من نوعية الانفصام**».

نظر له يحيى بشك وهو يقول:

«**لا أعتقد هذا؛ أنا أتحدث عن أحد أعرفه جيدًا، ومع ذلك أنا أخذت قرارًا وعرفت ما يجب عليَّ فعله. انتظر مني مكالمة**».

حاول معاذ فهم ما ينوي عليه يحيى، ولكن بلا فائدة، لينصرف أخيرًا وهو يوصيه بعدم التهور.

دخل يحيى ليطمئن عليها، ليجدها مستيقظة وواضح أنها استمعت لما دار بينهما، فقالت بمجرد أن رأته: «**أنا لا أريد العودة للمشفى مرة أخرى. أنت لا تعلم ماذا حدث لي هناك**».

رد بهدوء يطمئنها: «**لا تقلقي. ألا تثقين بي؟ فقط ضروري استشارة طبيب، وذلك لا يعني دخولك مصحة. وتأكدي أن هذا مرفوض تمامًا بالنسبة لي. أريدكِ ألا تفكري في أي شيء وأنتِ معي. انسي كل ما حدث، ولا تشغلي بالكِ بما سيحدث. اتفقنا؟**».

ابتسمت لأول مرة منذ أن جاءت له. ابتسمت وهي لا تعلم تأثير هذه الابتسامة على نفسه، وجدته قد جلس على الأريكة أمامها وابتسم بتلاعب تعرفه جيدًا، وكيف تنسى فارس أحلامها وزوجها؟! ليقول: «**حنين، أريدكِ أن تذكري لي بالتفصيل ماذا فعل معكِ هذا الوغد**».

نظرت له بدهشة: «**أنا قلت لك ما حدث**».

قال بنفس التلاعب: «**لا لا، أنا أريد بالتفصيل**».

هذه المرة حاولت التركيز في ملامحه تحاول فهم ما يريد، وقالت:

«**ماذا تريد أن تعرف؟ أنا قلت لك كل ما حدث، أقسم لك**».

ابتسم لبراءتها وهو يقول: «**أعلم. ولكن أريد وصفًا للمشهد**».

قالت بغضب وهي تقف لتسير في اتجاه باب الغرفة محاولة الخروج: «**يحيى، أنت تمزح**».

وقف أمامها مبتسمًا يحاول أن يبدو طبيعيًّا ليخفف مما هي فيه رغم هذه النيران التي تشتعل بداخله، ورغم طبول الحرب التي أطلقها عقله: «**والله أبدًا، أريد تخيل المشهد، أحتاجه بشدة. صدقيني**».

وقفت بذهول لتقول له: «**ماذا؟! مشهد؟! وتحتاجه في ماذا؟!**».

أخذ يدها ليخرجا من الغرفة وهو يقول لها: «**إذًا سأحاول أن أجتهد**».

«**يحيى، أنا لا أفهم شيئًا**».

رد بمكر: «**وهذا هو المطلوب، لا أريدكِ تفهمين أو تعرفين شيئًا؛ هذا أفضل لكِ**».

دخل معاذ المنزل ليجده هادئًا، وكأن رحمة لم تصل بعد، اتجه إلى الغرفة فسمع نحيبها، وبمجرد دخوله حاولت أن تظهر طبيعية وتمسح دموعها، كم هي تحمل دائمًا من الكبرياء ما يجعلها غير باقي النساء! ترفض الضعف، ترفض ظهور دموعها حتى أمامه وهو زوجها، وحبيب عمرها. جذبها بين ذراعيه لا يعرف أيواسيها أم يواسي نفسه، وقال لها بهدوء:

«**قلت لكِ، حبيبتي، يكفيكِ أطباء وفحوصًا؛ لو لم يُرد الله لنا أطفالًا فأطباء العالم كله لن ينفعونا**».

ابتعدت عنه قليلًا تخلع نظارته كعادتها لتقول: «**هناك أمور كثيرة يجب التأكد منها، حبيبي، قبل اتخاذ أي قرار**».

قال بضيق: «**قرار ماذا، رحمة؟ ما الذي تفكرين فيه؟ أوقفي عقلكِ قليلًا من فضلكِ. أو أقول لكِ، دعيه يعمل في أوقات العمل الرسمية فقط، أما في حياتنا فأوقفيه أرجوكِ**».

لتتساءل وهي تضحك محاولة إخفاء ما بداخلها: «**أرجوكِ؟!**».

رد وهو ما زال على نفس الجدية: «**نعم، رحمة؛ لأن حسابات العقل لا تصلح بين زوجين وحبيبين. أفهمتِ؟**».

قرر إخراجها من هذه الحالة، فقال مغازلًا إياها: «**كيف يمكن للشمس أن تحزن؟!**»،

فقالت بمكر: «**انتبه؛ فالشمس تحرق**»، وأكملت الجملة بداخلها: «**أو تحترق**».

ظن أنه أخرجها من هذه الحالة، ولكنه لا يعرف – أو ربما تجاهل – أن الفتاة مع أول خطواتها في الحياة تكبر بداخلها تلك الغريزة التي بثها الله فيها ليعدها أن تصبح أمًّا تكون الجنة تحت قدميها، تمارس أمومتها الفطرية على عروستها الصغيرة، تطعمها وتسقيها وتغير لها ثيابها، لتبدأ بالتدريج تنمو هذه الغريزة حتى يحين الوقت لتصبح حقيقية. تنتظر أن يكون لها طفل بشوق ولهفة، تحبه قبل أن تراه، تشعر به قبل أن تلمسه، وربما لحكمة لا يعلمها سوى الخالق يحدث ما لا تتمناه أي فتاة. ولكن الله يحقق العدل بحكمته سبحانه، فما الله بظلام للعبيد؛ يمكن أن تأخذ نصيبها في الحياة في أولاد بارين يحملونها فوق رؤوسهم رغم قسوة زوج لا يعرف للمودة والرحمة مكانًا، وربما تأخذ هذا النصيب في زوج لا

يفكر في شيء سوى كيف يحبها، كيف يحصل على رضاها ويرى فرحتها؛ إنها أرزاق قسمها الله بعدل على العباد.

بعد فترة طويلة جلس فيها يحيى أمام حنين ينظر لها بتركيز، لا تفهم بماذا يفكر، حاولت الحديث ولكنه كل مرة يشير لها بأصبعه أن تصمت، وفجأة وقف وسحبها من يدها ودخل بها الغرفة، أخرج من جيبه هاتفه المحمول وشغل كاميرا الهاتف، ثبته أمام المرآة وقبل أن تستوعب ماذا يفعل، كان قد اتجه إليها وأخذ يفك أزرار قميصه، وقف أمامها ورماه أرضًا، حركت رأسها بعدم استيعاب وهي تقول:

«**يحيى، ماذا تفعل؟!**».

ظلت ترجع بظهرها إلى أن اصطدمت بالحائط، اقترب منها حتى التصق بها، وهو لا ينطق بأي كلمة، أما هي فبدأت تبكي بعدم تصديق:

«**يحيى، ليس أنت. لا تفعل معي هكذا، أنا أحلم! أنت تمزح!**».

أمسك بمعصميها يثبتهما على الحائط، غرس رأسه في عنقها وهو يقول بصوت عميق خافت: «**اهدئي. ألم تطلبي مني أن أتزوجكِ؟ سأفعل**».

كانت تبكي مصدومة مما يفعل، لم تحاول التخلص من قبضته بالطبع؛ تعلم أنها مهما حاولت فلن تستطيع مقاومته، وجدته يثبت يديها الاثنتين بيد واحدة، وباليد الأخرى أخذ يعبث في أزرار قميصها، لحظة وسقطت بين يديه غائبة عن الوعي، لقد رفض

عقلها تصديق ما يحدث، ولأول مرة يسعد من فقدانها الوعي، فقال كأنه يحدثها:

«هذا أفضل، حنين».

حملها بهدوء ليضعها على الفراش، ويكمل ما قد بدأه حتى النهاية.

في فيلا سليم، وبمجرد علمه بعدم وجود حنين، أخذ يوبخ أفراد الأمن. وبعد أن تأكد من كاميرات المراقبة أنها لم تخرج من الباب الرئيسي، اتجه إلى صباح وعفاف اللتين بدا عليهما الرعب، ليصرخ فيهما قائلًا:

«واحدة منكما هي من ساعدتها على الهرب. انطقا».

كانت عفاف تبكي بحرقة ولم تحاول الدفاع عن نفسها، فكانت قد قررت في الصباح أن تذهب للسيدة كريمة لإنقاذ هذه المسكينة، وهروبها أعفاها من ذلك.

تحدثت صباح أخيرًا برعب؛ فهي لا تريد الضرر للسيدة عفاف، فمهما كانت فهي كبيرة في السن ولا تتحمل عنف هذا الرجل، والذي رأت ماذا فعل في ابنته:

«أنا ساعدتها، سليم بيه».

صرخ سليم: **«نعم؟! ماذا تقولين؟ أعيدي ما قلتِ مرة أخرى»**.

لترد مرتجفة: **«ساعدتها، سليم بيه، فأنا فتاة مثلها و...»**.

وإذ به دون تردد يصفعها لتصرخ برعب، جرت نحوها عفاف وقد خشيت أن يفعل بها كحنين أو أكثر؛ فهذه ليست ابنته، هي مجرد خادمة فما بالها ماذا يمكنه فعله؟! ولكن تحدثت صباح وهي ترتعش قائلة: «**أنا سمعت ما قاله الضيف بالأمس في الحديقة. لقد.. لقد كان يريد التهجم عليها**».

ليصيح بها وقد تشنجت عضلاته: «**ماذا تقولين يا مخبولة؟**».

«**أنا سمعته من نافذة المطبخ. هددها، سيدي. أقسم لك إني رأيته وسمعته يهددها و... وقال إنه سيطلقها يوم صباحيتها ويتهم ابن عمها. أقسم لك إن هذا حدث**».

جلس سليم إلى مكتبه بجمود لا يتخيل أن يحدث ذلك في منزله لابنته، وكأن ما قالته الخادمة أربكه، فزمجر صائحًا: «**اغربا عن وجهي الآن**».

بعدما وضعها يحيى على الفراش مال عليها يقبل جبينها، ليبتسم بينه وبين نفسه؛ فهذه القبلة غير مناسبة لهذا المشهد أبدًا! ليقبلها مرة أخرى في عنقها. بعدها انتفض من مكانه عائدًا بظهره للخلف، زافرًا نفسًا بقوة، والتقط قميصه من الأرض ليرتديه، وأخذ هاتفه وأغلق الكاميرا، أخذ بعدها زجاجة عطره واتجه إليها بهدوء:

«**حنين، أفيقي. حنين، أنتِ بخير؟**».

حركت رأسها على أثر استنشاقها للعطر لتعود للوعي تدريجيًّا، وما إن استوعبت ما يحدث، حتى انتفضت لتعتدل على الفراش

لتجده يبتسم، فأغمضت عينيها ولم تنظر إليه مرة أخرى، فقال لها ببساطة: «**افتحي عينيكِ، حنين. هل سأفعل شيئًا وأنتِ بملابسكِ؟!**».

فتحت عينيها ونظرت لملابسها، ولكنها أخذت تبكي وهي تقول: «**نعم، فتحت أزرار بلوزتي**».

حاول يحيى أن يتحدث بعدما أصابته نوبة من الضحك: «**أهكذا أكون قد اغتصبتكِ من وجهة نظركِ؟!**».

ردت عليه ببراءة: «**أنت أصبحت سيئًا، يحيى. أليس كذلك؟ السنوات غيرتك؟**».

قال ببساطة ناظرًا لها بحنو: «**صراحة لا أعرف، دعيني أفكر وأخبركِ، لكن بعد أن أفعل شيئًا مهمًّا أولًا، وبعدها نتحدث في موضوع 'سيئ' هذا**».

فتح هاتفه وقام بقص مقطع الفيديو الذي قام بتسجيله، لينتهي المقطع عند وضعها على الفراش وتقبيلها، ظلت تنظر له وهي لا تفهم شيئًا: «**ماذا تفعل، يحيى؟!**».

رد ببساطة: «**كما ترين، هذا المشهد كل ما أريده، وسأترك الباقي لخيال المشاهد**».

قالت بدهشة: «**ماذا تقصد؟ من المشاهد؟ يحيى، من يراه يظن...**».

صمتت بعدها، فقد وضع أمامها الهاتف في منتصف الفراش لتراه وهو يقوم بضغط إرسال على اسم والدها، لتقول له بارتياع: «**يحيى، كيف تفكر؟!**».

الفصل الخامس

حاولت حنين خطف الهاتف، ولكنه أبعده عنها قائلًا: «**اسمعيني جيدًا. يجب أن يوافق أبوكِ على زواجنا بأي شكل، وإلا فلا يوجد أمامي غير حل واحد**».

قالت بتفكير: «**وما هو؟**».

رد عليها وهو يغمز لها بعينه بخبث: «**أن أكمل هذا المشهد الذي واضح أنه أعجبكِ وتريدين إكماله**».

صاحت به غاضبة: «**احترم نفسك، يحيى. أنت أصبحت عديم الحياء**».

رد بتلاعب وهو يحاول أن يخفي ابتسامته: «**وبالنسبة لأزرار بلوزتك هذه التي لا تحاولين غلقها؟!**».

وضعت يدها بتلقائية على بلوزتها لتغلقها سريعًا وهي تقول بخجل: «**لم أنتبه**».

ضحك محاولًا استفزازها أكثر؛ فقد افتقد مشاكساته معها، وأكمل كلامه:

«**لم تنتبهي... وتتهمينني بعدم الحياء!**».

قالها وعوج شفتيه لينجح في استفزازها فردت عليه بارتباك: «**يحيى، هذا ليس مزاحًا، هذه سخافات**».

جذبها من يدها قبل أن تغادر، وإذ به يرفع يدها لفمه يقبلها متوقعًا خجلها، ولكنها فاجأته بالصياح به وهي تقول: «**أبعد عني يدك اليسرى هذه، لا أريدها**».

رفع حاجبه الأيسر بدهشة قائلًا: «**يدي اليسرى! وما الحال بالنسبة لليمنى؟!**».

ردت ببساطة: «**لا مشكلة فيها**».

قال بتعجب: «**حنين، ما الفرق بين يدي اليسرى واليمنى؟!**».

قالت بحسرة ظهرت عليها: «**اليسرى بها محبس زواج**».

نظر إلى يده بتلقائية لينتبه فعلًا لما قالته، لقد نسي هذا الأمر نهائيًّا، وقال وهو يتأملها:

«**أفقدتِني عقلي، حنين. ماذا تنوين أن تفعلي بي أكثر من ذلك؟!**».

لتقول بابتسامة: «**لا تخَف. ممكن أن أحجز لك غرفة جواري في المشفى، هذه هي الحالة الوحيدة التي أقبل فيها الدخول للمشفى مرة أخرى**».

لم ينتبه الاثنان وسط جدالهما الممتع للهاتف الذي رن كثيرًا منذ أن أرسل الرسالة التي نسي أمرها تمامًا وقد كان على وضع صامت، فقال بنصر: « **أبوكِ يتصل للمرة السادسة، ولم نلاحظ**».

تغيرت ملامحها تمامًا مع ذكره أباها، وقد فتح الهاتف ليرد قائلًا: «**أهلًا، عمي**».

وبالطبع لا يحتاج إلى توقع ثورة عمه عليه: «**عمك يا عديم الأخلاق؟! عمك يا عديم الشرف؟! تنتهك عرضك وعرض عمك وتقول عمي؟!**».

قاطعه يحاول السيطرة على الموقف: «**اهدأ، عمي، قليلًا لنتفاهم**».

«**أين ابنتي يا حقير؟**».

كان يحاول التغاضي عن هذه الصفات التي ينعته بها، ولكن هذا هو الدور الذي قرر أداءه وعليه أن يكمله للنهاية: «**اهدأ، عمي، واسمعني جيدًا**».

«**أين ابنتي؟ ماذا فعلت بها؟**».

رد يحيى بهدوء: «**أتريد باقي المشهد لتعرف ماذا فعلت؟ ليس عندي مانع. أنا فقط رأفت بحالك**».

وضعت حنين يدها على فمها بصدمة أمام حديثه البارد، في حين رد سليم وقد انخفض صوته: «**أنت حيوان. لن أغفر لك ما فعلته. ستندم**.

- «**الأمر أبسط من كل ذلك، عمي. كل ما عليك هو أن تأتي بالمأذون وتنتظرني فقط**».

«**ماذا تقصد؟**».

«**وماذا يفعل المأذون، عمي؟**».

«**أتنتهكها لتتزوجها يا غبي؟!**».

«**وهل كنت ستزوجها لي دون ذلك؟! ومع ذلك، فهذا ليس الأمر كله. صراحة، بما أني أولى بستر ابنة عمي، فهذا لا يمنع أن يكون مع المأذون شيء بسيط؛ محامي الشركة والأوراق اللازمة لتعيد الحقوق لأصحابها، كما كان يجب أن يحدث منذ سنوات. هل رأيت؟ الموضوع بسيط**».

ولم يسمع سوى كلمة واحدة: «**حيوان**».

أكمل يحيى ببساطة وكأنه لم يسمع شيئًا: «**المحامي الخاص بي سيتولى الأمر مع عقد بسيط تعويضًا عن المناقصة التي أضعتها مني؛ فلا ذنب لشركائي في خلافاتنا. فكر، عمي، جيدًا. أمامك إلى الصباح. آه، نسيت، لا تقلق على ابنتك؛ هي في أمان ما دامت بين أحضاني. لا تنسَ أنها كانت زوجتي يومًا. وللعلم، لا تقلق؛ لن يرى أحد هذا المشهد، ربما لو فكرت مرة أخرى بتزويجها من غيري فسيصبح ضروريًّا إظهاره**».

أغلق يحيى فورًا قبل أن يسمع أي صفة أخرى ستضاف له، وهو يشعر كأنه كان في صراع شاق مع نفسه. نظر إليها فوجدها ما زالت كما هي، واضعة يدها على فمها بصدمة، حاول سحب يدها، لكنها نظرت للجهة الأخرى، فقال لها بصوت أجش: «**انظري لي**».

قالت له دون أن تدير رأسها وقد شاب صوتها الحزن: «**تستغلني؟!**».

أخذ نفسًا عميقًا ليستطيع التحدث بعدها: «**أتت لي الفكرة لحظتها. لكن انظري للموضوع نظرة أعمق؛ هكذا سيكون الأمر مقنعًا أكثر**».

لم ترد عليه وظلت كما هي، فأكمل حديثه: «**لم أقصد ما وصل إليكِ. ومع ذلك هل يزعجكِ أن آخذ حقي؟**».

قالت بحسرة: «**تغيرت، يحيى. من فضلك، أريد الجلوس بمفردي**».

اعتدل على الفراش وهو يبتسم بخبث، فهما ما زالا في نفس مكانهما منذ أن أفاقت، وكأن وجودها معه أعاد له روحه التي نسيها،

وكأنها سر مرحه؛ إن غابت يَغِبْ، وإن عادت تعُد معها الراحة والسعادة.

قالت بنفاد صبر: «**أنا أقول لك اتركني، أريد الجلوس بمفردي**».

أسند ظهره على الوسادة وفرد جسده بكل بساطة ليضع قدمًا على الأخرى ويقول ببرود: «**لا، إنه سريري**».

قالت بغضب وهي تحاول الوقوف والابتعاد عنه: «**إذًا سأخرج أنا**».

أمسك يدها يمنعها من الحركة، واعتدل يقول وقد بدأ في التلاعب بها مرة أخرى:

«**هل لا تدركين أنكِ هنا في أسري؟ أنا الآن خاطفكِ؛ اسمعي الكلام أفضل لكِ**».

قالت بغضب: «**أنت أصبحت سخيفًا، وأنا أخطأت عندما أتيت لك**».

اعتدل مرة أخرى على الفراش ليعود لنفس الوضع ويضع قدمًا على الأخرى وهو يقول بمرح غير مناسب للموقف: «**وأين كنتِ ستذهبين؟**».

قالت بنبرة عتاب: «**أتستوعب أنك بهذه الطريقة تذلني؟**».

اعتدل وهو يقول: «**أنا أحاول فقط توضيح الأمر لكِ، فاسمعي كلامي بهدوء لأننا سنظل حتى الصباح في هذا المكان معًا**».

قالت وقد بدأت تفقد أعصابها: «**أي مكان، يحيى؟! نحن على السرير!**».

قال ضاحكًا: «**أعلم هذا، وهل لا ترينني نائمًا؟! افعلي مثلي ودعينا نستمتع بوقتنا حتى الصباح**».

أرجعت شعرها للوراء بعصبية وقالت: «**يحيى، أبي يموت قهرًا ممَّا قلته، وأنت تستمتع بوقتك! هل لا تستوعب ماذا فعلت؟!**».

رد ببساطة: «**أبوكِ لا يُقهر، حنين. هو فقط يحسب حساب الفضيحة الآن، ويفكر في كل أبعاد الموقف وهو مطمئن أني سأتزوجكِ. لا تقلقي؛ يعلم أني أحبكِ**».

كادت أن تقف لتغادر الغرفة مرة أخرى لتفاجأ به يقترب منها اقترابًا شديدًا جعلها ترتبك، ودون أن يحاول لمسها قال بتأكيد:

«**أعدكِ لن يمر مساء غد إلا وأنتِ زوجتي فعلًا. واعلمي، وقتها لن أترككِ تبتعدين عني لحظة، ولن أضيع الفرصة التي كانت بيدي يومًا وأضعتها في لحظة غضب لم أحسب حسابها**».

أنهى كلامه ليغادر الغرفة قبل أن يتهور.

وبمجرد خروجه وضعت رأسها على الوسادة ونامت بهدوء وثقة أن الغد في وجوده أفضل، فالأمان لا يكون إلا معه، مدركة محاولاته أن يبدو طبيعيًّا كالسابق، ولكنها كانت تعرف أنه لا بد من حدود. ألم يكن المرح رفيقهما دائمًا؟!

أمضى الليل يُجري مكالماته مع محاميه ليتفق على المطلوب، وبعدها قام بالاتصال بمعاذ الذي ما إن سمع ما فعله صديقه حتى انفعل عليه لدرجة أيقظت رحمة من النوم:

«**هل جننت؟! ما هذا الذي فعلته؟! أنا المخطئ؛ أنا من تركتها معك. أنت متهور. ظننتك أعقل من هذه التصرفات الصبيانية**».

رجع لحالة البرود التي انتابته مرة أخرى ليقول: «**لماذا كل هذه الدراما؟! إنها ابنة عمي أنا يا معاذ، وأنا أكثر إنسان في هذا الكون يجب عليه حمايتها. أنت تعلم أني مستحيل أن أضرها، وأستطيع حمايتها حتى من نفسي**».

رد معاذ بسخرية: «**كيف حمايتها من نفسك بعد ما فعلته؟! ألا تستوعب ما فعلت؟!**».

«**لم يكن أمامي سوى هذه الطريقة. أحيانًا الوصول لما نريد يحتاج بعض الطرق الملتوية، معاذ. لم تنفعني أخلاقي سابقًا، يجب أن أتخلى عنها قليلًا مع من يستحق**».

«**وهل تأمن ألا يقع ما صورته في يد أحد ممكن أن يستغله؟**».

قال بتردد وكأنه فعلًا يخشى ذلك: «**الفيديو لم يصل إلا لوالدها. هل تتخيل أن يُريه هو لأحد؟! ومع ذلك أنوي أن أحذفه بيدي من هاتفه**».

قال معاذ وما زال منفعلًا: «**غير منطقي وغير مقنع. أنت تهورت ولم يعد هناك داعٍ للحديث للأسف**».

أغلق الهاتف دون سلام، ونظر بعدها لرحمة التي كانت تقف خلفه، وقال: «**مجنون**».

ردت بابتسامة: «**للأسف، الحب جنون، حبيبي. وأنت الوحيد الذي لا يقتنع بذلك**».

ليقول بريبة: «**وأين سيصل بنا جنونكِ؟**».

ردت بثقة: «**لأبعد مما يتخيله أحد!**».

بعد منتصف الليل رن هاتف كريمة كثيرًا ولكنها كانت نائمة، لتستيقظ صباحًا على طرقات باب غرفتها ودخول سلمى مندفعة تبكي، حاولت كريمة فهم ما تقوله ابنتها التي أوشكت الصدمة أن تفقدها صوابها، لتقول كريمة بقلق: «**ماذا حدث، سلمى؟ أنا لا أفهم شيئًا**».

حاولت سلمى الحديث لتخبرها: «**عمي اتصل بي الآن، قال إن يحيى خطف حنين، ويهدده لكي يتزوجها... و... وإنه..**». قاطعتها بعدم تصديق:

«**ما هذا الهراء الذي تقولينه؟!**». لترد سلمى بأسى:

«**قام بتسجيل فيديو، أرسله له عبر الهاتف وهو... يـ... يغتصبها**».

اتسعت عيناها بفزع مما سمعت، لتقول وقد وضعت يدها على صدرها: «**مستحيل أن يحدث ذلك، يحيى مستحيل أن يفعل ذلك**».

استيقظ يحيى على صوت رنين هاتفه، بعد أن أمضى ليله نائمًا على الأريكة بالصالة. بالطبع كان عمه المتصل، والذي من المؤكد أنه لم ينم بعد.

رد يحيى بهدوء زائد: «**مرحبًا، عمي. صباح الخير. كيف حالك؟**».

رد عمه بثورة: «**ما هذا البرود والاستفزاز؟**».

قال وهو يتثاءب: «**ألم تخبرني يومًا أني سأعود عندما أتغير؟! ها أنا قد تغيرت**».

«أين ابنتي؟».

«أتعلم، عمي؟ شككت كثيرًا في حبك لها، ولكن واضح أن هناك في قلبك بعضًا من الحب».

«تهذب ولا تستغل الموقف أكثر من ذلك. أنت لويت ذراعي بأرخص الطرق».

«لا تنكر أنها الطريقة الوحيدة التي واضح أنها نجحت معك».

«أحضر البنت الآن هيا، وسأنفذ ما تريد».

«بمجرد أن يخبرني المحامي الخاص بي أن كل شيء على ما يرام، ستجدنا أمامك. الاحتياط واجب، عمي».

أخذ سليم نفسه بصعوبة؛ فهو لم يتخيل اتخاذ يحيى الحيطة بهذا الشكل، وقال بترجٍّ لأول مرة يسمعه منه يحيى: «**أريد أن أحدثها**».

قال بسخرية: «**وهل كنت تطمئن عليها وهي بالمشفى أيضًا؟!**»

رد سليم بندم: «**وهل تتخيل أني كنت سعيدًا بحالتها؟!**».

«لا داعي للوم أحد الآن، فهذا لن يعيد السنين. سلام، عمي».

أغلق يحيى الهاتف واتصل بعدها برحمة: «**مرحبًا، رحمة. هل لي أن أطلب منكِ خدمة بعيدًا عن هذا المتسلط الذي تتزوجينه؟**».

ضحكت رحمة وهي تقول: «**بالطبع، يحيى. تفضل**».

«إذًا سأرسل إليكِ رسالة بكل التفاصيل».

وأغلق هاتفه ليرسل إليها طلباته التي لا يستطيع أحد تنفيذها سواها، وتوجه إلى الغرفة حيث تنام حنين، ودون استئذان دخل ليجدها مستيقظة: «**صباح الخير، حنين**».

قالت باستياء: «**هل أصبحت عديم الأدب لدرجة أن أجدك أمام السرير كلما نمت؟!**».

رد بنفس أسلوبه الذي اتبعه منذ ليلة أمس، وبابتسامة هادئة: «**ولماذا أطرق الباب وأنا أعلم أنكِ كما أنتِ منذ أمس؟!**».

ردت بسخرية: «**مؤكد أن السنين الماضية كنت تلهو فيها كثيرًا؛ مما أفسد أخلاقك. أنت لم تكن تمر بجوار غرفتي. أنسيت؟**».

ابتسم وقال بصدق: «**حينها كنت أحافظ عليكِ**».

قالت وقد رفعت حاجبيها دهشة: «**والآن لم تعد تريد الحفاظ عليَّ؟**».

ضحك قائلًا: «**أخبركِ حقًّا أنا فعلًا ندمت. منذ أمس أخبر نفسي أني خفت عليكِ أكثر من اللازم لدرجة جعلتكِ لا تستطيعين الدفاع عن نفسكِ واتخاذ موقف حقيقي. كان يجب أن أصبح أهوج ومتهورًا لأمرنكِ على التعامل مع البشر**».

ابتسمت وهي تبعده وتقول: «**وماذا يجب أن أفعل الآن وأنا نمت دون عشاء؟**».

رد بابتسامة هادئة: «**أصلحي من حالكِ وسنأكل أي شيء ونحن في طريقنا لوالدكِ**».

«**ما... ماذا؟**».

«**لا تخافي. أنا وضعت كل الاحتمالات في الحسبان. أنتِ في أمان معي**».

تحدثت بقلق تخشى القادم: «**يحيى، هل ستتركني بعدها؟**».

قال بدهشة: «**بعد ماذا؟**».

«**بعد أن نتزوج وتأخذ حقك من أبي، ستتركني من أجل زوجتك. أليس كذلك؟**».

ضحك وهو يقول: «**والله بلهاء. أنا سأفعل ما تريدينه، حنين. واعلمي أني لن أتركِكِ ضائعة مرة أخرى**».

ردت وقد ملأت الدموع عينيها: «**كل ما أريده أن نرجع كما كنا، أريد أن أعود للعيش مع عمتي كريمة وسلمى، لا أريد أكثر من ذلك**».

ابتسم ومر بجوارها ليفتح خزانة ملابسه، أخرج منها إحدى البدل الرسمية ونظر لها وهو يفكر ويقول: «**اختاري رابطة العنق المناسبة حتى آخذ حمامي، وقميصًا وجوربًا**».

وكاد أن يغلق باب دورة المياه التي في الغرفة، فقالت له: «**ما كل هذه الشياكة؟! نحن في ورطة وأنت كأنك ذاهب لحفل! أساسًا ما دخلي أنا بملابسك؟!**».

رد عليها وهو يخرج رأسه من الباب: «**افعلي شيئًا مفيدًا وانتهي سريعًا**».

بمجرد غلقه الباب قالت لنفسها مبتسمة: «**الحمد لله؛ لست أنا وحدي من جننت!**».

وقفت أمام ملابسه تنظر إلى البدلة باستياء، وأخذتها لتضعها مرة أخرى في الخزانة واختارت غيرها، أخذت تختار كل شيء بعناية وكأنها تقوم بعمل مهم فعلًا، وهي تتخيل كل قطعة عليه كيف ستكون، حقًّا طوال عمره يحب ارتداء الزي الرسمي، تتذكر كم كان يحب أن يُهادَى برابطات العنق، فكن يتنافسن على ذلك،

أيام دراستها الثانوية عندما كان يمر عليها هي وسلمى لأخذهما من المدرسة، كانت لا ترى شابًّا بوسامته، وكانت تدرك غيرة باقي الفتيات منهما، وتستغل ذلك جيدًا.

أخذت ترتب ما حضرته له على الفراش وتبحث حولها حتى لا تكون قد نسيت شيئًا، ساعة يده، حتى عطره، تعدل من محفظته وسلسلة مفاتيحه، تلمسها برفق وكأنها تخشى عليها من الاستيقاظ قبل مجيئه.

خرج يحيى ليتفاجأ بها مندمجة أمام ملابسه، لم يتخيل أن يجدها بعد هذه الفترة ما زالت في الغرفة، ظل ينظر لها بسعادة، انتبهت أخيرًا له، ولكن بمجرد أن رأته أدارت وجهها عنه بخجل لتعطيه ظهرها؛ فقد خرج عاري الصدر ليكمل ارتداء ملابسه في الغرفة، عندما أدركت ذلك قالت: «**آسفة. هل تريد شيئًا آخر؟ لقد جهزت كل ما تحتاجه**».

رد بسعادة؛ فقد شعر أنها بدأت العودة إلى حالتها الطبيعية: «**لا، شكرًا. لكن لم أطلب منكِ تغيير البدلة**».

«**هذه أحلى. أنت أساسًا أخرجتها بعشوائية. عن إذنك**».

كادت أن تغادر، فوقف أمامها وقد قرر مشاكستها قليلًا: «**إذًا انتظري حتى تساعديني في ارتدائها**»، لتقول وهي تحاول إبعاده بارتباك: «**وهل صغرت لأساعدك؟! ابتعد، يحيى؛ أنا لست والدتك**».

الفصل السادس

خرج يحيى من الغرفة بعد فترة يحمل سترته ورابطة عنقه على ذراعه، وجدها أمامه تنظر إليه بسعادة، كم اشتاق لابتسامتها الهادئة دون خوف!

ظلت تتأمله مرتديًا ما جهزته له بيدها ليكون كما تخيلته، اشتاقت لرؤيته عن قرب. أنيق هو دائمًا عندما يرتدي قميصه بهذا الشكل، كم كانت دائمًا تريد أن تغلق أزرار قميصه المتمردة هذه، سماره يزيده جاذبية، عيناه العسليتان بلونهما المميز تجعلانها تتذكر قهوتها سريعة التحضير التي كانت تُصر على تحضيرها لنفسها لتضبط لونها كلون عينيه، وكلما ارتشفت منها تخيلت أنها تغوص في عينيه، فرق الطول بينها وبينه يجعلها دائمًا تشعر بقدرته على حمايتها، وضعفها أمامه.

ظل واقفًا أمامها يتأملها هو الآخر، كم هي ما زالت بنفس طفولتها وبراءتها! وعيناها اللتان تكشفان ما بداخلها أمامه مهما مرت السنون ورغم ما مرت به، ما زالتا كما هما، يستطيع قراءة ما بداخل عينيها بسهولة، وكيف لا وهي كبرت أمام عينيه؟!

ليقطع الصمت قائلًا: «**هيا بنا**».

تفاجأ بها تمسك بيده كالأطفال بسعادة، كطفلة يأخذها والدها للتنزه خارج المنزل.

وفي السيارة، وبعد أن أحضر بعض الشطائر ليأكلاها معًا، قالت بدهشة: «**لا أعرف لماذا تُشعرني أننا ذاهبان في رحلة!**».

ضحك قائلًا: «**انسي كل ما مضى، حنين، وكأنه لم يكن. ها نحن اليوم معًا، وغدًا سيصبح معنا سلمى وأمي**».

ردت بصوت خافت: «**هل تعتقد أن الأمر بهذه السهولة؟**».

ولم يحاولا الحديث مرة أخرى طوال طريقهما، وكل منهما بداخله مختلف؛ هو يرتب ماذا سيحدث اليوم، وهي تحاول إبعاد خوفها من القادم.

وصلا أخيرًا أمام المنزل، تفاجأت بأفراد أمن مختلفين عمَّن تعرفهم، لاحظت أنهم يتبعون يحيى، فقالت: «**ماذا فعلت؟**».

رد بهدوء رغم ما بداخله من توتر: «**لا شيء، فقط أمَّنت المكان لأطمئن عليكِ**».

دخلت وهي متشبثة بيده ولم تحاول النظر في وجه أحد، فهناك الكثير من الوجوه تعرفها ولا تعرفها، تحرك يحيى باتجاه عمه وسلم عليه بحرارة مبالغ بها مع دهشتها وعدم اعتراض والدها أمام الموجودين، انتفضت ورجعت بظهرها تخفي نفسها وراء يحيى بمجرد محاولة أبيها جذبها إليه، وفي الحقيقة كانت هذه أول مرة يرى فيها يحيى عمه مهزوزًا بهذا الشكل.

انتهى كل ما تم الاتفاق عليه مع المحاميَين. وانتهى الأمر بعقد الزواج، ليكون معاذ وباسم شاهدين على العقد. لأول مرة منذ زمن ترى والدها يضع يده في يد يحيى، أهو والدها من يمضي الآن؟! أم هي تحلم؟!

هذا يحيى يمضي زوجًا لها، الآن القلم في يدها لتمضي اسمها بجوار اسمه، رفعت نظرها له تتأكد أهذا حلم أم حقيقة، ليُطمئنها هو بعينيه. مسكت القلم بيد مرتعشة، ورغم أنها تسطر بيديها حق امتلاك أحدهم لها، فإنها ولأول مرة تشعر بالحرية! ورغم أنها المرة الثانية التي تمضي فيها هذا العقد وبنفس الأسماء، فإنها لم تشعر المرة السابقة كما تشعر الآن؛ ربما أصبحت أكبر وأنضج، ربما ما مرت به جعلها تعرف قيمة أن تعود زوجة له.

وبمجرد إنهاء المأذون كلماته، أطلقت عفاف وصباح زغاريد الفرح لأول مرة في هذا المنزل منذ زمن.

ظلت حنين مكانها ترتجف، أشفقت عليها رحمة التي حضرت بالطبع مع زوجها، فأخذتها بين أحضانها قائلة:

«**مبارك لكِ، حنين. اهدئي؛ لقد مر كل شيء بخير**».

ظل والدها كما هو لم يتحرك من مكانه مطرقًا رأسه. بعدما غادر المأذون أصبح يحيى وعمه في المواجهة، نظر له يحيى يتأمل حاله الذي وضح عليه الانكسار، فمهما حدث منه يظل هذا الشخص له مكانه في قلبه، ليقول له بهمس:

«**لم ألمسها، عمي. أنا لست حقيرًا**».

لم يرفع سليم رأسه، ولكنه سمع صوت أنفاسه وكأنه حِمل قد رُفع عنه.

اتجه معاذ ليحيى، وقال وهو يحتضنه: «**مبارك عليك، صديقي**».

أجابه يحيى بهدوء وكأنه لم يصدق: «**هل رأيت؟ مرت على خير**».

ابتسم معاذ وهو يشعر بتوتر صديقه: «**الحمد لله. من أجل هذه المسكينة**».

نظر يحيى لرحمة وحنين، وقال لمعاذ: «**هل نسيت زوجتك ما اتفقنا عليه؟**».

ضحك معاذ وهو يقول: «**وهل هذه تنسى شيئًا بالله عليك؟**».

تركه يحيى واتجه لحنين التي ما زالت جالسة مكانها وكأنها لم تستوعب بعد، وقف أمامها وجذب يدها لتقف أمامه، ودون أن يهتم بوجود أحد قبل جبهتها وكأنه يتأكد من امتلاكه لها، وهذه المرة لم يقاوم رغبته في ضمها بين ذراعيه، فقد أصبحت ملكه ثانية، الآن لم يعد أحد يجرؤ على إبعادها عنه، هذه المرة لن يضيعها مهما حدث.

تحدثت رحمة التي ما زالت تقف جوارهم قائلة: «**يحيى، يكفي هذا**».

قال يحيى وهي ما زالت بين ذراعيه تتشبث به بقوة، يشعر بأصابعها تجذب قميصه وكأنها تخشى هربه، ليُطمئنها: «**اصعدي مع رحمة إلى غرفتك، بدلي هذه الثياب، وجهزي كل ما تحتاجين أخذه**».

أبعدها قليلًا ليرى وجهها، فرأى عينيها وقد ملأتهما الدموع، فأكمل قائلًا: «**أعدكِ أن تتغير حياتكِ. أعدكِ أن أعوضكِ عن تقصيري معكِ. أعدكِ ألا ترى عيناك الدموع مرة أخرى**».

اتجه معاذ لرحمة قائلًا: «**هل ستشاهدين هذا المشهد كثيرًا؟**».

ردت بابتسامة: «**وماذا أفعل؟**».

ليقول بهمس: «**هل تشعرين مثلي أن هذا المشهد غير مطمئن ولا بد من إنقاذ الموقف فورًا قبل تهور هذا الفتى؟**».

ضحكت رحمة واتجهت لحنين تجذبها من يد يحيى وهي تقول: «**هيا، حنين**».

صعدت معها حنين ومعهما عفاف التي استمرت تطلق الزغاريد بسعادة حقيقية طوال صعودها السلم؛ فكم دعت لهما كثيرًا من قلبها! فهي شاهدة على هذا الحب منذ أن دخلت هذا المنزل بعد وفاة والدة حنين وهي صغيرة.

دخلت حنين غرفتها ومعها عفاف ورحمة وكأنه حلم. كيف خرجت منها متسللة، وكيف تدخلها الآن؟!».

حاولت رحمة أن تُخرجها من هذه الحالة، فجذبتها ناحية دورة المياه الخاصة بالغرفة وهي تقول: «**هل ستمضين الوقت ساهمة هكذا؟! أفيقي قبل أن يذهب يحيى؛ فالرجال تمل بسرعة. هيا، أمامنا تجهيزات كثيرة**».

أخذتها عفاف لدورة المياه تحتضنها بسعادة وتقول: «**أحلى حمام لأحلى عروس**».

لتخرج بعد فترة مع عفاف التي أصرت على تجهيزها كعروس حقيقية، فتفاجأت برحمة قد وضعت على الفراش فستانًا أبيض!

فستان زفاف! نظرت لها حنين تسألها بعينيها: «**ما هذا؟**».

ولكن رحمة لم تترك لها الفرصة للتفكير أو الأسئلة، لتساعدها الاثنتان على ارتدائه وتجهيزها بكامل زينتها.

أما هو فقد ارتدى أخيرًا سترته ورابطة عنقه، وظل صامتًا لا يفعل شيئًا سوى النظر لأعلى يشتاق إلى رؤيتها بالثوب الذي وصفه لرحمة. وبمجرد ظهور صباح تحمل الحقيبة وتنزل السلم، علم أن وردته على وشك الظهور.

لحظات وظهرت أمامه نجمة من السماء بفستانها الفضي اللامع كما تخيله تمامًا وأجادت رحمة اختياره، فستان أبيض يلمع بالفضي يرسم جسدها النحيف وكأنه فنان، واسع من أسفل يجر ذيلًا قصيرًا وكأنها ملكة تنزل سلم قصرها، شعرها الأسود الثائر على جانب كتفها يصطف عليه الزهور البيضاء، ووراءها طرحتها القصيرة تميزها في يوم الأحلام، كم حلم بها ترتديها من أجله! «أخيرًا سينسدل الستار، أميرتي. أخيرًا سأعطيكِ قبلة الحياة لتعيشي ويطمئن عليكِ قلبي، ستظلين أمانتي التي عاهدت الله أن أحافظ عليها طوال عمري، صاحبة العينين اللامعتين في ظلمة الليل، تنزل السلم بخجل».

اقترب منها ليعطيها باقة زهور العروس، إنها نفس نوع زهور حديقتها، القرنفل بلونيه المحببين لقلبها: الأبيض والأحمر، احتضنت الزهور ببراءة، لتفاجأ به يُخرج علبة صغيرة من جيبه، ليلبسها خاتم زواج أبهرها ذوقه، فنظرت له بتساؤل وكأنها تقول: «**متى أحضرته؟**»، جذب يدها ليلبسها إياه وهو يقول:

«**منذ زمن، صغيرتي. وهو ينتظر أن يحتضن أصبعك**».

لترد قائلة: «**ما زلت محتفظة بخاتمي القديم**».

ابتسم قائلًا: «**اتركيه ذكرى لأيام جميلة مضت**».

ألبسها الخاتم وجذبها من يدها بهدوء وسط زغاريد عفاف وصباح التي لم تنقطع، وخرج بها كما دخل دون النظر وراءه، ولم تحاول هي الالتفات؛ حتى لا يعكر شيء هذه اللحظات التي حلمت بها منذ طفولتها. ولكن سمع الاثنان صوت سليم ينادي:

«**حنين، هل ستذهبين معه دون توديعي؟!**».

شعر يحيى بارتجاف يدها، فشدد من قبضته، ما زالت آثار ضربه الموجع تشعر بها، تتذكر يده على وجهها كلما سمعت صوته.

ليدير يحيى رأسه ناظرًا إليه وهو يقول:

« **الآن معي حقي الذي لن أفرط فيه مرة أخرى. لا تستطيع منعي من الخروج بها من هنا هذه المرة. لم أعُد كما كنت من قبل، ولم تعُد هي تتحمل الحياة معك**».

وانصرفا بهدوء.

غادر باسم بعد تهنئة العروسين، فقد أصر على الحضور والشهادة على العقد بمجرد إخبار معاذ له بالأمر؛ فهو يُعتبر من أقرب الأشخاص ليحيى بعد معاذ.

ودعهما معاذ ورحمة قبل ركوبهما السيارة، وقبل أن يدخل يحيى السيارة جذبه معاذ جانبًا ليقول: «**والدتك اتصلت بي كثيرًا، هاتفك مغلق. لم أستطع إخبارها بشيء. فكر كيف ستخبرها. أشعر أنها تعلم شيئًا؛ صوتها ليس مُطمْئنًا**».

تذكر يحيى أنه لم يفتح هاتفه إلا لإجراء المكالمات وكان يغلقه بعدها، فهز رأسه إيجابًا ليدخل سيارته ويقودها دون أي كلمة. فقط النظرات كانت أبلغ حديث بينهما.

لم يكن يبقى من الموجودين غير معاذ ورحمة وقد ركبا السيارة خلفهما، وقرر معاذ السير وراء العروسين لتوصيلهما، وبمجرد أن ركب معاذ السيارة نظرت له رحمة بسعادة واضحة عليها وقالت:

«**أنا سعيدة من أجلهما، سعيدة جدًّا**».

ضحك معاذ قائلًا: «**وأنا أيضًا**».

فتح يحيى باب شقته وإذ به يميل ليحملها، أغمضت عينيها لتستوعب ما هي فيه؛ أهذا حلم؟! تعلقت برقبته بشدة، وعندما أنزلها في الغرفة، وجدها ما زالت مغمضة العينين، ليقول بقلق: «**ماذا بكِ، حنين؟**».

فتحت عينيها ليتفاجأ بالدموع تملأهما وهي تقول: «**لي رجاء أخير، يحيى**».

«**وحتى لو هناك غيره ألف، أنتِ تأمرينني وأنا أجيب**».

وأمسك يدها التي ترتجف بشدة ولا يستطيع تفسير ما بها، لتقول وكأنها تترجاه: «**أعلم أني أصبحت عبئًا عليك. كل ما أطلبه منك فقط أن أظل معكم. لا أريد أن أصبح بمفردي مرة أخرى**».

ضيق يحيى بين حاجبيه بدهشة، وقال: «**حنين، أنتِ أصبحتِ زوجتي!**».

قالت بحزن: «**أعلم أن الأمر مؤقت، ولا أريد التعلق به. أعرف أن زواجنا ليس حقيقيًّا، هو فقط لكي تبعدني عن أبي. أريد العيش مع عمتي كريمة وسلمى فقط. هذا كل ما أريده**».

قال وكأنه يفكر بصوت عالٍ: «**بالنسبة لأمي وسلمى، فهذه مشكلة أخرى؛ أتتخيلين أن أدخل عليهما بكِ وأقول لهما: 'تزوجت حنين'؟! يا ألله! أمي ستعيد تربيتنا مرة أخرى، حنين**».

ابتسمت وهي تقول: «**لن أهون عليها عندما تعلم الحقيقة**».

قال لها بمشاكسة: «**وما هي الحقيقة؟**».

أجابت ببساطة: «**أنه ليس زواجًا حقيقيًّا وأنك تساعدني فقط. أعلم أنه لم يعد لي مكان في حياتك. لست أنا من أدمر حياة أخرى**».

نظر لها وكأنه يفكر ليقول:

«**وهل أنتِ تريدينه ألا يكون حقيقيًّا؟**».

ردت ببراءة: «**أنا لا أريد شيئًا سوى أن أنام وأنا أشعر بالأمان. أنت لن تضرني أبدًا، يحيى. أليس كذلك؟**».

نظر لها بعمق؛ فقد بدأ يشك في معنى كلامها: «**لماذا تخافين هكذا؟**».

لم تتحدث وهي تبعد عينيها عنه وكأنها تخشى أن يقرأهما، فأكمل كلامه: «**حنين، كررتِ أن زواجنا غير حقيقي. أنا لم أجبركِ على شيء. وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا. لقد ظل عقد قراننا لشهور من قبل، ولكن حقي الآن أن أعلم كيف تفكرين. أنا أصلًا أشك أنكِ تعلمين شيئًا عن الزواج**».

حاولت الابتعاد عنه وهي تقول دون أن تنظر إليه:

«**وأنت طبعًا أصبحت خبيرًا به؛ بما أنك متزوج**».
ضحك من محاولتها تغيير الحوار، وأيضًا من اقتناعها بهذا الأمر الذي لم تستطع فيه إخفاء غيرتها، ليقول وهو ينظر لخاتم الزواج بيده:
«**هل أصابكِ الغباء، حنين؟ أم إن نظرك به مشكلة؟! ألم تنظري ليدي؟ ألا تلاحظين أن خاتم زواجك له نفس الشكل؟!**».
انتبهت حنين لتنظر في يده بتركيز لأول مرة وهي تقول: «**ماذا؟!**».
فقال وهو يجذبها له: «**أنا لم أتزوج إلا بكِ يا بلهاء. وإلا فأين هي؟ هل أخفيها في الغرفة الأخرى؟!**».
جذبت حنين يده لتنظر للخاتم عن قرب وهي تغمض وتفتح عينيها بعدم استيعاب، وقالت: «**أنا، يحيى! اسمي أنا!**».
«**وهل لي أن أكتب اسم غيركِ حنين؟!**».
قالت وقد بدأت في البكاء: «**أنت ترتديه من فترة. أنا رأيته في يدك في النادي**».
قال وقد استغل الموقف واقترب منها أكثر: «**أحضرت الاثنين منذ فترة؛ كنت أنوي أن نرتديهما يوم زفافنا السابق. وضعته في يدي من وقت ابتعدتِ عني؛ ليظل اسمكِ أمامي. لم يهُن عليَّ أن يظل بالعلبة وعليه اسمكِ**».
ليكمل مبتسمًا تأكلها عيناه وهو يقول: «**علم الجميع بأن قلبي ملككِ، وأنتِ لا تعلمين! اسألي الدنيا؛ ستخبرك أني لم أرَ غيركِ في حياتي**».

تفاجأ بها تحتضن عنقه وقد زاد بكاؤها: «**ظننت أنك كنت ستتزوجني لأني ابنة عمك. تخيلت أنك لم تحبني كما أحبك**».

رد بابتسامة: «**كنت أحميكِ من نفسي ونفسكِ، حنين**».

لتقول وسط بكائها: «**لم تفرق بيني وبين سلمى**».

«**فرقت بينكما في قلبي يا ساذجة**».

ابتعدت أخيرًا عنه لتقول بعتاب: «**صرخت بي في النادي حتى لا أذهب مرة أخرى ولا تراني**».

«**غبية. كنت أعرف أنه لن يتركك**».

«**لم تهتم يومها بي وتركتني**».

استمر يرد على أسئلتها ببساطة حتى تهدأ ويطمئن قلبها، فقال: «**كنت وراء سيارتكِ حتى وصلتِ مع رحمة. لم يستطع قلبي تركك**».

قالت وهي تمسح دموعها بظهر يدها: «**إذًا قل لي إنك تحبني**».

قال بابتسامة: «**أحبكِ يا مجنونة**».

«**احلف**».

قالتها ببساطة، فقال مدهوشًا: «**ماذا؟**».

«**احلف إنك تحبني**».

اقترب منها يحتضن خصرها بخبث لم تلاحظه هي ربما لأنها معتادة على التعامل معه منذ صغرها، وهو يقول: «**والله أحبكِ، أحبكِ منذ كنتِ طفلة بين يديَّ، أحبكِ في كل لحظة رأيتكِ تكبرين فيها أمامي لتصبحي بهذا الجمال وتظلي بقلب طفلة**».

وهذه المرة لم يستطع مقاومة رغبته في تقبيلها، فلم يعد هناك ما يمنعه من أخذ حقه في كل هذه السنين الضائعة. ورغم عقد قرانهما السابق، فإنه كان لا يريد التسرع في مشاعره لصغر سنها، ليترك كل شيء لوقته، اقترب منها أخيرًا بشوق ليشعر بانتفاض جسدها بين يديه، فابتعد عنها ليجدها تدخل رأسها داخل سترته تخفي نفسها، ابتسم أمام تصرفها العفوي وهو يقول: «**حنين، أتعتقدين نفسكِ نعامة؟! ماذا بكِ؟**».

لم تجبه، فرفع رأسها بيده، حاولت السيطرة على نفسها وقد لاحظ أنها لا تستطيع الوقوف، فضمها بذراعيه لتستند عليه ممسكة به بقوة:

«**حنين، أتحتمين مني بي؟**».

تفاجأ بها تقول بخجل يملأه التوتر: «**أ.. أيمكن أن نظل هكذا، يحيى؟**».

«**نعـــم؟! ماذا تقصدين؟**».

قالت وقد حاولت الابتعاد عنه: «**أنا لا أريد إلا أن أكون جوارك و.. وفقط**».

الفصل السابع

قال يحيى محاولًا السيطرة على أعصابه – فمؤكد أن هناك شيئًا لا يفهمه –:

«**حنين، أتستوعبين ما تقولين؟!**».

نظرت له بارتباك ولم تُجب، فأخذ نفسًا عميقًا وجذبها من يدها لتسير معه، حتى أجلسها على الأريكة وجلس بجوارها بعد أن خلع سترته ورابطة عنقه ورماهما بعيدًا، وفتح بعض أزار قميصه بملل وهو يقول: «**واضح أن هذا اليوم طويل ولم ينتهِ بعد**».

ابتسمت أمام تصرفاته التلقائية التي تعرفها عندما يرتبك. حاول اقتحام عينيها لكي يفهم ما بها، شعر بأن هناك شيئًا أكبر من ارتباك فتاة يوم زفافها، الأمر بالنسبة لهما مختلف، هي معتادة على التعامل معه، تعرفه جيدًا، تعتاد على وجوده جوارها، فما المشكلة؟ لماذا يصيبها الخوف فجأة ثم تعود وتنسى بمجرد ابتعاده عنها؟

شعرت هي بمحاولته فهمها، مما زاد ارتباكها، فظلت تلعب في أصابع يدها بعصبية، فقال بشك: «**لم تخافي مني بالأمس وأنا لست زوجكِ، والآن ترتعبين بمجرد أن أقترب منكِ؟!**».

قالت بارتباك: «**بالأمس كنت متأكدة أنك لن تفعل بي شيئًا**».

قال وما زال يحاول عدم الانفعال: «**حنين، تحبينني منذ عمر، واليوم عندما يصبح حقنا أن نعبر عن هذا الحب تخبرينني بأنكِ لا تريدين أن ألمسكِ؟!**».

قالت وقد بدأ توترها يزداد: «**أنا لا أريد ما يحدث في الزواج**».

قال بصدمة: «**حنين، ماذا تعرفين أنتِ عن الزواج؟ ماذا يخيفك؟**».

«**رأيته... يضربها**».

انتبه وكأن كلماتها أصابت عقله: «**من؟ تحدثي، حنين. ماذا تُخفين عني؟ رأيتِ ماذا؟**».

قالت بصوت منخفض تحاول إخراجه بصعوبة: «**في المشفى... تهجم عليها و...**».

«**من، حنين؟ أنتِ تُثيرين أعصابي. تكلمي، ماذا حدث أمامكِ؟**».

تفاجأ بها تعود لحالة البكاء الهستيري التي رآها عليها أول مرة، لتكمل: «**دكتور جاسم... في المشفى... ضربها. رأيته يضربها ويقبلها و...**».

قال وقد بدأ الشك ينتابه، وأعصابه بدأت في عدم التحمل: «**أكملي بالله عليكِ. ماذا حدث؟**».

أكملت بنفس الهلع الذي أصابها من مجرد استرجاع الذكرى في عقلها: «**كانت تصرخ... وبعدها لم تعد تصرخ... أنا رأيته أكثر من مرة من الشرفة يفعل ذلك**».

أمسك يدها التي كانت ترتجف وهو يحاول أن يهدئها ويهدئ من نفسه قبلها: «**هل كانت ممرضة؟**».

«**لا**».

شعر أن قلبه كاد أن يقف، لينطق بصعوبة: «**هل اقترب منكِ؟**».

وجدها تتشبث بيده أكثر وهي تقول: «**كنت أصرخ عندما أراه وأضربه و....**».

أخفت وجهها بخوف وقد أمسكت بقميصه باليد الأخرى دون أن تشعر لتقول: «**كان يصيح بهم وهو يقول: 'أعطوها... جلسة كهرباء'!**».

استوعب يحيى ما تقول، ليكمل هو: «**كلما صرختِ به جعلكِ تخضعين لجلسات كهرباء كعقاب؟**».

هزت رأسها بإيجاب، فأكمل وكأنه يُحدث نفسه منفعلًا لا يعرف ماذا يقول أو كيف يرتب الكلام: «**لكي تفقدي الوعي. كيف لم يعرف والدكِ؟ كيف؟! ولإجراء أمر كهذه الجلسات لا بد من توقيع المسئول عنكِ. وبالطبع بما أنه عقاب؛ كان من دون تخدير. أنتِ دخلتِ المشفى بانهيار عصبي؛ كيف يصل الحال لجلسات كهرباء دون لفت الأنظار في المشفى؟!**».

ظل يتحدث ويجيب على نفسه، فابتعدت عنه أخيرًا وهي تقول بخوف:

«**لم أدعه يتمكن مني، أقسم لك. أنا لا أكذب عليك، صدقني**».

ورغم كل ما بداخله من براكين تكاد تحرقه، فإنه رأف بحالها؛ ضمها له وهو يقول: «**اهدئي، حبيبتي، لا تخافي**».

لتقول بخفوت: «**أنت تصدقني، أليس كذلك؟ أنا... أنا كنت أفيق بعدها لأجد نفسي في غرفتي**».

رد بصلابة قائلًا: «**وهل يعلم والدكِ بهذا الأمر؟**».

«**أتى يومًا لزيارتي بعد جلسة الكهرباء، وعلم بالأمر. انقلب المشفى يومها ممَّا فعله بهم، وأخذني للمنزل**».

تمالك أعصابه ورفع رأسها له وكأنه لم يسمع شيئًا، فقد أدرك ما وصلت إليه وما يجب عليه فعله! ليقول لها بهدوء:

«**من يحب أحدًا لا يؤذِه. افهمي ذلك**».

قبل جبهتها وهو يحاول السيطرة على انفعالاته؛ فهي تحتاج معاملة خاصة إلى أن تعود لطبيعتها.

ليظل جالسًا مكانه وهي بجواره تستند إليه وقد نامت على ذراعه، ظل هكذا لا يعرف كم مر من الوقت، لكنه لم يُرد أن يخرجها من حالة السكون هذه. انتبه لهاتفه المغلق وتذكر حديث معاذ عن مكالمات والدته، ففتح الهاتف ليجد مكالمات كثيرة قد فاتته من والدته، فشعر بأنها علمت الأمر واستعد لمواجهتها، واتصل:

«**كيف حالكِ، أمي؟**».

وجدها تصيح ببكاء قائلة: «**أنت تفعل ذلك؟ ابني أنا يفعل هكذا؟ ألم تتذكر أختك؟ تخون الأمانة؟ أخبرني أن ما سمعته ليس حقيقيًّا. أخبرني أن ابني لم يفعل ذلك**».

قال لها بهدوء: «**أمي، سآتي لكِ حالًا**».

أغلق الهاتف ونظر لحنين التي رفعت رأسها عن كتفه بمجرد أن بدأ المكالمة، وقالت: «**اذهب لوالدتك، يحيى**».

قال وهو يقف ويجذب يدها لتقف معه: «**وهل تتخيلين أني سأذهب بمفردي؟! هيا**».

«**كيف، يحيى؟**».

«**كما نحن تمامًا**».

ووقف ليعدل من شعرها وطرحتها، وأخذ ينظر حوله، فقالت: «**عن ماذا تبحث؟**».

«**أبحث لو أن إحداهن تركت عندي قلم شفاه**».

«**مـــاذا؟**».

ليقول ضاحكًا: «**زينتكِ زالت، عزيزتي، من كثرة البكاء. أيرضيكِ أن تذهب عروسي لوالدتي هكذا؟!**».

أخذها لدورة المياه لتغسل وجهها، ووقف ينظر لها بتركيز مرة أخرى، فقالت:

«**هل هناك شيء آخر؟**».

فقال بحب: «**جميلة أنتِ في كل أحوالكِ، حبيبتي**».

بعد وقت قصير كانا قد وصلا للمنزل، والغريب أنه لم يجد أحدًا في انتظاره، أخذها وصعدا لغرفة والدته، قالت حنين بتوتر:

«**ادخل لها أنت أولًا**».

«**لا، حنين. هيا معي**».

طرق الباب عدة مرات. وأخيرًا فتحت كريمة الباب لتنظر للاثنين بتأنيب وقد ظهر عليها الحزن، ابنها يرتدي بدلة فرحه وحنين بفستانها الأبيض، لتقول بحسرة: «**مبارك يا عروسان!**».

مال عليها يحيى يقبل جبهتها، وأمسك بيدها ليقبلها، وهي تحاول إبعاده:

«**أمي، سامحيني. والله لو علمتِ ما الأمر فسوف تعذرينني**».

لتقول وهي تبتعد عنهما: «**ماذا جاء بك؟ خذ زوجتك واذهب من هنا**».

جلست كريمة على حافة الفراش ترفض التحدث، ولكن حنين دون أن تنطق بأي كلمة اقتربت منها تجلس جوارها، ورمت نفسها بين أحضانها تبكي قائلة بمرار:

«**افتقدت حضنكِ، عمتي**».

لم تستطع كريمة إبعادها، فضمتها إليها وهي تقول:

«**وأنتِ أكثر، ابنتي. الحمد لله أنك بخير، الحمد لله**».

نظرت لابنها بعتاب، لتجد حنين تقول: «**أنا لم أصبح بخير إلا بينكم. أرجوكِ دعيني أظل معكم**».

قالت كريمة بأسى: «**إنه بيتكِ، ابنتي. مثلكِ فيه مثل سلمى ورهف. خذ عروسك، يحيى، واذهب لغرفتك. وصباحًا لنا حديث**».

جلس يحيى على ركبتيه أمامها وأخذ يدها وقبلها وهو يقول: «**سامحيني، أمي. والله لم أقصد؛ لم يكن هناك حل آخر**».

قالت بهدوء وما زالت حنين بين ذراعيها: «**اذهب، يحيى، لغرفتك. أريد أن أنام**».

جذب يحيى حنين ليخرج من غرفة والدته ويذهب بها لغرفته، وبمجرد دخولهما الغرفة وجدها تتنفس بعمق، فقال لها بمشاكسة:

«**ما كل هذا؟! سينتهي الهواء بالغرفة**».

ردت عليه وبها حالة من السكينة: «**حضن أمك جعلني أشعر أني ما زلت طفلة؛ لم يكن لي أمان منذ صغري سوى أحضانها**».

رد عليها بابتسامة: «**من جهة أنكِ ما زلتِ طفلة، فأنا متأكد من ذلك. أما بالنسبة لحضن أمي، فأنا ابنها ومتأكد أيضًا أنني ورثت منها هذا الحضن، أنتِ فقط لم تعطيني الفرصة**».

قالت بسرعة: «**أصبحت...**».

فقاطعها ليكمل لها: «**أنا أصبحت قليل الحياء والأدب، وكل ما تريدين قوله، منذ أن رُدت لي روحي وعدتِ لي وأصبحتِ زوجتي**».

احمر وجهها خجلًا وقالت: «**وماذا بعد يا بن العم؟ هل تلاحظ أن هذا اليوم لا يريد الانتهاء؟**».

قال وهو يقترب منها: «**أتعرفين لماذا لا يريد الانتهاء؟ لأن هناك شيئًا ينقصه لينتهي**».

قالت وهي ترفع كتفيها بتساؤل: «**وما هذا الشيء؟**».

قال يمثل الحزن: «**زواجنا، حنين**».

ردت عليه بسعادة: «**وهل هناك أكثر من ذلك؟ تم عقد قراننا منذ ساعات، وأنا الآن في منزلكم، وفي غرفتك، وحضنتني خالتي، وهناك على بعد خطوات سلمى، وعدنا معًا في مكان واحد**».

رفع يحيى وجهه للسماء وهو يقول: «**ارحمني يا ألله. هناك شيء مهم، حنين، يبدو أنكِ لا تعلمينه**».

ردت ببساطة: «**وما هو؟**».

خلع سترته وأطاح بها بعيدًا وهو يقول: «**مؤكد العيب في هذه البدلة**».

وأكمل قائلًا بابتسامة: «**ما رأيكِ أن نصلي ركعتين ليكرمنا الله في هذه الليلة لتمر؟**».

هزت رأسها بسعادة، وتوضأ الاثنان، صليا لأول مرة معًا كزوجين. شعر بحالة من الراحة والهدوء بعد هذه الصلاة، جلست على الفراش وجلس جوارها وهو يقول بنبرة هامسة: «**حنين، هل لم يخبركِ أحد كيف يكون الزواج؟**».

ردت بصوت خافت: «**ومن سيخبرني، يحيى، وأنا ليس لي أم؟**».

ابتلع غصة؛ فقد أوجعته كلماتها وحاول تجاهل ما قالت، ليكمل:

«**صديقات مثلًا منحرفات، تزوجت إحداهن، قلن لكِ أي شيء**».

ردت ببساطة: «**لم يكن لي أصدقاء غيركم، يحيى. وأنت كنت الأقرب لي. وصراحة أنت كنت مهذبًا**».

اعتدل يحيى في جلسته وقال ببشاشة: «**أجل، أنتِ وصلتِ للمهم؛ أنا كنت مهذبًا، وهذا خطأ يجب عليَّ تصحيحه، وفورًا؛ لأني واضح أني أخطأت خطأ فادحًا**».

قالت بتوتر وشك في معنى كلامه: «**كـ... كيف؟!**».

ليقول لها بهدوء ونبرة هامسة: «**هل تذكرين يوم علمتكِ السباحة كيف كنتِ خائفة؟**».

هزت رأسها بالإيجاب، فأكمل: «**وثقتِ بي وتغلبتِ على الخوف وتعلمتِ**».

فردت ببساطة: «**نعم**».

أخذ يكمل حديثه وهو يخلع عنها الطرحة والورود، وقد شعر بأنها على وشك الاقتناع: «**هذا كل ما أريده الآن؛ اتركي لي نفسكِ، وثقي بي، وأنا سأعلمكِ كل شيء**».

لم تحاول الرد عليه، وقد بدأت تحرك عينيها يمينًا ويسارًا تفكر في كلامه، فأكمل قائلًا: «**حنين، أريد أن أهديكِ طفلًا يكبر بداخلكِ، لتكوني له أجمل وأرق أم**».

وقبل أن ترد عليه، ما كان منه إلا أن عرفت يده طريقها لفك سحاب الفستان، فقد أرهقه ارتداؤها له منذ عدة ساعات وهو يقول:

«**حنين، مؤكد هذا الفستان يزعجكِ ونحن في هذا الجو الحار**»!

فكم انتظر هذه اللحظة! ومع كل شوقه لها وثورة أعصابه، ورغم خوفه من القادم وظنونه بعد ما قصته عليه، فإنه أراد في هذه اللحظة أن يقتل كل هذه الظنون ويريح نفسه ويريحها، ويطمئن أنها بخير ولم يمسسها ذلك الوغد. حاول التعامل معها بهدوء؛ فقد استوعب جيدًا ما تمر به، كان سعيدًا برد فعلها، فقد تركت له نفسها كما اتفقا، وربما وجودها في منزل العائلة هو ما أشعرها بالأمان.

وقد قرر أنه صباحًا سوف يبدأ انتقامه لها من كل من آذاها، نامت بين ذراعيه في هدوء، تُمسك به بقوة، أغمض عينيه؛ فقد احتاج إلى النوم، فقد وصل لمرحلة من الإرهاق لم يصل لها من قبل ليقول لها ولنفسه قبل أن ينام: «**الحمد لله**»، وسلم نفسه للنومِ.

وبعد فترة، وربما اقترب أذان الفجر، انتفض يحيى مستيقظًا على صراخها ينظر إليها لا يفهم ماذا حدث، واستمر صراخها حتى أيقظ أمه وأخته مرعوبتين.

الفصل الثامن

استيقظ على صراخها الذي جعله ينتفض من نومه: «**حنين، اهدئي. أنتِ هنا معي. أنتِ بخير**».

ولكنها ظلت تصرخ بفزع. «**اهدئي، حبيبتي، بالله عليكِ. ماذا يقول من بالخارج؟ حنين، ماذا حدث لكِ؟! يا ألله**».

بالطبع كان الطرق على الباب هو الرد عليه، فهناك والدته وللأسف أخته، ليسمع أمه تصيح من خلف الباب قائلة: «**افتح، يحيى. ماذا يحدث؟ افتح فورًا**».

وقف يدور حول نفسه لا يعرف كيف يجعلها تهدأ، وكيف يفتح الباب وهي بهذا الشكل، التقط ملابسه من الخزانة ليرتديها بسرعة ويفتح، ولكنه وضع يده أمام الباب يمنعهما من الدخول وهو يقول: «**عذرًا، سلمى، أمي فقط**».

أوجعته نظرة أخته له، ولكن ليس وقتها الآن.

دخلت كريمة لتجد حنين ترتجف وتتدثر بغطائها برعب، جلست بجوارها وأخذتها بين ذراعيها، بينما هو جالس بالجهة الأخرى، يعدل من وضع الغطاء عليها، آلمه ما هي عليه، كان يعلم أنها ليست بحالة طبيعية، ولكن كان لا بد أن يطمئن أنها بخير، لم يمسسها ذلك الحقير وهي غير واعية، استاء من نفسه ولكنه لم يعد هناك داعٍ للندم؛ فقد فات الأوان.

قالت كريمة بلطف وهي تمسد على شعرها وتقرأ عليها القرآن: «**اهدئي، ابنتي. والله لم أتركِكِ معه إلا عندما رأيت الراحة على وجهكِ**».

نظرت للكدمات الظاهرة على جسدها بصدمة، ثم نظرت ليحيى بغضب: «**ماذا فعلت بها؟ أهان عليك أن تفعل بها هكذا؟**».

رد عليها مصدومًا مما تخيلته: «**ماذا تقولين، أمي؟ ماذا تخيلتِ؟ يا ألله. والله لم أفعل بها ما يؤذيها أبدًا**».

نظرت كريمة للغطاء، ثم نظرت لابنها بعدم فهم وهي تقول: «**ماذا يعني ذلك؟! لماذا قال عمك ما قال؟**».

استوعب ظن أمه وما وصل لها من عمه، فقال: «**أمي، أنا أتيت لكِ بها بفستان زفافها. ماذا تخيلتِ؟ أنا لم أمسسها من قبل**».

لتقول له بعدم فهم وما زالت تحتضنها: «**ماذا يعني ما قاله عمك لسلمى؟**».

صرخ يحيى بصدمة ووضع يده على رأسه قائلًا: «**ماذا؟ هل جن هذا الرجل؟! يخبر سلمى؟!**».

قالت أمه بهدوء: «**ابتعد، يحيى، عن البنت، واتركني معها قليلًا لتهدأ. انصرف من أمامي الآن**».

«**أمي ..**».

قاطعته قائلة: «**أحضر لها ملابس، يحيى. تحرك**».

لم يجد ما يعطيه لأمه سوى قميص من ملابسه؛ فحقيبتها ما زالت في السيارة. نظرت له أمه بحسرة على ما فعله بالفتاة، وقالت: «**اذهب من أمامي الآن، وانتظر في غرفتي**».

أخذ ملابسه وذهب إلى غرفة أمه، ودخل دورة المياه بها، فقد علم أن أمه لم تمرر اليوم، وخرج بعدها ليصلي الفجر.

أما حنين، فقد هدأت بين أحضان كريمة التي لم تستطع مقاومة دموعها على حال الفتاة التي لم تفرقها يومًا عن ابنتها؛ كانت تحسن إليها إكرامًا لأمها وحبًّا لهذه الطفلة البريئة، والتي كانت تعدها زوجة لابنها، ليأتي اليوم الذي تتمناه ويحدث لها كل ذلك، ما كانت هذه هي أبدًا مدلَّلتها الصغيرة، فكم كانت منطلقة تحب الحياة!

قالت كريمة محاولة أن تداري ألمها: «**ماذا حدث، حنين؟ أخبريني ماذا فعل لكِ هذا الولد، وأنا والله لأريكِ ماذا سأفعل به**».

ابتسمت حنين لأول مرة وهي تقول بخجل: «**هو حقًّا لم يعُد مهذبًا، أمي**».

قالت كريمة بابتسامة: «**يااااه، حنين! لم تناديني بـ 'أمي' منذ زمن، منذ استوعبتِ أني لست أمكِ**».

ابتسمت حنين وقالت: «**يحيى من قال لي حينها إنكِ لستِ أمي، وإنه ليس أخي، وكلما كان يسمعني أقول 'أمي' كان يغضب مني**».

ضحكت كريمة بسعادة؛ فقد استطاعت أن تخرجها من الحالة التي كانت بها، وقالت بحنو: «**هذا الولد منذ صغركِ أنا أعلم نيته. ولكن لم أكن أتخيل أن يتهور هكذا. ماذا فعل بكِ، حنين، ما دمت أنا أمكِ؟**».

احمر وجهها خجلًا ونظرت لأسفل، فدُهشت كريمة ولم تحاول الضغط عليها وقالت: «**قومي معي، هيا؛ لا بد أن تأخذي حمامًا الآن**».

خجلت حنين منها وترددت، فقالت كريمة: «**أتخجلين مني، حنين؟! أنسيتِ كم مرة غيرت لكِ وأنتِ صغيرة؟**».

ظلت تتحدث معها كريمة فترة ليست بالطويلة، ولكنها بحس الأم استوعبت أن هذه الفتاة لا تعي أشياء كثيرة كان يجب معرفتها بها قبل زواجها. ومن سيتحدث معها سواها؟ وهل تعرف في الدنيا أمًّا سواها؟!

بعد أن أخذت حنين حمامها، جلست أمام كريمة على الفراش لتمشط لها شعرها كما كانت تفعل طوال عمرها حتى بعد أن كبرت.

بعدها جعلتها كريمة تنام على رجلها كما كانت تفعل معهم وهم صغار، وهي تُملس شعرها بصمت لتنام، عدلت كريمة من وضعها برفق وانصرفت لغرفتها.

وجدته جالسًا ينتظرها، اتجه لها وقبل جبهتها، فأبعدته وهي تقول:

«**أفهم ماذا فعلت بها أولًا**».

«**والله، أمي، لم يحدث ما تتخيلينه**».

جلست كريمة على الأريكة، وجلس أمامها أرضًا كما يحب أن يفعل طوال عمره، وقال: «**أتصدقين أن ابنكِ ممكن أن يفعل شيئًا كهذا؟**».

«**أريد أن أفهم ما الذي حدث**».

«**والله تمثيل؛ لم أجد حلًّا لأتزوجها بسرعة سوى هذه الطريقة**».

أخذ يقص عليها ما حدث، وكيف جاءت له حنين، ليجد أمه تبكي بحرقة قائلة:

«**نحن من أذنبنا في حقها. نحن من تركناها معه. أنا السبب. سأحاسب أمام الله على تقصيري بحق هذه اليتيمة**».

قال وقد أشفق على حالها: «**إنه قدرها، أمي. وأنا جدير أن آخذ حقها. الآن، أرجوكِ، لا يجب أن تعرف سلمى شيئًا. والله، أمي، هي فعلًا كانت نائمة، واضح أنها تعاني من الكوابيس؛ هي ليست المرة الأولى التي تستيقظ فيها هكذا**».

لتقول وهي توبخه لأول مرة منذ زمن: «**هذا لا يعني أن أغفر لك زواجك بها دون علمي، ولا يعني أن أمرر أنك تزوجت الفتاة وهي لا تعي أي شيء. هي أساسًا بحالة نفسية لا تصلح للزواج. هذا ليس حبًّا، يحيى. هذه أنانية**».

نظر أرضًا وهو يقول: «**أعلم، أمي. والله ما فعلتها إلا خوفًا عليها. أتفهمينني، أمي؟**».

«**أنت تعجلت، بني**».

«**أمي، أنا منذ أن قصت لي الأمر، داخلي هاجس أنها... أنها تعرضت... لاغتصاب. أتتخيلين إحساسي؟ تصوري هي نفسها لا تعرف ماذا حدث لها! كان بداخلي نار**».

«**اذهب، يحيى، لأختك؛ مؤكد أنها لم تنم حتى الآن. وعد لزوجتك سريعًا حتى لا تستيقظ مفزوعة مرة أخرى. هيا**».

وقف من جلسته ليميل مقبلًا رأسها، ثم جذب يدها ليقبلها وهو يقول:

«**أعلم أنكِ كنتِ تنتظرين يوم زفافي، ولكن قدرنا أن يحدث ذلك. سامحيني**».

غادر الغرفة بعدها متجهًا إلى غرفة أخته، وبمجرد أن طرق الباب فتحت وهي لا تريد النظر له، وتركته ودخلت لتجلس على الفراش، جلس جوارها لا يعرف بماذا يبدأ، ليقول:

«**حنين تحتاجنا جميعًا بجوارها؛ لقد مرت بظروف صعبة منذ تركناها. تعاني من الكوابيس، استيقظت مفزوعة، هذا كل ما في الأمر. ما وصل لعمي كان تمثيلًا؛ ليوافق على زواجي منها. أنتِ تعلمين أني مستحيل أن أضرها. كان لا بد أن أتزوجها سريعًا لأستطيع أن أحضرها هنا لتعيش بيننا. لم يكن عمك ليرضى بزواجي منها بسهولة. ما عرفته وما رأيته من علامات ضرب عليها جعلني لا أستطيع تركها يومًا واحدًا معه**».

أنهى كلامه ووقف وهي ما زالت مغمضة عينيها، لا يعرف هل لا تريد رؤيته أم لم تستوعب ما قال. مال عليها ليقبل جبينها، وغادر الغرفة، فهو قال كل ما يصلح قوله، وليس عنده ما يفسر به أي شيء الآن.

في شركة زاهر رشوان كان الوضع مختلفًا، فحقًّا «**يخلق من ظهر العالم فاسدًا**»، تنطبق هذه المقولة على هذا الرجل الذي يعي جيدًا أن ابنه عمل فاسد لا بد له من إصلاحه؛ وقف أمجد أمام والده بتحدٍّ قائلًا:

«**ماذا، والدي؟ كيف لن تتم الخطبة؟! ماذا يعني ذلك؟ وماذا فعلت في عقد الشراكة الذي تم الاتفاق عليه؟ ألم يكن مقابل الزواج؟**».

رد عليه والده موبخًا:

«الاتفاقات ما زالت مستمرة، وهذا ليس له علاقة بالزواج من ابنة سليم. إن كنت تخيلت أن الزواج كان مقابل التعاقد، فهذا لأنك غبي. وتهديدك للفتاة في منزلها ونيتك القذرة التي اكتشفتها أنا للأسف، إن كنت تخيلت أن الأمر سيمر دون علمي فهذا لأنك أحمق. للأسف أعجبني اختيارك لأول مرة في حياتك. واضح أني توهمت. ستظل أهوج، فاشلًا، ليس لك دور سوى جلب المشاكل».

بعد أن تدارك أمجد صدمة معرفة والده بالأمر، قال مدافعًا عن نفسه:

«أبي، هذا كله كذب. إنها فتاة سيئة، ألفت هذه القصة لتخرج من ورطتها بعد أن كشفتها».

صفعه زاهر على وجهه وهو يقول بغضب رجل لم يعرف الطرق الملتوية طوال حياته: **«أنت حيوان. أنا فشلت في تربيتك. هل أصبح الخوض في أعراض الناس والتلاعب بسمعتهم سهلًا على لسانك؟! أنا من دللتك وتركتك تفعل ما تريد على أمل أن تعقل»**.

رد عليه أمجد وقد بدأ في فقد أعصابه: **«أتصدق هذه الحقيرة وتكذب ابنك؟»**.

رد عليه زاهر وعلامات القرف والاستياء ظاهرة على وجهه:

«اذهب من أمامي الآن. لا أريد رؤيتك في هذه الشركة مرة أخرى؛ فأنا بنيت اسمي بشرف واحترام الناس لي، ولا أريد في آخر عمري أن يلوثه تافه مثلك. انصرف من أمامي».

أخذ يبعده من أمامه ليتحرك أمجد خارجًا بدفعات والده الذي يطرده من الغرفة. وقبل أن يغلق الباب خلفه قال زاهر:

«لعلمك، الفتاة تزوجت ابن عمها بالأمس».

قالها ودفع الباب وراءه. خرج أمجد مسرعًا يشتاط غيظًا ممَّا أسمعه له أبوه، وبداخله كل الحقد والغل الذي يدفعه للانتقام!

أما زاهر فقد عرف نية ابنه وقرر أن يوقفه عند حده، فلا بد أن يُبعد ابنه عن هذا البلد ليبدأ حياته بعيدًا عن أصدقاء السوء.

جلس سليم إلى مكتبه في الشركة، يحاول إعادة حساباته من جديد، وخاصة بعد مكالمته مع زاهر وإخباره بما حدث من ابنه، فهو يعلم أنه رجل محترم لا يخشى في الله لومة لائم، ظل يكسو الحزن ملامحه يفكر في ما وصل له.

ولكن إعادة الحسابات بعد فوات الأوان شيء قاس، وخصوصًا لو كان الأمر متعلقًا بالأبناء. دائمًا ما يعتقد الآباء أنهم يعرفون أكثر، يحكمون على الأمور بمنطق الخبرة، ولكنهم للأسف لا يضعون في الحسبان مشاعر الأبناء واختلاف زمنهم وثقافاتهم، وتغير الطباع والأفكار. وها هو الآن بدأ في جني ما زرعه.

نعم، كان يتمنى ولدًا، يعلم منذ صغرها أن ابن أخيه هو أحق شخص بها، لكن رفضه أن يطيعه ويكون كما يريد جعله يقسو عليه، يزداد حقدًا تجاهه كلما رأى عصيانه له ليخبر نفسه دائمًا أنه لو كان ابنه لكان الأمر مختلفًا، ولكن ما الفرق بين ابنه وابن أخيه؟ سؤال سأله لنفسه متأخرًا.

ورغم كل شيء، فهو لم ينم مطمئنًّا منذ فترة إلا ليلة أمس! لا بد أن يعترف لنفسه بذلك، يعلم ضعف ابنته وطيبتها، هي تحتاج فعلًا لقوة يحيى وحنانه، هي لم تحتَجْ سواه، هو فعلًا أحق بها.

كل هذه الأفكار مرت بعقله في نفس اللحظة التي دخل فيها يحيى الشركة، بعد أكثر من ثلاثة أعوام مضت منذ رحل عنها، كم افتقد هذا الشعور وهو يمر بين ممرات المكان! وكأن رائحة أبيه حوله. أما موظفو الشركة، فمنهم من لم ينتبه له من الأساس، ومنهم من دُهش لظهوره مرة أخرى بالشركة، فهم يعملون بها منذ سنين ويعلمون من هو جيدًا، منهم من سلم عليه بترحاب، وهو يسير لا يحاول النظر لأحد، ولم يكن على وجهه أي تعبير مفهوم ليستشف منه الفضوليون أي شيء.

وصل لمكتب عمه الذي يعرف طريقه جيدًا، وقبل أن تسأله السكرتيرة من يكون – فهي جديدة بالشركة –، اقتحم المكتب ليتفاجأ به عمه أمامه.

قالت السكرتيرة بتوتر لمديرها: «**آسفة، سليم بيه، هو من...**».

وقف سليم وأشار لها بالانصراف، وبمجرد خروجها قال ليحيى:

«**ما الذي أتى بك الآن؟! ألم تأخذ كل ما تريد؟**».

رد يحيى محاولًا عدم الانفعال: «**أعطِني ملف حالة حنين**».

«**لماذا؟!**».

«**عمي، أنا لا أريد الخوض في تفاصيل أعلم أنها ستجرحك. أعطِني الملف بهدوء**».

رد سليم بسخرية: «**هل سترفع دعوى وصاية؟!**».

قال وقد بدأ يفقد هدوءه: «**كنت متأكدًا أنك لا تعلم شيئًا عن حالتها ولا ما وصلت إليه. ابنتك للأسف تحتاج إكمال علاجها. وأنت كل ما يشغل بالك الوصاية**».

ليقول سليم متهكمًا: «**أتتخيل أني سأقتنع؟!**».

رد بنفاد صبر: «**قلت لك إني لا أريد أن أجرحك. فأنا كرجل أعلم شعورك جيدًا بعد كل ما حدث مهما حاولت إظهار غير ذلك، لكن أنت من تدفعني لذلك. يجب أن تعرف أنها ما زالت تعاني من اضطرابات واضحة لكل من يتحدث معها**».

قال سليم بامتعاض: «**ماذا تقول؟**».

«**ما فهمته، عمي. أنت لم تكلف نفسك عناء الإصغاء إلى ابنتك. وبما أنك مصمم على المعرفة، فملف ابنتك يهمني أيضًا لمعرفة اسم الطبيب الحقير الذي أوصلها لما هي فيه الآن**».

«**ماذا تقصد، يحيى؟ أجئت صباح زواجك لتكمل الانتقام؟**».

«**قلت لك في البداية لا أريد الحديث في تفاصيل ستجرحك. ألم تسأل نفسك لماذا أخضعها ذلك الحقير لجلسات كهرباء؟ هل حالتها كانت تستدعي ذلك؟ ألم تحاول إخبارك بتهجم ذلك الحقير عليها ولم تصدقها؟**».

ليقول سليم بانفعال وقد بدأ يفقد اتزانه محاولًا الجلوس: «**ماذا تقصد؟**».

«**أعطِني الملف ودعني أمشي، فلا أريد قول أكثر من ذلك. فمهما كان، فبداخلي شيء لا يريد جرحك أكثر**».

فتح سليم الخزانة بجواره وأخرج الملف بيد لا يخفى على يحيى ارتعاشها، ولم يحاول النظر له وهو يعطيه الملف ليقول بصوت خرج مهتزًّا:

«**هل... هل فعل بها شيئًا؟**».

نظر له يحيى بحزن وحسرة قائلًا: «**تخيل، عمي، أنا تزوجتها وبداخلي هذا الإحساس بالضبط!**».

فقال سليم وقد بدأت أنفاسه تتسارع: «**انطق، يحيى**».

«**اطمئن، هي بخير**».

أخذ سليم أنفاسه ولم يحاول رفع رأسه مرة أخرى حتى غادر يحيى، ودون محاولة للحديث أكثر من ذلك، وهو يعتصر الملف في يده وكأنه يتوعد لمن ورد اسمه بداخله، وبمجرد ركوبه السيارة فتح الملف واتصل بأحد مساعديه قائلًا:

«**أريد منك إحضار شخص فورًا إلى مخزن الشركة، لا تُصِبْه بأي أذى، أريد أن أنال أنا هذا الشرف. هل فهمت؟ سأرسل إليك رسالة بكل التفاصيل**».

الفصل التاسع

بعد أن أرسل يحيى الرسالة إلى معاونه، اتجه إلى المشفى الخاص بمعاذ، فهو لا يريد الذهاب له في منزله أمام رحمة.

وبعد فترة، جلس أمامه ليقول له بجدية واضحة على ملامحه:

«**معاذ، هذا ملف حالة حنين، أريد منك دراسته. أنا لم أفهم منه الكثير؛ فهناك مصطلحات طبية لا أعرفها. وأريدك أن ترشح لي طبيبة. أفهمت، معاذ؟ طبيبة، لمتابعة حالتها، وليس طبيبًا**».

قال معاذ مبتسمًا وهو يتصفح الملف:

«**أهذا بدافع الغيرة؟**».

«**أنا لا أمزح، معاذ. أرجوك أنهِ الأمر في أقرب وقت، هي بحاجة للعلاج**».

صمت معاذ قليلًا قبل أن يقول: «**أنا فقط أحاول التذكر. التخصص بعيد عني**».

«**معاذ، لا داعي أن أخبرك ألا تعلم رحمة شيئًا**».

«**لا تخف. ولكن أين حنين الآن؟ ولماذا تركتها اليوم؟ تخيلت أمس أنك ستظل جوارها شهرًا لا تتحرك**».

رد يحيى بنفس الهدوء: «**ما دامت في منزل العائلة، فأنا مطمئن عليها**».

ليقول معاذ بابتسامة: «**صحيح، ماذا فعلت خالتي عندما علمت الأمر؟**».

«**لا تذكرني. الأمر كان أصعب ممَّا تخيلت. وحنين وضعتني في موقف محرج أكثر. ولكن -الحمد لله- شرحت لها الأمر وتقبلت بصعوبة، لم تكن ترضى عني لولا تفهمها وضعها. للأسف عمي أساء التصرف وأخبر سلمى**».

ليقول معاذ بذهول: «**ماذا أخبرهما؟ أعلمت سلمى شيئًا؟**».

«**للأسف. ولكن الأمر مضى بخير. معاذ، دعنا في ما سيحدث اليوم؛ إنه أهم**».

«**ماذا تنوي أن تفعل؟**».

«**لا، أنا بدأت فعلًا، وفي انتظار وصوله لأشفي غليلي**».

ليقول معاذ بتأكيد: «**الطبيب. أليس كذلك؟ ماذا ستفعل به؟**».

لم يرد عليه يحيى، ولكن قرأ في عينيه ما جعله يخشى تهور صديقه، ليقول بقلق:

«**يحيى، لا تتهور**».

وصل ليحيى الاتصال الذي انتظره ليرد على الهاتف فورًا، استمع قليلًا للطرف الآخر، ولم يرد إلا بجملة واحدة:

«**تمام، انتظرني مسافة الطريق. لا أريد أن يلمسه أحد، دعوه لي**».

فهم معاذ مضمون المكالمة، ليقول: «**يحيى، ماذا ستفعل؟ لا تُدخل نفسك في مشكلة**».

تركه يحيى ليغادر المشفى متجهًا لسيارته، وخلفه معاذ يحاول اللحاق به، ليقول له يحيى قبل ركوبه السيارة: «**معاذ، لو تريد فعلًا مساعدتي، فاذهب وأحضر حنين**».

«**نعم؟! ولماذا حنين؟ كيف تفكر؟! أنت ستدمر أعصابها هكذا**».

«**معاذ، صدقني هذا لمصلحتها**».

«**ماذا تنوي بالله عليك؟**».

«**لا تخَف، أنا فقط سآخذ حقها أمامها**».

وأكمل كلامه وهو يركب السيارة: «**سأخبر أمي أن تجعل حنين تستعد. أحضرها إلى مخازن الشركة**».

أدار السيارة بسرعة، ولم يكن أمام معاذ إلا أن ينفذ ما قاله هذا المجنون.

بعد فترة قصيرة كان قد وصل يحيى لمخزن الشركة، وجده مربوطًا في أحد الأعمدة، وقف يشاهده وبداخله ثورة يحاول كبح جماحها.

اقترب منه كأسد يقترب من فريسته ببطء، وما إن أصبح أمامه مباشرةً حتى أخرج الوحش بداخله لينهال عليه ضربًا، وهذا التعيس لا يفهم لماذا يحدث له هكذا.

«**ماذا هناك، معاذ؟**».

«**لا شيء، خالتي. أنا سأوصلها إلى يحيى كما أخبركِ؛ فهو مشغول ولم يستطع المجيء لأخذها، وكان معي، فطلب مني ذلك حتى لا تذهب بمفردها في سيارة أجرة**».

نزلت حنين قلقة مرتبكة، لتقول: «**معاذ، هل يحيى بخير؟**».

رد مبتسمًا يطمئنها: «**مؤكد، حنين. هل سيكون شكلي هكذا لو كان هناك شيء؟!**».

خرج الاثنان من المنزل، وبمجرد ركوب حنين سيارة معاذ لاحظ توترها وارتجافها، حركة يدها غير الإرادية، تعرقها المفرط، فقال:

«**حنين، هل بكِ شيء؟**».

بلعت ريقها بصعوبة، وأنفاسها بدأت تسرع وكأنها لا تستطيع التنفس: «**لو لم يكن هناك شيء قد حدث، كان سيأتي هو. أليس كذلك؟**».

سألها معاذ بشك قائلًا: «**حنين، هل تأخذين أي دواء؟**».

ردت بتوتر: «**لا... لا، لماذا؟**».

ليقول بعتاب:

«**حنين، أنا طبيب. أنسيتِ ذلك؟ هناك دواء مؤكد أنكِ تأخذينه**».

«**نـ... نعم، كنت آخذ مهدئات**».

«**كنتِ؟ ألم تعودي تأخذينها؟!**».

«**نعم، أوقفتها من فترة**».

«**أوقفتِ المهدئات بمفردك دون استشارة طبيب؟! ومرة واحدة؟!**».

قالت بارتباك: «**نعم**».

ليقول محاولًا عدم توبيخها: «**هذا خطأ، حنين**».

قالت بصعوبة تمسح تعرقها: «**شعرت أني لم أعُد أحتاجها**».

«**منذ متى أوقفتِها؟**».

«**لا أعرف... مـ... منذ يوم النادي**».

أوقف معاذ السيارة أمام إحدى الصيدليات التي في طريقه، ليدخلها ويعود بعد دقائق قليلة بعلبة أعطاها لها بمجرد ركوبه قائلًا: «**خذي هذا مؤقتًا الآن. أنتِ تحتاجينه**».

لتقول برفض: «**لا داعي له**».

قطع كلامها قائلًا: «**حنين، لا بد أن تأخذيه الآن. اسمعي الكلام، أنا لا آخذ رأيك**».

حاول أن يتعامل معها دون أن يوترها مكملًا: «**حنين، تعلمين أنكِ كأختي، أليس كذلك؟ لو لم يثق بي يحيى لما أرسلني لأخذك. بيننا ذكريات وأيام طويلة يا حنين، لا داعي للخوف، واسمعي الكلام**».

أخذت الدواء بتردد، وقالت: «**أخبرني إذًا ماذا هناك**».

«**لا تقلقي. يحيى فقط قرر أخذ حقك فورًا**».

نظرت له بعدم فهم وهي تجد نفسها أمام أحد المخازن وسيارة يحيى بجوارها، خرج لهما يحيى بعد أن أخبره معاذ بوصولهما إلى الخارج عبر الهاتف، ليقول معاذ متسائلًا: «**ماذا فعلت معه؟**».

«**لا تخف، الشرطة على وصول**».

أخرج حنين من السيارة وهي لا تستطيع فهم ما يحدث، أخذها من يدها ودون أن يتحدث معها، كانت تسير معه بطاعة، وبمجرد دخولها المخزن ورؤيتها لهذا الوغد أخفت وجهها بذراع يحيى وهي ترتجف، فقد كانت علامات الضرب واضحة عليه ودماؤه تلطخ ملابسه، وقالت:

«**يحيى، أريد أن أبتعد من هنا، لا أريد رؤيته، أرجوك**».

أما جاسم، فبمجرد أن رآها علم أخيرًا لماذا هو في هذا المكان ولماذا هذا الشرس يفعل به هكذا، ليقول بخوف محاولًا الحديث بصعوبة:

«**لم أقترب منها. والله لم أقترب منها**».

وقف أمامه معاذ، وإذ به يلكمه هو الآخر على وجهه، فكم تمنى أن يفعل ذلك منذ علم بوضاعة هذا المحسوب على مهنة من المفروض؛ أنها من أنقى المهن! فهي تتعامل مع أفضل المخلوقات على الأرض: الإنسان، ولكن للأسف هذا الحقير لا يعرف للإنسانية معنى.

أخرج معاذ هاتفه وشغل كاميرا الفيديو وهو يقول:

«**انطق يا حقير، كم فتاة استغللت مرضها وانتهكتها؟**».

ظل يضربه مساعدو يحيى إلى أن تكلم وهو يصرخ من شدة الألم: «**خمس فتيات، ولكن برضاهن. هي لم أقترب منها، صدقني، أقسم بالله لم أقترب منها**».

ضربه معاذ وهو يقول وقد أصابه القرف: «**لك عين أن تذكر اسم الله يا حقير؟! برضاهن يا قذر؟! تستغل مرضهن وتقول برضاهن؟!**».

تشبثت حنين بيحيى، لا تريد النظر لهذا الحقير، أغلق معاذ هاتفه بمجرد سماع سيارات الشرطة. فقد أخبرهم يحيى بأن جاسمًا قد تهجم عليهم في الشركة لأنهم كشفوا أفعاله المشبوهة مع المرضى، واضطروا إلى حجزه إلى أن تأتي الشرطة.

وبعد سحب رجال الشرطة له، قال معاذ ليحيى: «**هذا غير كافٍ**».

ليقول يحيى بثقة: «**وهل تتخيل أن ما في انتظاره ذلك فقط؟! هناك تحقيقات في المشفى. وتسجيلك الذي سوف ننشره على مواقع التواصل سيفتح تحقيقات أخرى في النقابة. وأهالي الفتيات مؤكد سيعلمون؛ إنه مشفى خاص، معاذ، لن يترك أحد من الناس حقه. لا تقلق، سوف يستيقظ كل يوم على مصيبة جديدة**».

لينظر لها بعد ذلك يرفع وجهها إليه وهو يقول:

«**سآخذ حقكِ حتى لو من الدنيا كلها، وأمام عينيكِ، حبيبتي**».

بعد مرور ثلاثة أيام، وبمجرد أن غادر يحيى إلى عمله، استيقظت حنين وقد قررت كسر الحاجز الذي وضعته سلمى بينهما، فمنذ دخولها المنزل وهي تحاول تجنبها، حتى الطعام لا تأكله في وجودها.

فتحت حنين باب غرفة سلمى بهدوء؛ فمؤكد ما زالت نائمة، فهي لا تحب الاستيقاظ مبكرًا أبدًا، هكذا كانت طوال عمرها. دخلت حنين على أطراف أصابعها، وجلست جوارها، أخذت تنظر

لوجهها بتأمل وهي تحدث نفسها قائلة: «**ما زلتِ بريئة الملامح، سلمى. افتقدتكِ بشدة**».

لتمدد جسدها وتنام بهدوء وكأنها معتادة على ذلك، استيقظت سلمى بعد فترة ليست بالقصيرة لتفاجأ بحنين نائمة بكل بساطة، كادت أن تقترب من جبهتها لتقبلها بتلقائية، فقد افتقدتها بشدة، ولكنها تراجعت تخبط على كتفها وتقول: «**من أتى بهذه هنا؟! يا أنتِ، استيقظي، اخرجي من غرفتي**».

تململت حنين ببراءة وقالت: «**اصمتي، سلمى، أنا أريد النوم**».

رفعت سلمى حاجبيها بتعجب من رد حنين وكأنهما لم يفترقا سنين، قائلة: «**يا أنتِ ما هذا البرود؟! أفيقي، هيا**».

«**هشش.. اتركيني الآن، أخوكِ يزعجني طوال الليل وأنتِ الآن**».

«**أنتِ يا بلهاء، تقولينها في وجهي؟! أفيقي الآن واخرجي من غرفتي**».

قالت حنين وهي ما زالت مغمضة العينين وعلى نفس هدوئها: «**نامي، سلمى. ما الذي أيقظكِ مبكرًا؟!**».

صرخت فيها سلمى وقد نجحت حنين في استفزازها: «**ما هذا البرود؟! والله لو ما قمتِ الآن فسأسكب هذا الماء على وجهكِ**».

قالتها وهي تحمل في يدها كوب الماء الموضوع بجوار الفراش، عندها تحركت حنين فورًا من مكانها واعتدلت في جلستها وهي تضحك:

«**لا لا... أنا لا أريد الاستحمام الآن**».

خبطتها سلمى في كتفها وهي تقول: «**ماذا تفعلين في غرفتي؟! اذهبي إلى غرفتكِ**».

ردت حنين ببساطة: «**تقصدين غرفة أخيكِ**».

ضغطت سلمى على أسنانها بغيظ وهي تقول: «**يا لكِ من متبجحة حقًّا! تقولينها في وجهي. انصرفي من أمامي. أنا لا أريد الحديث معكِ**».

اعتدلت حنين وقد ربعت رجليها قائلة: «**ولكني أريد الحديث معكِ**».

وتحركت تجذب سلمى تحتضنها بعنف وهي تقول:

«**افتقدتكِ، سلمى، وافتقدت حديثنا. أقول لكِ احضنيني أولًا وبعدها نكمل مشاجرة**».

استجابت سلمى ببراءة وضمتها إليها بشوق هي الأخرى وهي تقول: «**حضنًا واحدًا فقط، حنين**».

«**لا مشكلة، واحدًا فقط الآن، والباقي بعد المشاجرة**».

وبعد فترة ضمت فيها الفتاتان بعضهما البعض تارة تبكيان وتارة تضحكان، ابتعدتا أخيرًا، لتنظر سلمى لحنين بتأنيب، فبدأت حنين الكلام قائلة بحزن:

«**لماذا تأخذين مني هذا الموقف؟ ماذا فعلت لتتجنبيني؟!**».

لترد سلمى بقهر: «**ألم تعرفي؟!**».

صمتت حنين قليلًا وكأنها تعلم السبب، ثم قالت:

«**وهل تتخيلين أني سعيدة بأني تزوجت بهذه الطريقة؟!**».

بكت سلمى وهي تقول: «**ألم نحلم بيوم زفافنا؟ تحرمينني أن أكون أخت العروسة وحتى أخت العريس؟! أنتِ دمرتِ الحلمين، حنين**».

أمسكت يدها حنين وهي تبكي قائلة:

«**ليس بيدي، صدقيني. لولا ما فعله يحيى لكنتِ الآن ترتدين الأسود عليَّ. والله، سلمى، لم يكن أمامي حل سوى أن أموت**».

مدت سلمى يدها لتمسح دموع حنين، وهي تقول: «**بعيد الشر عنكِ، حنين**».

بعد قليل هدأت الفتاتان وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنه ببكائهما وإخراجهما طاقة الغضب، انتهى كل شيء. أليس هذا حال معظم الفتيات؟!

نظرت سلمى لحنين بمكر وقالت: «**بما أنكِ سبقتِني بالزواج، أستفيد منكِ أي شيء. هيا، احكي لي**».

نظرت لها حنين باستغراب وهي تقول: «**الآن فهمت ماذا كان يقصد يحيى بـ 'صديقات منحرفات'!**».

قالت سلمى وقد لمعت عيناها بمكر: «**إذًا احكي ماذا كان يقصد**».

«**واضح، سلمى، أني غبت عنكما كثيرًا فعلًا**».

لتقول سلمى بدهشة: «**لماذا؟**».

«**أنتِ وأخوكِ أصبحتما تتمتعان بميول انحرافية**».

انفجرت سلمى ضحكًا وهي تقول: «**لن أتركِكِ إلا عندما أعلم موضوع الانحراف هذا**».

نظرت لها حنين وكأنها تفكر في شيء ما، وقالت: «**سلمى، ما أخبار قلبكِ؟**».

ردت ببساطة: «**كما هو، عزيزتي**».

فقالت حنين بدهشة: «**كما كان لم يتغير؟!**».

«**لم يتغير نهائيًّا**».

ظلت الفتاتان تتحدثان كثيرًا من الوقت، ربما وصل لساعات طويلة، دون أن تشعرا بالملل. فهكذا دائمًا الأصدقاء؛ يمر الوقت بينهم بسرعة ليظل لحديثهم دائمًا بقية لم تنتهِ.

هناك جانب خفي بداخل كل شخص، لا يعرفه أحد سوى المقربين منه، أو ربما حتى هؤلاء يفاجَؤون به في يوم كما لم يعرفوه من قبل!

في مشفى معاذ، دخلت عليه مساعدته باندفاع وهي تقول: «**دكتور معاذ**».

«**ماذا بكِ، سماح؟ لماذا لم يدخل الكشف؟**».

قالت بتردد: «**هناك فتاة عليها الدور، بمفردها، وتريد أن أدخلها آخر كشف**».

فرد بلهجة جدية وقد استفزه الأمر: «**ما هذا الهراء؟ أدخلي من عليه الدور، سماح. منذ متى نتلاعب بأدوار المرضى؟! وماذا يعني بمفردها؟! هيا، سماح، أدخليها**».

قالت سماح بارتباك: «**حسنًا، دكتور... ولكن...**».

«ماذا بكِ، سماح، اليوم؟! ما الجديد؟! ستحضرين الكشف معها كالمعتاد».

«دكتور، هي تريد الدخول بمفردها، و... أنا لا أعتقد أنها مريضة قلب».

قال بنفاد صبر: **«هل شخصتِ الحالة؟! انصرفي، سماح، من أمامي وأدخلي الكشف»**.

خرجت سماح، وعادت لتطرق الباب مرة أخرى بعد لحظات ودخلت ومعها الحالة. وما إن رفع معاذ رأسه عن هاتفه الذي كان منشغلًا به في إرسال رسالة إلى زوجته، حتى ثبت نظره على الفاتنة الواقفة أمامه وقد علم ما بسماح الآن؛ إنها فاتنة فعلًا إلى أبعد حد، رجع معاذ بظهره على كرسيه وقد لمعت عيناه بالابتسامة.

الفصل العاشر

رجع معاذ بظهره على كرسيه ينظر بعينين لامعتين لهذه الفاتنة الواقفة أمامه تتحرك بخيلاء تأخذ العين. ظلت واقفة أمامه بثقة مبتسمة لا تتحرك، وسماح مشدوهة لنظرات طبيبها الوقور الذي لأول مرة تجده ينظر لإحداهن هكذا، حتى ولو كانت تلك التي تقف أمامه كملكات الجمال، ممشوقة القوام كأنها لوحة مرسومة لفاتنة العقول.

تنحنحت سماح لإنقاذ موقف طبيبها وشكله أمام المرضى، وهي تقول: «**دكتور معاذ، الكشف**».

لم يعرها انتباهًا، ولم يحاول إنزال عينيه عن هذه الفاتنة، ليقول لنفسه أينظر لعينيها الواسعتين بزرقة السماء، أم لشعرها الذهبي كشعاع الشمس، أم لهذا الجسد الممشوق، إنها أشرقت عليه كالشمس توقظه من ظلمة ليله وكآبة حياته.

اقتربت سماح تحاول الوقوف بينهما لتمنع نظرات طبيبها المتفحصة والظاهرة بجرأة، ليقول بهدوء: «**اذهبي، سماح، واصرفي باقي المرضى؛ فأنا اكتفيت اليوم**».

قالت سماح بذهول: «**ولكن، دكتور..**».

لم ينزل عينيه عن الواقفة وهو يبتسم ويقف أخيرًا ليتحرك بعيدًا عن مكتبه باتجاهها، فتحركت سماح تجاهه وهي تقول: «**دكتور معاذ، هل بك شيء؟**».

فقال بابتسامة ماكرة: «**أجل، سماح، فهل لا ترين معي من خرجت لتوها من شاشة التلفاز؟!**».

قالت سماح لنفسها بصوت مسموع من شدة الصدمة: «**لقد جن الرجل**».

سمعها معاذ ليطلق ضحكة تكاد تجزم سماح أنها برغم سنوات عملها معه مساعِدةً فإنها لأول مرة تراه يضحك أو حتى يبتسم في وجه إحداهن، إنه لم يكن يرفع وجهه في أي فتاة مهما كانت.

نظر معاذ لمن تقف أمامه، لا يوجد على وجهها أي تعبير سوى ابتسامة هادئة، ليوجه كلامه إلى سماح متسائلًا: «**هل ملأت الحالة استمارة البيانات، سماح؟**».

لترد بعملية: «**أجل، دكتور**».

«**وهل دفعت الكشف، سماح؟**».

«**أجل، دكتور**».

«**هل أخذتِ كشفًا من زوجتي يا سماح؟**».

فقالت سماح مصدومة: «**من؟ زوجتك؟! والله ما كنت أعلم. هي لم تخبرني. أنا أول مرة أراها، دكتور**».

ونظرت لمن تقف أمامها بنفس الثقة والكبرياء مبتسمة، وقالت: «**آسفة، باش مهندسة، والله آسفة**».

ابتسمت لها رحمة مجاملة ولم تنطق.

فرد عليها معاذ ضاحكًا: «**لا عليكِ، سماح، اذهبي الآن**».

ظلت سماح تنظر لرحمة من الأمام والخلف بشكل لافت، لتقول لنفسها بصوت مسموع: «**الآن عرفت لماذا لا ينظر لأي فتاة! إنها كالمشاهير!**».

حاول معاذ عدم إظهار ابتسامته وهو يقول بنبرة صارمة:

«**سماح، هذا أكثر من اللازم. اذهبي واصرفي من بالخارج. هل ستظلين معنا؟!**».

تحركت سماح بحرج لتخرج أخيرًا وتغلق الباب وراءها، فاقترب معاذ من شمسه الواقفة أمامه وهو يبتسم قائلًا: «**ما ذنبهن الممرضات بالخارج لتفعلي بهن هكذا؟!**».

ضحكت وهي تقترب منه بدلال: «**ذنبهن أنهن يعملن مع زوجي**».

ليقول بشك: «**رحمة، ماذا وراءكِ اليوم؟**».

ضحكت لعلمه أن هناك سببًا لزيارتها، وقالت:

«**وماذا تتخيل أن يكون ورائي يا دكتور القلوب؟**».

فقال وهو يحتضن خصرها: «**مؤكد شيء كبير لتتخلي عن ملابسكِ العملية، وترتدي فستانًا كهذا، وتأتي لي العمل لأول مرة منذ فتحت المشفى، لتسحري العيون بهذا الرونق. وواضح أنكِ خرجتِ حالًا من عند مصفف الشعر، رغم أنكِ لا تحتاجين؛ فجمالكِ يسحر العقول، حبيبتي**».

فقالت بثقة ودلال: «**وهل هذه الملابس سيئة أم لا تليق بي؟**».

«**وهل هناك شيء لا يليق بحبيبتي؟! فقط أخشى على نساء الكون من الإحباط**».

ضحكت رحمة ضحكتها التي تأسر عقله، وقالت: «**هل نكتفي غزلًا ونذهب من هنا؟ فصراحة أنا بدأت أخاف من مساعداتك بالخارج**».

واقتربت من أذنه وهي تقول: «**أنا شعرت أنهن سوف يأكلنني**».

عبس وجهه أمام كلامها ليرد عليها بنفس الطريقة: «**لا، مستحيل أن يأكلكِ غيري**»، ثم ضحك وهو يكمل: «**هيا بنا، فأنا صراحة لا أعلم كيف ستمرين أمامهن مرة أخرى. هيا يا معذبتي**».

وبمجرد أن خرج من غرفة الكشف وبجواره زوجته، وجد كل العيون مسلطة عليهما كأنهما يمران على السجادة الحمراء في أحد المهرجانات الدولية. وبعد عدة خطوات، وقف فجأة ونظر إليهن وقال بنبرة جادة:

«**هل ستمضين اليوم هكذا؟ هيا، كل واحدة إلى عملها**».

تحركت الممرضات وما زالت عيونهن عليها، لتهمس رحمة له وهي تسير بجواره:

«**هل تعتقد أنها غيرة مني أم عليك، حبيبي؟**».

ضحك قائلًا: «**حقيقة لا أعلم**».

وبعد وقت قصير، في أحد المطاعم الفاخرة القريبة، الذي حجزت فيه رحمة سابقًا استعدادًا لهذا اللقاء، قال معاذ بفضول:

«**واضح أنكِ رتبتِ كل شيء. وأنا زاد قلقي من القادم**».

قالت بابتسامتها الساحرة وهي تضع رجلًا على الأخرى بثقة: «**لماذا يا دكتور؟**».

«**لأنكِ يا باش مهندسة عندما تريدين أمرًا تقررين ويصبح متوقفًا على الإمضاء فقط. دون أن تتركي وراءكِ خطأً أو ثغرات**».

ضحكت بثقة وهي تقول: «**دعنا نطلب الطعام أولًا، وأخبرك ونحن نأكل**».

«**أرهقتِني يا فتاة. ما رأيكِ أن نأخذ الطعام للمنزل؟ صراحة زوجكِ انهار بين يديكِ**»، وغمز لها من تحت نظارته كالعادة.

فقالت له بدلال: «**بل أنت المُهلك، حبيبي**».

وأكملت حديثها لتقول: «**هل لو أنا أضمنك في منزلنا كنت فعلت كل هذا؟!**».

بعد قليل دخل عليهما النادل بالطعام، وبعد أن انتهى من وضع الأطباق وانصرف، بدأ معاذ بالأكل، ليجدها ومع أناقة الشوكة والسكين بيديها بدأت بالكلام وهي تأكل، وكأنها تلقي محاضرة في إحدى قاعات المؤتمرات الهامة بكل سلاسة:

«**بداية، معاذ، أنت تعلم جيدًا أني مستحيل أن أنجب**».

حاول قطع كلامها، ولكنها أشارت له بالسكين بتهديد أن يسكت وهي تبتسم قائلة:

«**لا تقاطعني من فضلك**».

وضعت الطعام بالشوكة في فمها وأكملت: «**انفصالي عنك، معاذ، أنا وأنت نعلم أنه درب من الخيال. فدعني أعرض عليك هذه الدراسة**».

ترك معاذ الملعقة من يده وقال بدهشة: «**ماذا؟ دراسة؟!**».

كانت مستمرة في الأكل بطبيعية شديدة وأناقة لا مثيل لها، لتكمل:

«معاذ، أنا أكثر من يعرف كم تمنيت أن يصبح عندك طفل، أن يصبح عندك أسرة وأبناء من صلبك. أنا حاولت البحث عن أي أمل حتى لا أدمر ما رسمناه معًا. أعلم أنك – لكونك طبيبًا – تعلم جيدًا أن أمر الحمل بالنسبة لحالتي منتهٍ. أنا لم أكن أبحث عن أمل، أنا لست جاهلة حتى لا أستوعب ذلك، كنت أقوم بكل الخطوات الواجب اتباعها حتى آخذ بالأسباب وآخذ القرار السليم».

قاطعها قائلًا: **«رحمة، حياتنا ليست مشروعًا قائمًا على دراسة جدوى»**.

أكملت كلامها بعملية: **«معاذ، نحن فعلًا سعيدان معًا، ومتفاهمان، أنا أعلم ذلك جيدًا. ولكن مع الوقت ستزيد حاجتك لطفل، أنت طبيب ناجح، من عائلة لها اسمها؛ ستحتاج من يحمل اسمك ويرث مالك. لن أنسى أبدًا عندما كنت أبحث عن عمل لأجدك تشارك يحيى من أجلي لأصبح صاحبة شركة. لا أعتقد أن ما فعلته من الممكن أن يفعله أي رجل بسهولة؛ أنت من صنعت نجاحي، أنت من صنعت من جاءت لك اليوم بثقة تلفت الانتباه؛ فهل بعد كرمك هذا أبخل أنا عليك بسعادة أنت تستحقها؟!»**.

قال معاذ الذي لم يضع أي شيء في فمه عكسها تمامًا وكأن الكلام قد فتح شهيتها على الأكل: **«هل كان لا بد من كل هذه المقدمات؟!»**.

«لا، أبدًا. أنت تعرفني، لا أحب تضييع الوقت في مقدمات بلا فائدة، ولكنه كلام في قلبي أردت أن يخرج في هذه اللحظة. ندخل في المهم، دكتور معاذ».

قالت آخر جملة لها، وأدركت أنها بدأت التأثر، فحاولت العودة لمظهرها الواثق مرة أخرى، لتصدمه أكثر قائلة: «**أنت ستتزوج من تكمل سعادتك الناقصة**».

خلع نظارته ووضعها جواره وهو ما زال لا يصدق ما قالته للتو؛ فقد اعتقد أنها ستطلب الطلاق، كان الأمر سيصبح منطقيًّا أكثر بالنسبة له كرجل، ليقول بصدمة:

«**أخَرجتِ متألقة هكذا من صالون التجميل، وفُتحت شهيتك بهذا الشكل، لتطلبي من زوجك أن يتزوج؟! أجننتِ، رحمة؟ أم أصابتكِ البلاهة؟!**».

أكملت كلامها وكأنه لم يقل شيئًا: «**انظر للموضوع نظرة أبعد من هذه الطاولة، معاذ؛ من ستتزوجها تستحقك. وصراحة، أنت تستحقها**».

ضحك بدهشة غير مستوعب ما تقول: «**أنتِ اخترتِها أيضًا! ما شاء الله!**».

«**بالطبع، معاذ. وهل تعتقد أني سأنتظر اليوم الذي أشعر فيه أنك خنتني، أو بمعنى أدق – لا داعي لكلمة 'خيانة'؛ أنا أعلم أنك لست بشخص خائن– سنقول 'تزوجت'، دون علمي؟! هذا اليوم سيأتي، معاذ، ليس الآن أنا واثقة من ذلك، ولكنه سيأتي ولن تخبرني؛ لأنك لن تجرح مشاعري**».

قال مصدومًا: «**ما هذا، رحمة؟ أنتِ وضعت قصصًا وأفلامًا، ونهايات أيضًا!**».

أكملت بهدوء: «**نوفر على نفسينا كل ذلك، ولا داعي لتضييع الوقت ولا العمر. أنت تستحق الزواج بأخرى وأنت في عز رونقك وشبابك؛ فما الداعي للمغامرات والانتظار؟**».

رفعت شوكة الطعام إلى فمها بهدوء مستفز أمام ذهوله وهي تكمل:

«**سلمى تستحقك، بالإضافة إلى أني أعلم أنها تُرضي ذوقك**».

وقف مكانه مصدومًا وهو يقول: «**سلمى؟! سلمى من؟ ماذا تقولين يا مجنونة؟!**».

قالت بهدوء: «**اجلس، معاذ، ودعني أكمل طعامي، واسمعني للنهاية. أنت أحق بها؛ إنها فتاة مميزة، جذابة، تملك ما ليس بي، بريئة، رومانسية، حالمة. أي أننا سنكمل بعضنا البعض، وستعيش أنت في حياة ممتعة، صدقني**».

جلس وقد فتح فمه واتسعت عيناه من شدة الصدمة وهو يقول: «**أنتِ جننتِ. مؤكد أصابك شيء. تختارين زوجة لزوجك، أخت صديقي، لأتزوجها عليكِ! قومي معي، رحمة؛ مؤكد أنتِ محمومة**».

لم تتحرك من مكانها، ونظرت له وهي تضحك قائلة: «**اجلس، معاذ، وخذ الموضوع ببساطة، ودعني أكمل كلامي**».

لتأخذ نفسًا عميقًا وتستطرد قائلة: «**أنا لم أغَرْ من فتاة بحياتي، أنت تعلم ذلك. ولكن ما لا تعلمه أن سلمى هي الوحيدة التي أصابتني بالغيرة؛ دائمًا كنت أشعر أن نظراتها لك مختلفة، أعلم أنها تحبك، وواثقة أنك تعرف ذلك؛ أنت لست ساذجًا**».

ظل معاذ صامتًا مصدومًا أمام كلماتها لا يستطيع الرد، فأكملت:

«**وربما كان حبها لك من قبلي؛ فأنت في حياتهم منذ طفولتها. وصراحة، أنا إحساسي يخبرني أنها ستوافق، وإحساسي لم يَخِب من قبل أبدًا**».

هز رأسه بعدم تصديق قائلًا: «**ما هذا الذي تقولينه؟!**».

أكملت بهدوء وكأنها لم تنتبه لردود فعله: «**معاذ، حتى أنت نظراتك لها مختلفة، ومحاولاتك تجنبها تؤكد ظني، تصرفاتك هذه معها منذ عرفتك، وربما تجنبك لها هذا لنفس السبب الذي وصلني**».

ظل مصدومًا من تخمينات زوجته، وقال بصعوبة:

«**أنا لا أريد أن أفعل أي شيء الآن إلا أن أكسر رأسك لأعرف ماذا يحتوي بالداخل**».

ضحكت وحاولت عدم استفزازه وأكملت: «**صراحة، معاذ، الفتاة لم تحاول أبدًا أن تثير شكي أو غيرتي. دائمًا هي راقية. لكن... الصب تفضحه عيناه. لذلك أنا أخبرك أنها مناسبة. معاذ، احسبها بعقلك، ولا داعي لهذه الحساسية. هي رقيقة وتستحق**».

ظل ينظر إليها وما زال مدهوشًا، ليجدها تكمل قائلة:

«**إنها جميلة، مبهجة، تكاد تكون كالفراشة؛ ستنقلك معها بين الفصول. معاذ، أنا شيء، وهي شيء آخر؛ فأنا قطة، وهي فراشة رقيقة؛ ستصبح حياتك ممتعة**».

ظل مشدوهًا من مدى هدوئها وبرودها وسلاسة الحديث الذي تكمله ببساطة متناهية وهو يقول: «**مجنونة! مؤكد أنتِ لست طبيعية!**».

فقالت ببساطة وهي مبتسمة: «**إذًا لم تعجبك نظرية الفراشة والقطة؛ ما رأيك في الفاكهة؟ سأجعلك تتذوق نوعًا مختلفًا، أعدك بذلك. وهذا لصالحي أنا أيضًا**».

شعر للحظة أنها لا تعي ما تقول، أو فقدت القدرة على السيطرة على حديثها، لتكمل وهي تشير إلى الطاولة أمامها قائلة:

«**تخيل هذا الطعام الذي أمامنا؛ لو هو صنف واحد فقط فستفقد متعة التذوق والتنقل بين طعم وآخر. هذا بالضبط ما سيحدث؛ فأنا بنكهة الأناناس الاستوائي المنعشة، أما هي فبنكهة المانجو. تخيل ماذا يحدث وأنت تأكل المانجو. حتى الشكل؛ أنا أشبه الأناناس برونقه، انظر كيف يوضع في المتاجر يشد الأنظار إليه!**».

لتشير إلى نفسها قائلة: «**بالطبع أنا أعرف قدر نفسي**».

وتكمل ببساطة: «**أما هي، فكالمانجو الطازجة برائحتها التي تجذبك لأكلها**».

نظرت له تريده أن ينتبه معها، وحركت يدها أمام وجهه المصدوم وهي تقول: «**معاذ، تخيل معي. ما بك؟ ركز معي قليلًا**».

فقال وقد وصل لمنتهاه من الصدمة والاستفزاز: «**كيف لأنثى أن تقول هذا الكلام عن أخرى أمام زوجها؟! أنتِ لستِ إنسية. أليس كذلك؟ أنا متأكد أنكِ أنثى، ولكن واضح أنك لست أنثى بشرية فعلًا. أنا كنت أشك في ذلك**».

أطلقت ضحكة تصيب العقل وهي تقول: «**هذا ما أريده أن يصل إليك؛ ليست الجنيات كبعضها البعض. وأنت سيصبح عندك جنيتان**».

وقف مكانه ليلبس نظارته ويحمل هاتفه ومفاتيحه، وجذبها من ذراعها بعد أن وضع حساب الطعام وهو يقول: «**قومي معي. يكفي هذا الهراء**».

خرج بها وهو يجذبها بعنف وأدخلها السيارة وصفع الباب بقوة وراءها، وقف قليلًا يأخذ أنفاسه قبل أن يدور حول السيارة ليركب أمام عجلة القيادة دون أن يتكلم، ولكنها لم تتعود الصمت:

«**معاذ، والله لو تخيلت معي كيف تأكل الأناناس والمانجو فستفهم وجهة نظري. أنا أعلم أنك تحبهما**».

«**اخرسي، رحمة**».

قالها دون أن ينظر إليها، فقط كان يحاول التركيز في الطريق.

بدأ صوتها يهتز قليلًا وهي تقول: «**ستصبح كل منا بعيدة عن الأخرى، مستقلة بحياتها؛ ما المشكلة في خوض هذه التجربة؟ أنا واثقة من نجاحها**».

«**اصمتي إلى أن نصل المنزل. لا أريد سماع صوتك**».

عندما وجدته بدأ يفقد أعصابه وزاد من سرعة السيارة، فضلت الصمت.

وبمجرد دخولهما المنزل، وقبل أن تتحدث بأي كلمة، وجدته ينظر لها نظرات أخافتها. لأول مرة تشعر بالخوف من رد فعله، لأول مرة لا تتوقع ماذا يمكن له أن يفعل. بلعت ريقها وحاولت الصمت وعدم الهروب من أمامه، وجدته يخلع سترته ويرميها بعنف، ويفك أزرار قميصه. في أي وقت آخر كان من الممكن أن تعرف ماذا يريد، ولكن هذه المرة عجزت عن التوقع، أو بالأحرى لم يعطِها

الفرصة وهو يتجه ناحيتها بعنف وجمود مخيف مختلف عن طباعه الهادئة وشخصيته الواضحة، ولكنها تعلم جيدًا أنه لو فقد السيطرة على أعصابه فهي أول النادمين.

الفصل الحادي عشر

أن تضحي، فهذه قمة الإنسانية والحب، وخاصة عندما يكون مَن تضحي من أجله يستحق. التضحية سلوك سوي إذا كان لا يضر بك كإنسان، رغم أنهم يطلقون عليها أحيانًا سذاجة. ورغم أن هناك من النفوس الحقيرة من يستغل خصالك النبيلة، فإن عقلك يبقى لديه القدرة على اختيار من يستحق التضحية. ولكن هل يستطيع الإنسان أن يضحي بمن يحب بسهولة؟ بالطبع لا، أو ربما ليس الأمر سهلًا. ولكنه يمكن أن يضحي بجزء من حقوقه في هذا الحب من أجل حبيب يستحق. أليس هناك تبرع بالأعضاء؟ ألا يوجد من يتبرع بجزء من جسده لحبيب أو قريب غالٍ من أجل إنقاذ حياته؛ فهو لا يتصور الحياة من دونه؟ هذا ما يحدث هنا بالضبط؛ أن تتبرع بجزء منك، حتى ولو كان معنويًّا، حتى ولو كان جزءًا من الحب.

لأول مرة تشعر رحمة بهذا الشعور تجاه معاذ، تخشاه وتخاف رد فعله، اتجه ناحيتها بجمود واضح عليه، تخيلت كل ردود الأفعال بعدما تخبره ما تفكر فيه، ولكن هذه المرة فشلت، أو ربما لأن الأمر مختلف. تفاجأت به يتجه إليها، يجذبها من ذراعها بعنف، لينزع سترتها ولم يهمه تمزق ملابسها، وهي تحاول تهدئته:

«**معاذ، اهدأ. ماذا تفعل؟!**».

لتجده يحملها بكل عنف ويدخل بها دورة مياه الغرفة، ليفتح الماء البارد عليها لتصرخ به: «**معاذ، الماء بارد. أنا لست محمومة، معاذ**».

وكلما أرادت الابتعاد، تجده يمنعها بعنف:

«**حَذارِ الخروج من تحت الماء. ستندمين**».

صرخت فيه تحاول إبعاده، ولكنه تعامل بقسوة وهو يقول:

«**واضح أنكِ قررتِ أن تُخرجي أبشع ما بداخلي**».

ارتجفت بين يديه تحت الماء، فقد كان الجو باردًا وهي تقول: «**معاذ، سأمرض**».

«**وهل أنتِ سليمة؟!**».

ابتعد عنها وهو يقول: «**حَذارِ التحرك**».

أخذ بيده روب الاستحمام الخاص به ليرتديه، وأخذ ينظر إليها وهي ترتجف، إلى أن رق قلبه عليها، فقد بدأت تضعف فعلًا، ضمها إليه وألبسها الروب الخاص بها وحملها وخرج بها إلى الفراش وألقاها عليه بعنف. لأول مرة منذ تزوجها يتعامل معها بهذا الشكل، ظلت ترتجف وهو جالس جوارها لا يحاول الحديث، كان يشاهدها بجمود، إلى أن بدأت تهدأ، لتتفاجأ به يصيح قائلًا:

«**هل جربتِ إحساس الثلج الآن؟ هل شعرتِ كيف يكون البرود يا باردة؟ بكل برود تختارين لي عروسًا وتُقنعينني بها. هل هذا حب؟! أين الحب، رحمة؟ أين الغيرة؟ أين إحساسكِ كأنثى؟ كيف أشعر بكِ أنا بعد ذلك وأنتِ بكل هذا البرود تفرطين في حقكِ وتصفين لي أخرى؟**».

تحرك وأخذ ثيابه ليخرج من الغرفة صافقًا الباب خلفه، لينام لأول مرة منذ تزوجها خارج غرفتهما.

خرج يحيى وحنين من عيادة الطبيبة النفسية التي أوصى بها معاذ؛ فقد كانت إحدى زميلات الدراسة، وقد حدد معها ميعادًا لحنين، وبالطبع بعد أن أخبرها طبيعة حالتها وما مرت به.

ركبت حنين السيارة بجوار يحيى الذي ظل بانتظارها ولم يتحرك طوال مدة الجلسة، ليقول بمجرد ركوبها وقد استعد لقيادة السيارة: «**ما الأخبار؟ هل ارتحتِ معها؟**».

«**أنت مصمم على هذا المشوار، يحيى. أنا أشعر أنني أفضل ما دمت معك، منذ أن عدت بينكم أنا لا أحتاج إلى شيء، صدقني**».

ليقول بجدية محاولًا التأثير عليها: «**دعينا نتفق، حنين، أنكِ كنتِ تعانين من مشكلة ما – وأنتِ معترفة بذلك –؛ لا بد من المتابعة فترة. أنتِ كنتِ تأخذين أدوية وأوقفتِها دون استشارة طبيب، من عدة أيام كنتِ تعانين من كوابيس وإلى الآن ترفضين إخباري بها. هناك أمور كثيرة لا بد من مراعاتها لأجل صحتكِ، حنين**».

«**أنا لا أريد تضييع وقتك معي، وتنتظرني بالخارج كل هذه الفترة**».

«**أنتِ تبحثين عن مبرر تُقنعين به نفسكِ وتُقنعينني به، حنين. إنها مرة كل فترة، ماذا سيضيع فيها من وقت؟**».

قالت وقد بدأت تيأس من إقناعه: «**أنا لم يعجبني الأمر اليوم. أهذا غير كافٍ؟**».

رد عليها مبتسمًا: «**هل أخذتِ حكمكِ من أول مرة؟! أخبريني أولًا، ماذا قالت لكِ؟**».

ردت وهي تنظر بعيدًا عنه: «**لم تقل شيئًا مهمًّا**».

مد يده إليها ليدير رأسها إليه ويمسك عجلة القيادة باليد الأخرى وهو يقول:

«**هل مقتنعة بما تقولين؟ ومن المفترض أن أقتنع؟!**».

ردت وهي تدرك أنه لن يستسلم: «**يحيى، هي سألتني إن كنت أعاني من الأرق وعدم النوم لكي تعطيني دواءً لذلك. وأنا أخبرتها أني من يوم زواجنا أنام بسهولة، ولا أحتاج إلى دواء. أنا لا أريد هذه الأدوية التي تجعلني كالمغيبة**».

ضحك يحيى بشدة ونظر إليها وهو يقول: «**وما كان رد فعلها على هذه الوصفة السحرية؟**».

ابتسمت حنين وهي تعلم مقصده، ومع ذلك قالت: «**أبدًا، ضحكت وقالت لي: 'نحن هكذا لا نحتاج مهدئات ولا منومات، نحن نحتاج أن نرى الأستاذ يحيى المرة القادمة'!**».

ابتسم وهو يغمز لها وقال: «**وهل هي جميلة؟**».

لتقول بضيق: «**ماذا؟!**».

ليرد عليها سريعًا وهو يضحك: «**أبدًا، أنا أريد أن أطمئن على طبيبتك ومستقبلها بعد حديثك معها. مؤكد تحلم الآن بهذا المنوم**».

«**يحيى، احترم نفسك. أنا أساسًا أخبرتها أنك لا تحب حضور هذه الجلسات ولا تريد أن تدخل معي**».

أكمل كلامه يشاكسها باستمتاع: «**تكذبين على طبيبتك من أول جلسة، حنين؟! هل خفتِ أن تكتبني مع المهدئات لباقي المرضى؟**».

ردت عليه بغضب: «**أنا أخطأت أني أخبرك بشيء حتى تستفزني هكذا**».

أوقف يحيى السيارة جانبًا، وجذب يدها إلى فمه ليضع قبلة أطاحت بها وهو يقول: «**أمزح معكِ، حبيبتي. أنتِ تعلمين أني أحب مشاكستكِ. ولكن واضح أن الأمر يزعجك عندما يكون له علاقة بالغيرة**».

حاولت شد يدها، ولكنه رفض ليقبلها مرة أخرى وهو يقول:

«**أنا لا أصلح أن أكون مهدئًا إلا لابنة عمي فقط. لا تخافي**».

وضع يدها لترتاح على رِجله، وقاد السيارة مرة أخرى، ولم تحاول هي إبعاد يدها عنه.

صباحًا خرجت رحمة من الغرفة وهي ما زالت على إصرارها، وجلست جواره على الأريكة التي كان ينام عليها وقد استيقظ مبكرًا أو ربما لم ينم من الأساس. وبدأت تتحدث بنفس الطريقة، ولكن هذه المرة كانت كرامتها تجرحها أكثر من أي شيء، لتقول بصمود دون أن تنظر إليه: «**أنت إن لم تتزوج اليوم فسوف تفعلها يومًا ما. هل كل ما يوجعك الآن أن يكون الأمر بعلمي وموافقتي؟ هل سأصبح من وجهة نظرك لست باردة لو فعلتها من ورائي كأي رجل يتزوج دون علم زوجته؟ هل هكذا ستشعر بالنشوة والتميز مثل باقي الرجال؟ وهل لو علمت أنا بعدها وسكتُّ عن الأمر فسأصبح زوجة عاقلة؟!**».

رد عليها بجمود: «**أنتِ مصممة على ضرب الحديد وهو ساخن**».

حاولت السيطرة على ارتجاف صوتها، وألا تظهر منكسرة أمامه، لتقول: «**معاذ، اعتبرها تجربة قابلة للنجاح أو الفشل. إن نجحت فأنت الفائز بكل شيء، وإن فشلت فسيكون الفشل لي وحدي؛ لأنك وقتها ستكون قد كونت أسرة ومعك زوجة لا ينقصها شيء، وبمجرد أن يصبح عندك طفل لن يكون هناك داعٍ لوجودي في حياتك**».

نظر لها بعصبية وهو يقول: «**خططتِ، وتخيلتِ، وزوجتِني، وفي الأخير أنجبت وأصبح عندي أطفال، وأيضًا أصبح لا داعي لوجودكِ في حياتي. إلي أي مدى وصلتِ من الخيالات؟! هل تدخلين في مشيئة الله؟ هل تضمنين أن أنجب من غيركِ؟**».

ليجدها ترد عليه بكل هدوء: «**أنت فقط توكل على الله. اسعَ، معاذ. والله يفعل ما يريد، فأنا أعي ذلك جيدًا. ولا تخف؛ وقتها سأستطيع تدبير حياتي جيدًا أنا الأخرى**».

أمسك ذراعها بعنف وهو يقول لها: «**يا لكِ من غبية حقًا! ألا تعين ما تتفوهين به يا حمقاء؟**».

ردت عليه وأنفاسها بدأت تتسارع: «**حياتنا، معاذ، كما قلت من قبل باردة، أنا كما وصفتني باردة، وإن كنت تريد الحقيقة فأنت أيضًا بارد معي؛ رضيت أن تعيش في روتينية مملة، حياتنا أصبحت محفوظة وخطواتنا معروفة، ربما لو كان بيننا طفل لكانت الحياة ليست هكذا. أنا أردت أن أحرك هذا السكون قبل أن يقتلنا، قلت لك ستختلف حياتك، وأنا إن لم تختلف حياتي بعدها فمن حقي وقتها أن أبحث أنا الأخرى عن من يخرجني من هذا الملل الذي أعيشه**».

بدأت تفقد السيطرة على كلامها وكأنها لا تعي ما تقول. وإذ به ينهض من مكانه يجذبها من شعرها بعنف باتجاه الغرفة وكأنه تحول إلى إنسان آخر لا يعرف سوى الهمجية، يقول لها صارخًا:

«**وهل بالمرة اخترتِ نوع الفاكهة التي تريدين تذوقها؟ تتحدثين عن زواجك بآخر أمامي؟! ألهذه الدرجة أوصلكِ عقلكِ؟ أم تخيلتِ أني سأظل صامتًا أمام غروركِ؟**».

وصل من الغضب أقصى مراحله ولم يعِ هو الآخر ما يفعل؛ عندما يتعلق الأمر بنخوة الرجل الشرقي يخرَج الأمر عن السيطرة، لتبكي لأول مرة أمامه منذ زمن. رماها بعنف على الفراش لتفاجأ به يذيقها أشد أنواع العنف الجسدي، لم تتخيل يومًا أن يفعل معها هكذا، ولم يتخيل هو أن يكون معها بهذا العنف، هي من سكنت عقله وقلبه وكيانه، لكنه لم يستطع تخيل ما تفوهت به أو حتى أن يكون مر بعقلها، تتزوج غيره؟! وأمام بكائها وتوسلاتها له لأول مرة: «**يكفي، معاذ، يكفي**»، ابتعد عنها قائلًا وهو يلهث: «**إذا كان هذا الأمر هو الذي سيجعلكِ تبكين كأي أنثى في الدنيا، فأنتِ من اخترتِ. هل الآن لا تشعرين بالبرود؟! ما رأيكِ الآن؟ أتمنى أن تكوني قد جربتِ نوعًا جديدًا**».

ابتعد عنها بعد أن أشفق على جسدها وما أصابه، وقبل أن يتحرك أمسكت يده وهي تحاول الجلوس ولم يهمها ما أصابها، وقالت له بصعوبة وهي تبكي:

«آسفة، لم أقصد ما وصل إليك. لم يأتِ ببالي ولو فكرة، كل ما أنا فيه بسبب أني لا أتخيل حياتي من دونك. أنت تعلم أن عينيَّ لا تعرفان سواك».

مسحت دموعها بيدها وهي ما زالت ممسكة به باليد الأخرى.

«تعرف أني لا أجيد الحديث إذا لم أرتب أفكاري. سامحني».

جذبها بين ذراعيه وقبَّل رأسها قائلًا: **«لماذا، رحمة؟ كيف أوصلتِني إلى ذلك؟! سامحكِ الله. لمَ كل هذا الاستفزاز بالله عليكِ؟!»**

تركها وقام ليفتح أحد الأدراج، وأخرج أنبوب مرهم ودواءً مسكنًا، ليعطيها الدواء، وناولها كوب الماء الموجود بجوار الفراش؛ فهو يعلم ما فعل بها جيدًا، وفتح المرهم وأخذ يدهن مكان الكدمات التي سببها لها وهو يقول:

«كنت أشك أن عندك دماء، رحمة».

ضحكت وهي تمسح دموعها وتقول: **«ودموع، معاذ. هل رأيت؟»**.

أخذ نفسًا عميقًا وقال: **«سامحيني. أول وآخر مرة. سأمرن نفسي على كظم الغيظ وكبح جماحي أمام جنونكِ من الآن»**.

لتقول بابتسامة حزينة: **«هل معنى ذلك أنك واثق أني لن أتراجع؟»**.

«مؤكد ما دام ظهر عليكِ هذا الجنون فلن يختفي بسهولة».

لتقول بتأكيد وما زال ذراعها في يده: **«ولكنه ليس جنونًا، معاذ»**.

«وهل له اسم آخر؟».

«**نعم، إنه عشقك الذي أوصلني إلى الهذيان**».

جذبها له وأغمض عينيه بشدة بعد كلماتها له. آلمه أن يفعل بها ما فعل ويكون ردها هذه الكلمات، ولم يعد يستطيع قول شيء سوى «**سامحيني**».

لتقول بارتباك: «**حقق ما أريده معاذ. اعتبرها أمنية لمحكوم عليه بالإعدام**».

ليقول بأسى: «**هكذا سيكون تعذيب رحمة، وليس رصاصة الرحمة**».

اعتدلت تنظر إليه بترجٍّ ودموعها تنهمر وكأنها وجدت أخيرًا طريقها وهي تقول:

«**معاذ، هي الوحيدة التي لن تجعلك تبتعد عني، هي راقية، أصيلة. أنا وأنت نعرف ذلك جيدًا. لن نُدخل أحدًا غريبًا بيننا. إنهم عائلتنا، أنا وأنت لم نعرف سواهم، لن يبعدوني عنك؛ فيحيى أخي، لن يرضى لي شيئًا يضرني. هي تكمل ما ينقصني، هي غيري، لن تغنيك عن وجودي بحياتك**».

أخذ نفسًا عميقًا ولم يتكلم؛ فقد أصبح لا يعرف كيف يتصرف وهي تحاول بشتى الطرق السيطرة على عقله، كيف لها بعد ما فعله معها أن تتحدث بهذه الطريقة؟ اعتقد أن عقابها هكذا سيمنعها عن الحديث في هذا الأمر مرة أخرى، ليقول بتجهم:

«**تعرفين دواخلي جيدًا، رحمة. أصبحتِ كالأم التي تعرف مفاتيح ابنها**».

ردت ولم تعد تستطيع السيطرة على ارتجاف صوتها: «**أنت تعلم أني لو ما بيننا بسيط لما كنت جلست بين أحضانك مرة أخرى، معاذ، بعد ما فعلته بي الآن؛ فأنا لست بهذا الضعف. ولكن اعتبر موافقتك هذه الآن ترضية لي عمَّا فعلته**».

ضحك بأسى وهو يقول: «**تحسنين استغلال المواقف، رحمة**».

أمسكت الهاتف أمام نظراته المصدومة من سرعة ردود أفعالها، واتصلت برقم سلمى وأعطته الهاتف. تردد مصدومًا ولم يعرف ماذا يفعل عندما سمع صوت الأخرى تجيب عبر الهاتف، بلع ريقه وهو يقول:

«**أهلًا، سلمى، كيف حالك؟**».

قالت بدهشة: «**معاذ؟! أهلًا، دكتور. الحمد لله، بخير**».

صمت فترة دون أن يستطيع الكلام، فقالت: «**معاذ، هل هناك شيء ما؟**».

تكلم بصعوبة وهو يحاول أخذ أنفاسه:

«**نعم... نعم، سلمى، أريد مقابلتكِ؛ هناك أمر أريد التحدث معكِ فيه**».

«**هل هناك مشكلة ما؟**».

«**لا، فقط الموضوع لا يمكن التحدث فيه عبر الهاتف. ما الميعاد المناسب لكِ؟**».

لتقول بارتباك: «**أنا الآن في النادي إن تحب الآن... أو غدًا، لا مشكلة**».

أشارت له رحمة بـ «**الآن**»، فقال بصعوبة: «**سآتي لكِ الآن، سلمى**».

أغلق الهاتف وقد أغمض عينيه، ولم يقل سوى: «**جنون... هذا جنون**».

ليتفاجأ وهو مغمض بقبلتها على شفتيه، طالت قبلتها وتجاوب معها، فكم كان يحتاجها ليوقف عقله وعقلها عن التفكير لحظات.

وبعد أقل من ساعة، وبعد أن ساعدته رحمة في ارتداء ملابسه كالعادة وهي تحثه على السرعة لأن الفتاة تنتظره، وقد كان مرتبكًا لأول مرة في حياته بهذا الشكل لا يعرف ماذا يفعل؛ وقف في النادي ينظر لها من بعيد يحاول ترتيب كلامه؛ من أين يبدأ؟ وكيف؟ ومع اقتراب خطواته لها، كان يحاول تأملها لأول مرة بهذا الشكل. دائمًا ما كان يضع في حساباته صداقته ليحيى وحرمة منزل صديقه، والدته التي يعتبرها أمًّا له، فهي أعز صديقات والدته – رحمها الله –، لم تعامله إلا كابن آخر لها.

وإذا به، ومع تركيزه لأول مرة بها، وجد نفسه يبتسم عندما تذكر وصف رحمة لها بالمانجو!

الفصل الثاني عشر

وقف أمامها بابتسامته المعتادة معها ليقول: «**أهلًا، سلمى**».

«**أهلًا، دكتور. كيف حالك؟ تفضل**».

جلس معاذ بهدوء ليضع على الطاولة مفاتيحه وهاتفه، يحاول إعطاء نفسه برهة من الوقت يجمع بها أفكاره، لتقول سلمى:

«**صراحة، عندي فضول لأعرف ما الأمر الذي جعلك تتكرم بالسؤال عني**».

تكلم بصوت رخيم: «**دائمًا أطمئن عليكِ من يحيى. هل تشربين شيئًا؟**». قالها محاولًا تغيير طريقة الحوار، لترد قائلة: «**صراحة، أنا هنا منذ فترة. ولكن الآن أحتاج إلى فنجان من القهوة**».

طلب معاذ من النادل فنجانين من القهوة، وظل صامتًا وقد أمسك بمفاتيحه يحركها بيده وكأنه يشغل نفسه بها دون النظر إليها، فقالت:

«**ما الموضوع، معاذ؟ أراك على غير طبيعتك**».

«**عذرًا، سلمى. أنا فعلًا لا أعرف كيف أبدأ معكِ الحديث**».

انتبهت له بشدة وقد أدركت أن الأمر أكبر مما تخيلت، فقالت:

«**تحدث، معاذ. أنا لست غريبة؛ نحن عشرة عمر. أليس كذلك؟**».

ليأخذ نفسًا عميقًا زافرًا إياه وهو يقول: «**وهذا هو سبب ترددي... لا أطيل عليكِ ولا على نفسي... سأقول ما أريده مرة واحدة، وأرجوكِ لا تتسرعي في الرد، وأعطيني فرصة دون مقاطعة**».

كان يتجنب النظر لها، فقالت له: «**تحدث، معاذ. أنا بدأت أتوتر أنا الأخرى**».

نظر لمفاتيحه ولم يرفع رأسه لها طوال حديثه وهو يقول: «**بداية، يجب أن تعلمي أن ما سأقوله الآن بمعرفة رحمة، أو بمعنى أدق هي صاحبة هذه الفكرة من الأساس. من دون مقدمات، أنا... أعرض الزواج عليكِ، سلمى**».

قالها بسرعة ورجع بظهره على الكرسي ليأخذ نفسًا عميقًا. ولكن صمتها جعله ينظر لرد فعلها، ويا ليته لم يفعل! فقد كانت مصدومة، ظهرت الدموع في عينيها، فأكمل حديثه ليرحمها: «**رحمة ترى أن حياتنا متوقفة على موافقتكِ هذه. من المؤكد أنكِ تعلمين مشكلتها مع الإنجاب. موضوع زواجي بالنسبة إليها أصبح أمرًا محتمًا، وإلا فستنتهي حياتنا معًا**».

كادت أن تتحدث، لكنه رفع يده لها ليكمل: «**أعلم ما تريدين قوله. لا داعي للتسرع. أنا صريح معكِ لأبعد حد.. لا أريد عرض الأمر عليكِ بأن أخدعكِ، فأنتِ لا تستحقين مني ذلك، أنتِ غالية عندي. وما دمت رضيت لكِ ولي هذه الجلسة، فيجب عليَّ أن أصارحكِ. اعذريني فقط لو أن كلامي غير مرتب**».

صمت برهة ليكمل: «**رحمة تراكِ تكملينها. لا أخفي عليكِ صدمتي أمام اقتراحها هذا، وربما أكثر منكِ الآن، بما أني الزوج الذي**

تقترح عليه زوجته الزواج بأخرى. وصراحة، هي اجتهدت في عد مزاياكِ لي بما يوافق ذوقي، وتؤكد إحساسها بأنكِ مختلفة بالنسبة إليَّ عن أي فتاة أخرى. سلمى، قبل أن أكمل لكِ حديثي عن موقف رحمة، سأقول لكِ ما لم أتخيل أن رحمة كانت تشعر به؛ حقيقة، سلمى، إذا لم تكن رحمة ظهرت بحياتي، فلم يكن عندي أدنى شك بأنكِ ستكونين مكانها. يجوز فارق السن بيننا هو الذي جعل ذلك يحدث. أنا الآن في الرابعة والثلاثين، أكبركِ باثني عشر عامًا. سلمى، أتتذكرين يومها كم كان عمرك؟».

وجدها تغمض عينيها بشدة تحاول منع ظهور دموعها، ليكمل كلامه: «**سلمى، أنا أقول هذا الكلام الآن مع عرضي للزواج لأنني لست زوجًا خائنًا، لم أكن أستطيع إرضاء رجولتي بأن أكون سعيدًا بنظراتك لي، ربما عندما تصديت لكلامكِ معي منذ سنين كان لاعتقادي بأنكِ ما زلتِ الصغيرة التي انجذبت لصديق أخيها، قلت لنفسي: غدًا ستكبر وتتغير أفكارها. صدقيني ما كنت أريد جرحكِ أبدًا، ربما موقفي الآن أمامكِ هو تعويض لكِ عمَّا صدر مني قديمًا. حتى لو قابلتِ طلبي برفض هذه المجازفة المجنونة، فاعتبريه أخذًا لحقكِ السابق**».

وضعت يدها على وجهها، لا يعرف أهي تبكي أم لا تريد النظر له، فأكمل بإصرار: «**ترى اختلافكِ عنها سيجعل مكانتها في حياتي كما هي، ترى أنكِ برُقيكِ وأخلاقك لن تحاولي إقصاءها من حياتي إذا نجحت حياتنا معًا**».

ضحك وهو يكمل ويقول لها بمزاح: «**اتركي الماضي جانبًا وشاهدي الموقف من جانب آخر لتضحكي معي، زوجتي قالت لي إني**

أستحق فتاة مميزة مثلكِ، ستجعل حياتي مختلفة، ترى نفسها تشبه القطة وتراكِ فراشة، ترى نفسها أناناسًا وتراكِ مانجو؛ هكذا هي ترى الحياة».

تحدثت سلمى لأول مرة بعد ما تفوه به أخيرًا، ورغم أن كلامه كان كالهمس كأنه يحدث نفسه، قالت: «**هل أصابك الجنون أنت وزوجتك، دكتور؟! أم إني أنا التي أصابتني الهلاوس وأتوهم أنك أمامي الآن؟!**».

رد وهو على نفس هدوء صوته: «**اعتبري أني بعد يومين من العناء، أخيرًا وجدت من أهذي له بهذه الكلمات. أنتِ لم تتخيلي ما مررنا به اليومين الماضيين. لو لم يكن صديقي الوحيد أخاكِ لكان من الممكن أن أكون معه الآن أفتح قلبي له. ولكن شاء القدر أن أوضع في هذا الموقف**».

قالت وهي تستجمع أعصابها: «**هل لي أن أنصرف الآن؟**».

نظر لها بتركيز يريد أن يستشف أي شيء من ملامحها، وكان رده: «**لا**».

قالت وهي تضحك بأسى: «**لا؟ هكذا صريحة؟!**».

«**لا يا سلمى، لن أترككِ تذهبين إلا بعد أن تقولي ما عندكِ كما فعلت أنا. أنا قلت لكِ ما لم أصرح به لزوجتي المجنونة التي تنتظر موافقتكِ الآن**».

صمت الاثنان مع مجيء النادل ليضع أمام كل واحد منهما فنجان القهوة الخاص به وبعد أن انصرف، أمسكت سلمى بفنجانها بتوتر لترتشف منه القليل بسرعة وكأنها تريده أن يلهمها التركيز والرد الصحيح، ولكن مع توترها مال فنجان القهوة لينسكب على

الطاولة أمامها. وقبل أن تسقط القهوة عليها، تحرك معاذ بسرعة ليضع يده أمامها لتنزل القهوة في كفه، ولم يهمه سخونتها. أربكها تصرفه، وعندما وجدت ملامحه تتألم من سخونة القهوة فتحت حقيبتها بسرعة لتُخرج منها بعضًا من المحارم الورقية لتناولها له.

أخذها ببساطة ليمسح يده، ودون اهتمام بالحرق في كفه وضع أمامها فنجانه، ليقول ببساطة وهو يقبض على كفه بشدة: «**نكمل حديثنا**».

قالت محاولة تجاهل خجلها مما حدث:

«**ماذا تريد أن أقول؟ أقول إني صُدمت أن عيني فضحتني هكذا بسهولة؟! أم إني جرحت زوجة من دون قصد لتعلم بمشاعري القديمة تجاه زوجها؟!**».

قاطعها معاذ قائلًا: «**هل لي أن أسأل هل المشاعر القديمة هذه انتهت؟**».

قالت بحزن: «**وهل أعتبر هذا السؤال لإرضاء غرورك؟**».

«**مؤكد جلوسي أمامكِ الآن بحالتي هذه ليس فيه أي إرضاء غرور**».

لترد عليه ببساطة أذهلته: «**هل نملك تغير مشاعرنا بهذه السهولة؟! كيف أدعي عكس ما بداخلي الآن؟! إجابة سؤالك صعبة على كرامتي**».

أغمض معاذ عينيه بعد ما قالته له؛ فأرهقه اعترافها أكثر وقد تخيل أن جلوسها معه سيريحه بعد العاصفة الباردة التي اجتاحته من رحمة، ليجيب عن كلامها الأسبق وكأنه لم يسمع شيئًا:

«أحب أن أريح ضميركِ، سلمى. مؤكد ليس لك أي ذنب في ما وصل لرحمة، ولكنها هوايتها في قراءة لغة الجسد ولغة العيون. حظكِ العاثر هو ما أوقعكِ في طريقها. ومع ذلك، هي ترى أنكِ لم تحاولي أبدًا استفزازها لإشعال غيرتها».

ردت بصوت خافت: **«لأنه ليس ذنبها وليس ذنبك أنت الآخر. هذه مشاعري، وأنا من يتحملها. معاذ، لي سؤال، وأرجوك اتركني بعدها لأذهب، وأعدك بالرد غدًا»**.

هز رأسه بالموافقة وهو يقول: **«ولي بعده سؤال أخير أنا أيضًا»**.

فقالت بهمس: **«هذا الاقتراح كله اقتراح رحمة، وتخبره لي عن لسان رحمة. وأنت؟»**.

ابتسم وقد فهم ما تقصده، ليقول لها محاولًا إرضاءها: **«وهل لو لم يرُق لي هذا الاقتراح لكنت أجلس معكِ الآن؟! سلمى، أخبرتكِ أنها تعرف ذوقي وتعرف ما يرضيني جيدًا. وأخبرتكِ أن لولا ظهورها في حياتي وأنتِ صغيرة لكنتِ أنتِ من اخترتُ من البداية. أليس هذا كافيًا للإجابة عن سؤالك؟»**.

وقفت دون أي كلمة، فوقف أمامها ليقول بابتسامة ارتجف لها قلبها: **«سؤالي، سلمى..»**.

رفعت رأسها بابتسامة لأنها نسيت، فقال: **«أليس غريبًا أن تعترفي بوجود نفس المشاعر بداخلكِ إلى الآن رغم أنكِ سوف تفكرين في الأمر؟»**.

ابتسمت سلمى وهي تضع حقيبتها على كتفها، لتجيب:

«لأن من أحمل له هذا المشاعر يستحق أن أفكر».

تحركت بسرعة وغادر هو وراءها، يراها تسير أمامه مسرعة تحاول البعد عن نظراته التي تشعر باختراقها لها، ليتجه كل منهما إلى سيارته.

بمجرد أن ركب سيارته، ما كان منه إلا أن أمسك زجاجة المياه المعلقة بجواره وفتحها ليسكبها بالكامل على رأسه ويقود سيارته بسرعة جنونية.

وما بين وعدين وامرأتين
كيف أقاتل على جبهتين؟
وكيف أبعثر نفسي على قاربين؟
وكيف أجامل غيركِ؟
وكيف أجالس غيركِ..
وأنتِ مسافرة في عروق اليدين؟
وكيف تكون الخيانة حلًّا؟
وكيف يكون النفاق جميلًا..
وأشعر أني أقوم بدور المهرج
وأشعر أني أخون الحقيقة
حين أقارن بين حنيني إليكِ
وبين حنيني إليها؟
وكيف أكون لديكِ..
وأزعم أني لديها؟!

نزار قباني

في سيارة سلمى، وبمجرد ركوبها، أطلقت العنان لدموعها وهي تقول لنفسها: «**أيكون تحقيق الحلم بهذه القسوة؟**»، ودون تردد أمسكت الهاتف واتصلت برقم رحمة، وقد ردت بسرعة قائلة:

«**كنت أنتظر اتصالكِ، سلمى**».

فقالت دون مقدمات: «**أمجنونة أنتِ؟ أم أنا؟ أم زوجكِ المجنون؟**».

وجدتها تضحك وهي تجيبها: «**حقًّا ثلاثتنا مجانين، سلمى، بدليل اتصالكِ بي**».

«**تختارين عروس زوجكِ بهذه السهولة؟**».

«**وهل كان سيصبح منطقيًّا لو اختاركِ بمفرده؟**».

لتقول بتأكيد: «**نعم، رحمة، كان سيصبح منطقيًّا**».

«**إذًا دعينا نخرج من المعتاد، ولا داعي للسير وراء القطيع. صدقيني سوف يكون في الأمر متعة**».

ردت سلمى بصدمة: «**ماذا؟! متعة؟!**».

«**نعم، فعل غير المألوف متعة. فماذا سيفيدنا المألوف إن كان آخره وجعًا؟**».

«**ولماذا أنا بالذات؟ هل تخيلتِ أني سأرضى أن أكون أنبوبًا للإنجاب**»؟

ردت رحمة بسرعة مدافعة: «**أبدًا، سلمى. إن كان هذا صحيحًا لكنت اخترت أي فتاة بسيطة. هناك ألف فتاة ترضى بما هو أسوأ من ذلك؛ ما بالكِ بطبيب ناجح ومقتدر ووسيم وجذاب، يكفي بريق عينيه البنيتين من تحت نظارته، سلمى؟**».

قالت كلماتها وهي تضحك، فردت عليها سلمى بدهشة:

«أنتِ غير طبيعية، رحمة. أتصفين مميزات زوجكِ لي لتقنعيني؟! معقول أنه لم يكن يهذي عندما قال إنكِ وصفتِ مميزاتي له؟!».

ضحكت رحمة بشدة لتخيل سلمى أنه كان غير طبيعي، لتقول:

«إياكِ أن يكون أخبركِ بأمر المانجو».

«ما هذا الجنون؟! أنا فعلًا تخيلت أنه لا يعرف ما يقول».

«اطمئني، لم يصل إلى هذه المرحلة بعد. لا تقلقي، عندما يفيق من الصدمة فسوف يستوعب الأمر ويعود كما كان».

«أنا من تريد أن تفهم قبل أن أجن معكما. أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟».

قالت بهدوء» **«سلمى، صدقيني، هو يستحقك، كما أنك تستحقين زوجًا مثله. لن تندمي، على ضمانتي»**.

قالت سلمى بدهشة: **«ما هذا الذي أنا فيه؟! رحمة، أنتِ زوجته. أين أنتِ؟ ومشاعركِ؟ ألم تغاري عليه؟! أنا رأيت حبكما بعيني، حبكِ الواضح في كلامكِ الآن، لمعان عينيه كلما أتى ذكركِ. أنا حضرت قصة حبكما»**.

أخذت رحمة نفسًا عميقًا شعرت به سلمى، وهي تقول:

«هو يستحق أن يعيش في سعادة. أعطاني في السنين الماضية ما لم أستطع إعطاءه مقابلًا له، ولم أجد ما أستطيع منحه له؛ لذلك، سلمى، اخترتكِ؛ لأنه يستحقكِ».

«أنتِ تصعبين الأمر. أنا أشفق عليكِ أكثر مما أشفق على نفسي».

«**سلمى، أنا أعلم منذ أول مرة رأيتكِ فيها أن بعينيكِ شيئًا تجاهه، احترمت رقيكِ في تجنب وجوده أمامكِ. لو أنا مكانكِ لكنت أصررت أن آخذ حقي فيه منكِ لأني وجدته قبلكِ وأحببته قبلكِ. أنتِ أفضل مني؛ لذلك أنا متأكدة أنكِ ستتقبلين وجودي**».

لتقول سلمى وما زالت لا تستوعب: «**هل أنتِ تقنعينني فعلًا بتقبل أن أكون زوجة ثانية؟ هل أنتِ مقتنعة بذلك؟ لا لا. هل أنتِ مقتنعة بأن يكون لكِ شريك في زوجكِ بعد كل هذا الحب؟!**».

قالت رحمة وقد ارتجف صوتها: «**سلمى، سيكون لكل منا حياته الخاصة. وأنا واثقة أنه سيكون جديرًا بأن يشعر كل منا أنها هي وحدها لها مكان بمفردها داخل قلبه. إنها طبيعة الرجال، إنهم غيرنا. وهو أذكى الرجال. أرجوكِ، سلمى، فكري جيدًا**».

أغلقت رحمة الهاتف وقد أوشكت طاقتها على النفاد، وانهارت بعدها كما لم يحدث من قبل. هي تعلم أنها وصلت لنقطة اللا عودة.

فتح الباب ليدخل وعلامات الإرهاق ظاهرة عليه، أسرعت تخلع سترته التي أغرقها الماء وكذلك قميصه، قائلة: «**ما هذا، معاذ؟ ماذا فعلت؟! الجو بارد**».

رد عليها بشرود: «**كنت في حلم. لماذا لا أفيق؟**».

مر اليوم عليهما في صمت، نامت بين أحضانه. لم يُرد الضغط على أعصابها أكثر من ذلك، تركها تتشبث به، وظل جوارها لا يعلم أهي نائمة فعلًا أم لا. ومع ذلك ترك لها هذا الإحساس. فمهما كان

ما تمتلكه من قوة، فهي أنثى واثقة وأحيانًا مغرورة؛ فكيف لها أن تتحمل ما يحدث حتى ولو كانت هي صاحبة الفكرة؟

ظل يتأملها، وكم أدهشه رأيها عن نفسها! هي فعلًا تشبه الأناناس في فخامته ورونقه وتميزه عن أي فاكهة أخرى، وكأنها لوحة فنية، تجذب الأنظار كما جذبت نظره أول مرة رآها وأراد أن يستأثر بها لنفسه، رغم تعمدها عدم ارتداء ملابس لافتة فإنها مهما ارتدت تصبح متوهجة كشمس الصيف الحارقة عندما تسقط أشعتها على قطرة من الماء البارد لتبخرها. هذا ما فعلته به، جعلته كقطرة ماء تتلاعب بها؛ كلما حاولت السقوط، عادت وبخرتها. هي فعلًا تمتلك من القوة ما يجعلها تعطي انقباض طعم الأناناس. منذ أول يوم رآها في الجامعة قرر الاستيلاء عليها، لم يكن يتخيل أن يتركها تضيع من يده. والآن بعد كل سنوات الامتلاك هذه، لا يمكن أن يتخلى عنها. هي وحدها من تستحق أن تكون له الزوجة والحبيبة والعشيقة، هي وحدها بذكائها استطاعت الدخول في أعماقه لتحل محل الأم والأب والصديق. مسح دمعة سقطت من عينه لأول مرة لا يستطيع منعها، وهو يقول لنفسه:

«**كيف لي أن أجرحكِ هذا الجرح، حبيبتي؟**».

أما سلمى، فدخلت المنزل بهدوء شديد على غير عادتها. أوقفتها كريمة قائلة:

«**هل بكِ شيء، حبيبتي؟**».

قالت بإرهاق: «**أبدًا، أمي، أنا فقط وقفت في الشمس كثيرًا. سآخذ حمامًا وأنام**».

صعدت بعدها سلمى، فذهبت كريمة لحنين لتقول: «**حنين، اذهبي لسلمى وحاولي الحديث معها؛ أشعر أن بها شيئًا ما ولا أريد الضغط عليها. مؤكد ستخبركِ**».

لتقول حنين بشك: «**هي ذهبت للنادي ككل يوم. سأطمئن عليها وأطمئنكِ**».

دخلت حنين لها الغرفة لتجدها تخرج من دورة المياه وقد غسلت رأسها تحت الصنبور، يتساقط الماء من وجهها وشعرها، لتقول حنين بقلق: «**سلمى، ماذا بكِ؟**».

قالت سلمى وكأنها تائهة: «**حنين، أرجوكِ، أريد أن أنام، أريد أن أرتاح مما أنا فيه**».

ساعدتها حنين في تبديل ثيابها، ولم يكن على لسان سلمى سوى جملة واحدة:

«**جاء في الوقت الخطأ، حنين**».

لم تحاول حنين التحدث معها، فقط أرادت أن تعطيها فرصة للراحة وبعدها تتحدث، وجدتها تنام بعشوائية على الفراش، فحاولت تعديل وضعها فلم تستطع، وضعت الوسادة تحت رأسها وتركتها تنام وبداخلها ألف سؤال: أيخص الأمر معاذًا؟! هل جرحها مرة أخرى؟!

تركتها حنين لتنام، وأخبرت كريمة أنها كما قالت لها مرهقة من الشمس، وانتظرت مجيء يحيى بفارغ الصبر لتخبره بحالة أخته؛ فهو أكثر شخص يستطيع مساعدتها.

الفصل الثالث عشر

انتظرت حنين عودة يحيى للمنزل. وبعد تناوله الغداء وصعوده للغرفة بعيدًا عن والدته، أخبرته بحالة سلمى التي عادت عليها من النادي، ليقول بقلق:

«**ماذا يعني كلامكِ؟ أقابلت معاذًا؟**».

لتقول بتوتر» «**يحيى، من أجلي، هي لا تعرف أني أخبرتك شيئًا حينها. لا داعي لأن نزيد الجرح**».

«**وهل أنا بهذه السذاجة، حنين؟! أنا مدهوش مما يمكن أن يحدث. أنا أعلم معاذًا جيدًا. مستحيل أن يجرحها مرة أخرى. ماذا يعني 'جاء في الوقت الخطأ'؟ هل..؟ غير معقول**».

اتجه يحيى لغرفة أخته، وبالطبع لم تحاول حنين الذهاب معه، هي تعلم سلمى وعلاقتها الخاصة بأخيها، لا تحب تدخلًا أيًّا كان. دخل يحيى غرفة سلمى ليجدها تنام وسط الفراش، تغطي وجهها بالوسادة وتبكي، أبعد الوسادة وجذبها إليه، وأخذ يمسد على شعرها حتى هدأت، وقال:

«**أخبريني ما بكِ، سلمى**».

لم ترد إلا بكلمة واحدة: «**صعب**».

«**هل صعب أن أفهم صغيرتي؟**».

«**صعب أن أخبرك أنت بالتحديد**».

«**وهل في هذا العالم من يخاف على صغيرتي أكثر مني؟**».

«**وهل ستفهمني؟**».

«**ومتى لم أفهمكِ، سلمى؟! أنتِ قطعة من قلبي. أعندكِ شك في ذلك؟**».

لترد عليه ببراءة: «**قطعة صغيرة منه، يحيى؛ حنين أخذت الباقي**».

ابتسم بسعادة، فمنذ صغرها ورغم حبها لحنين فإنها دائمًا تغار على أخيها منها كما تفعل الأخرى بالضبط، ليقول: «**حنين تشاركِكِ فيَّ منذ زمن، سلمى. وما زلتِ تخشين على مكانكِ في قلبي**».

ابتسمت وهي تقول: «**نعم، منذ تزوجتها وهي في كل فرصة تخرج لي لسانها من ورائك. تخيل، بمجرد نزولك كل يوم صباحًا تأتي هنا لتحتل سريري!**».

ضحك يحيى بشدة وهو يقول: «**لهذه الدرجة؟!**».

«**كلما حاولت إبعادها لا ترضى، وتنام على سريري بأريحية، كما تفعل في قلبك ولا تضعني في الحسبان**».

ليقول وما زال يضحك: «**ولماذا يا ساذجة لا تفعلين مثلها؟**».

لترد بما لم يتوقعه أبدًا: «**لأنني أخشى ازدحام قلبك بمشاكلي أنا وهي، فأتركها تفعل ما تريد؛ هي أحق مني بقلبك، فليس لها سواك**».

ضمها لصدره وهو يقول بابتسامة: «**قلبي هذا ينبض لأجلكن فقط، سلمى. سيقف لو لم تتعاركن عليه. هيا احكي لي ماذا حدث اليوم جعلكِ بهذه الحالة**».

قالت كلمة واحدة أكدت ظنونه: «**معاذ**».

فقال بهدوء: «**ماذا فعل لكِ معاذ؟ وأين رأيتِه؟**».

«**اليوم في النادي، أتى ليقابلني**».

حاول السيطرة على غضبه لتكمل الحديث: «**ولماذا يقابلكِ، سلمى؟**».

نظرت في وجه أخيها تحاول معرفة رد فعله وهي تخبره: «**طلب مني الزواج**».

لم يحرك يحيى جفنًا، فأكملت: «**ألم تتفاجأ؟ أكنت تتوقع شيئًا كهذا؟**».

«**بالتأكيد لا، لكن كنت أثق أنه سبب حالتكِ هذه**».

قالت بدهشة: «**لماذا؟**».

«**وهل تعتقدين أن أخاكِ لا يشعر بكِ إلى هذا الحد، سلمى؟ أتتخيلين أني لا أعرف سبب رفضكِ أي عرض زواج؟**».

لتقول بصدمة وهي تكاد تبكي وتخفي وجهها بعيدًا عنه:

«**وهل واضح عليَّ إلى هذا الحد؟! وأنا من تخيلت أني نجحت في إخفاء مشاعري! ولكني للأسف وصلت لدرجة أن حتى زوجته تعلم ما بداخلي!**».

قال لها بدهشة: «**رحمة تعلم؟!**».

وجدها تبتسم بسخرية وهي تقول: «**لم أكمل لك... رحمة صاحبة اقتراح الزواج**».

أخذت تقص عليه كلام معاذ، وحتى محاولة إقناع رحمة لها عبر الهاتف، ولكن بالطبع احتفظت ببعض الخصوصية في كلامها مع معاذ؛ فهناك ما لا يصح البوح به لأخيها. وبعدما انتهت من سرد ما حدث، انتظرت منه أي رد فعل، ولكنه وقف ليخبرها: «**سأذهب لهذين الأحمقين الآن. وبعدها أخبركِ قراري**».

«**يحيى، أنت لم تعرف رأيي بعد**».

فقال بهدوء: «**لو كان الموضوع مرفوضًا بالنسبة لكِ، لكان الأمر انتهى لحظتها. لا معنى لتفكيركِ ولا انهياركِ هذا إلا شيء واحد**».

اتجه بعدها إلى غرفته، فقد كانت حنين في انتظاره، فأخبرها أنه سيغادر. وقبل أن تسأله عن أي شيء، انصرف وهو يحثها ألا تترك سلمى بمفردها إلى أن يعود.

وبعد فترة قضاها يحيى في طريقه لمنزل معاذ ورحمة، يحاول ألا يخرج عن هدوئه وسيطرته على أعصابه، وبمجرد أن وصل ودق جرس الباب، فتح له معاذ دون النظر لوجهه وكأنه ينتظره. دخل يحيى وأغلق الباب خلفه بعنف، ليجلس أمام صديقه الذي جلس حتى دون الترحيب به، تأمل يحيى شكله المرتبك على غير عادته، وقبل أن يتعاطف مع رفيق دربه أخذ نفسًا عميقًا ليصيح به:

«**هناك حدود كان يجب ألا تتعداها، صديقي العزيز، قبل أن تقول ما قلت للفتاة**».

قال معاذ وهو يستند بمرفقيه على رجليه ويحاول ألا يظهر مهزوزًا: «**أعلم هذا. وكنت واثقًا من إخبارها لك فورًا. كنت أنتظرك**».

ليقول يحيى بتوبيخ: «**إذًا لماذا وضعت نفسك ووضعتها في هذا الموقف؟**».

ليقول ببساطة: «**لأنه في هذا الموقف بالتحديد لا يصلح أن يكون هناك وسيط**».

رد يحيى بصدمة: «**أبعد هذه السنين تعود لتجرحها؟**».

«**بالعكس، أنا أعدت لها الفرصة في أخذ حقها**».

قال يحيى وهو يحاول ألا يرفع صوته: «**صغيرة هي على هذا الموقف، معاذ. لماذا هذه المرة لم تخبرني؟**».

«**عندما أتيت لك منذ سنين كنت أحمي أخت صديقي من نفسي؛ كانت مراهقة مندفعة، وسنوات عمري الأكبر باثني عشر عامًا حثتني ألا أستغل هذه المشاعر البريئة التي أقنعت نفسي بأنها مع الوقت ستتغير. أنت تعلم كيف حاولت إبعادها عني، كيف حاولت ألا أظهر أمامها في أي مكان**».

ليقول يحيى بحسرة: «**وكنت أمامها، معاذ، مهما حاولنا. وكان اندفاعها تجاهك هو البداية التي لم تنتهِ ولم نستطع فعل شيء لإيقافها**».

«**كنت صريحًا معك حتى لا أكون خائنًا للأمانة؛ فهل تتخيل بعد هذه السنين أن أخونك؟!**».

«**وماذا يعني كل ما قلته لها اليوم يا دكتور؟**».

ليقول مستوعبًا صدمة يحيى: «**أنا عرضت طلبًا حقيقيًا، وكان لا بد من مصارحتها**».

«**لتخبرها أنها لو لم تكن رحمة ظهرت في حياتك، لكانت هي؟**».

«**هذه هي الحقيقة التي يجب أن تعرفها. إنه حقها**».

قال يحيى وقد بدأ يستفزه الحديث: «**ورحمة؟!**».

رد معاذ محاولًا الحديث بنفس الهدوء: «**رحمة قررت، ولن تعود في قرارها. قررت إما زواجي وإما الرحيل من حياتي. وأنا لو آخر يوم في عمري فلن أتركها تبتعد. أنت تعلم ليس لها غيري. أنت حتى تعلم أنه منذ يوم زواجنا لم يسأل عنها أي أحد من أقاربها، لا أمها التي تزوجت بعد وفاة والدها وتركتها مع أهل والدها من دون أن تسأل عنها، ولا أهل والدها الذين تخلصوا منها بالزواج. رحمة لا يمكن أن تعيش من دوني**».

ليرد وهو لا يستطيع الكيل بمكيالين - فرحمة لها مكانتها عنده -: «**وهل تهون عليك أن تفعل ذلك بها؟ أيكون الزمن قاسيًا عليها للنهاية؟ كيف عرفَتْ بأمر سلمى؟!**».

تنفس معاذ بصعوبة وهو يقول: «**عرفت أكثر من اللازم دون أن يخبرها أحد**».

«**وأين هي الآن؟!**».

«**أعتقد أنها نائمة، أو تمثل أنها نائمة**».

«**أريد الحديث معها، معاذ**».

«**لماذا؟**».

ليقول يحيى بحدة: «**سؤال ساذج. اذهب وأخبرها أني هنا**».

تحرك معاذ دون مجادلة ليذهب لغرفتها، فوجدها كما تركها، منكمشة على نفسها في الفراش تحاول إخفاء نفسها تحت الغطاء، فاقترب منها يخبرها:

«**رحمة، أعلم أنكِ مستيقظة. يحيى بالخارج يريد مقابلتكِ**».

قالت ولم تحاول التحرك أو فتح عينيها: «**لا أريد، معاذ، اعتذر إليه، وأخبره أن دراسة الجدوى هذه المرة كالعادة ليس بها أخطاء**».

«**انهضي، رحمة. هو لن يغادر دون مقابلتك؛ فلا داعي للهرب**».

نهضت وهي تنظر له بعينيها الواسعتين وكأنها تبدلت لتقول:

«**أنا لم أتعود الهرب. أنت تعلم، فلا داعي لاستفزازي**».

«**سأذهب للرجل الجالس في منزلنا دون تحية، حتى تجهزي نفسك**».

فقالت بتردد: «**معاذ، كيف هو شكلي؟**».

استوعب حرجها من الظهور بهذا الشكل، وهي التي تعودت أن تكون على أكمل صورة، فقال وهو يضع يده على وجنتها: «**اغسلي وجهكِ، وحاولي إخفاء هذه الكوارث**».

فقالت بعتاب: «**سيرفض طلبك إن رأى شكلي هكذا. أرجوك، اعتذر له**».

ابتسم بسخرية وهو يضمها ويقول:

«**كم أتمنى أن يرفض يا رحمة. اخرجي كما تحبين، فقد سبق السيف العذل، حبيبتي**».

خرج وما هي إلا لحظات حتى وجدها تخرج وراءه ترتدي إسدال الصلاة. وبالطبع دُهش يحيى من مظهرها؛ فلأول مرة يراها بهذا الشكل، حقًّا أوجعه قلبه عليها، فهو دائمًا يعتبرها مسئولة منه، تذكر كم كانت سعادته بمعرفته رغبة معاذ الارتباط بها، فهي تستحق حياة أفضل من التي عاشتها يتيمة متنقلة بين منازل أقاربها، تحاول

الاعتماد على نفسها لتنجح، نعم بمساعدة معاذ، ولكن كان نجاحها فائق التوقع، انتبه من شروده الذي صاحبه نظرات لوم لصديقه، ليقول:

«**أريد التحدث معها قليلًا بمفردنا، معاذ**».

رد عليه معاذ بسخرية: «**أجئت تطلب الحديث مع زوجتي بمفردك يا رجل؟!**».

فقال يحيى بجمود: «**اخرج، معاذ، واترك الباب مفتوحًا. أريد الحديث معها دون وجودك؛ هل عندك ما يمانع؟**».

انصرف معاذ من أمامه، ورغم أنه متأكد أن معاذًا لن يبتعد عن الباب فإنه كان الأفضل ألا تراه رحمة أمامها، وبدأ بالحديث قائلًا:

«**لماذا تفعلين بنفسكِ وبه هكذا؟ أهان عليكِ قلبكِ؟!**».

ردت محاولة التماسك بعد أن جلست حتى لا تخونها قدماها:

«**هو قلبي، هو لم يهن عليَّ بالفعل؛ لذلك كان يجب أن آخذ هذا القرار**».

ليقول لها بعصبية: «**هذا ليس مشروعًا، إنها حياة، وليست الحياة كالعمل، وليس قلبك ملف مناقصة**».

«**أنت هكذا وفرت عليَّ الكثير؛ مؤكد أنت تعلم أني درست الأمر جيدًا**».

رد بدهشة من إصرارها: «**نعم. والآن أنتِ تنتظرين إمضائي؟!**».

«**نعم، الأمر متوقف على قرارك. ولكن لتعلم أولًا أن حياتي مع معاذ متوقفة على نجاح هذه الزيجة**».

رد يحيى وقد بدأ يفقد أعصابه: «**أنتِ تريدين أن تصيبينا جميعًا بالجنون**».

حاول ألا ينفعل ليجدها تقول: «**يحيى، أنا لن أنتظر أن أصبح عبئًا عليه. هو أعطاني السعادة، ولن أكون سعيدة وأنا أراه يضيع عمره معي. أيحقق هو أحلامي وأنا أبخل عليه بحلمه؟**».

أغمض يحيى عينيه بوجع أمام صراحتها الزائدة، ليتركها تكمل حديثها، ولأول مرة يراها تبكي: «**أنت تعلم أني أعتبرك أخي. عندما أراد معاذ خطبتي طلبني منك، وهذا ما جعلني أثق أنك لن تقبل لي الضرر. وأعلم مكانة سلمى عندك؛ صدقني أنا لن أضرها، هي تستحق رجلًا كمعاذ، وهو يستحقها. وجودي لن يغير شيئًا، أنتم موجودون في حياتنا، سنظل كما نحن**».

وصمتت قليلًا لتكمل بصوت منخفض: «**علاقة معاذ بسلمى ستكون بعيدة عني. سيكون لها حياتها الخاصة بعيدة عن عيني. وأنا أعدك ألا أحاول إزعاجها**».

لم يحاول يحيى التعليق على كلامها، وغادر الغرفة بهدوء، ولم يتفاجأ عندما رأى معاذًا واقفًا بجوار الباب يستند بظهره إلى الحائط، فوقف أمامه ليقول:

«**سأنتظركما مساء غد لإخبار أمي بالأمر؛ فأنا لن أستطيع إخبارها بمفردي. لو جاءت رحمة بهذا الشكل، فاعتبر الأمر منتهيًا**».

غادر يحيى، وظلت رحمة قليلًا تحاول أن تهدأ، لتخرج من الغرفة وتجد معاذًا ما زال واقفًا كما هو، وضعت رأسها على صدره وهي تقول:

«**سيمر الأمر، ونظل كما نحن، ما دمنا أنا وأنت معًا. اجعلنا لا نفكر في شيء سوى أننا معًا**».

ضمها بشدة ليقول: «**لم أعد أتحمل أن أراكِ هكذا. آسف. أنا السبب**».

رفعت رأسها بابتسامتها التي تسحره وهي تقول:

«**أتعرف؟ كان هذا أفضل شيء، كدت أنفجر من شدة الكبت. أنا الآن أخرجت كل شحناتي وطاقتي السلبية. دعنا نعود ثلاثة أيام للخلف لنوقف الشريط أمام نظرات الممرضات بالمشفى**».

ضحك وهو يقول: «**فعلًا كل تلك العيون هي التي أصابتكِ في مقتل**».

«**إذًا انتظر عودتي من جديد**».

ليقول لنفسه وهو يتأمل وجهها الذابل: «**لا أعتقد أن القادم كأمس، حبيبتي**».

في غرفة سلمى، جلست أمامها حنين مصدومة مما تسمع، فقد تداركت سلمى الصدمة وبدأت تقص ما حدث لها على حنين، لتقول لها الأخيرة بعدم تصديق:

«**كيف، سلمى، تتحدثين بهذه البساطة؟ كيف تفكرين أصلًا في هذا الوضع؟ كيف تنتظرين مجيئه بزوجته لخطبتكِ؟! هل تحاولين إقناعي أن قراركِ السريع لمجرد أنه أنقذكِ بسرعة من فنجان القهوة وكأنه مادة سامة؟!**».

قالت بتشتت: «**لا، حنين، ليس الأمر هكذا، وليس ضروريًّا أن تكون مادة سامة. إنها التفاصيل؛ عندما يهتم بكِ أحدهم ليفضلكِ على نفسه، يتصرف معكِ دون تفكير في نفسه، عندما يتحرك من أجلكِ حتى لو في ذلك ضرر له، مؤكد ستشعرين معه بالأمان، مؤكد يستطيع حمايتك**».

لتقول حنين باعتراض: «**أنتِ رأيتِ المشهد من هذا المنطلق لأنكِ تريدين ذلك**».

«**أتذكرين، حنين، عندما أخبرتِني أنكِ كنتِ تتخيلين أن يحيى تزوج من أخرى، ويلبس محبس زواجها؟ أخبريني، وقتها هل استطعتِ أن تبتعدي عنه؟ بالعكس؛ وافقتِ على الزواج به، أليس كذلك؟**».

هزت حنين رأسها برفض، قائلة: «**لا، سلمى، الوضع مختلف؛ أنا لم يكن أمامي أي حل آخر، أنا موقفي مع يحيى مختلف؛ فيحيى هو المسئول عني منذ صغري، يحيى أخ لي قبل أن يكون حبيبًا، ذهبت إليه ولم أفكر في سوى أنه الشخص الوحيد الذي يستطيع حمايتي أيًّا كانت الطريقة، يحيى سندي في الدنيا منذ وعيت**».

لتقول سلمى منفعلة: «**ضعي نفسكِ مكاني؛ جاءت لي الفرصة لأقترب من الإنسان الوحيد الذي شعر به قلبي منذ صغري، لم أستطع أن أقنع نفسي بغيره حبيبًا لي، ولم أتقبل أن أخوض أي تجربة مع غيره. اليوم جلس أمامي يعرض عليَّ الزواج، يخبرني أن لي مكانًا بداخله، حتى لو كان صغيرًا فهناك مكان لي بداخله**».

قالت حنين بأسى: «**هناك واقع آخر، هناك رحمة في قلبه، وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا**».

قالت سلمى بجمود: «**وأنا قررت خوض التجربة معها**».

لترد حنين معترضة: «**أقنعتْكِ المجنونة، ولكن... كيف تقنع نفسها؟!**».

«**نعم، حنين، أقنعتني. وأنا أخشى أن أضيع هذه الفرصة التي جاءت لي من دون طلب**».

لتنفعل حنين قائلة: «**كيف فرصة؟! هل فرصة أن تتزوجي رجلًا متزوجًا؟! تشاركي فيه أخرى؟! لا، وليس هذا فقط، بل تعلمين جيدًا حبه الشديد لها**».

ردت سلمى بسخرية: «**قلب الرجل يسع أربعة، حنين**».

لتقول حنين بعدم استيعاب: «**لماذا تفعلين ذلك بقلبكِ؟! ولماذا رحمة تعذب نفسها هكذا؟! أنا لا أستوعب ما يحدث**».

اقتربت منها سلمى تلتصق بها لتهمس وكأنها تحدث نفسها: «**حتى لو تقبلت ذلك ليوم واحد فقط، أن أقترب منه حتى ليوم. منذ تفتح قلبي على حبه، لم أتمنَّ سوى شيء واحد. قررت أن أترك التفكير لرحمة؛ صراحة أعجبتني أفكارها**».

قالتها وهي تبتسم، فقالت حنين بدهشة: «**وما هذا الشيء الذي ستضحين من أجله هكذا، سلمى؟!**».

ردت عليها بهمس أكثر تكاد تسمعه بصعوبة: «**أن أجرب كيف سيكون حضنه، كيف سأشعر وأنا... بين يديه**».

لتصمت وتصمت بعدها حنين؛ فهي تعي جيدًا كيف يجعلك الحب عاجزًا، ضعيفًا، تتشبث بأي أمل فيه لتعيش لحظات حلمت بها بداخلك مع من تحب.

وفي الموعد المحدد مساء اليوم التالي، اجتمع الجميع أمام كريمة وظلوا ينظرون لبعضهم البعض، فلم يكن عند أحدهم الجرأة لبدء الحديث. فصاحت بهم كريمة قائلة: «**لماذا أشعر أن هناك خطبًا ما؟! اجتماعكم هذا غير مطمئن. ماذا هناك؟**».

الفصل الرابع عشر

يقنع كثير أنفسهم بأن الغاية تبرر الوسيلة، ويختارون وسيلة مشروعة من أجل أن يريحوا ضمائرهم، ولا يهم وقتها على أكتاف من وصلوا ولا ضعف من استغلوا، حتى ولو بموافقة هذا الضعيف الذي قرر القبول بالقليل حتى لا يخسر كل شيء. هذا ما كانت تفكر به حنين على مدار يوم كامل حتى وهي جالسة بينهم في جلسة تبدو عائلية من الدرجة الأولى.

نظر الجميع لبعضهم البعض أمام كلمات كريمة التي بدأت تشك في اجتماعهم هذا. جلس يحيى بجوار معاذ، والثلاث فتيات يجلسن أمامهما، سلمى في الوسط وبجوارها حنين ورحمة، ليبدأ يحيى بالكلام:

«**هناك من يريد التقدم لسلمى، أمي**».

فقالت مدهوشة: «**وما المشكلة؟! هل هو أول خاطب لابنتي لتجتمعوا بهذا الشكل؟!**».

كان معاذ يجلس ممسكًا بمفاتيحه كعادته، يلهو بها ليخفي توتره.

قال يحيى بترقب: «**ولكن هذه المرة هو مختلف، أمي**».

قالت كريمة: «**كيف مختلف؟ لا أفهم. هل أحد أعرفه؟**».

قررت رحمة أن توفر عليهم هذا الإرهاق العصبي، وترحم زوجها الذي لاحظت أنه حاول أكثر من مرة التحدث ولكنه يعود لسكوته مرة أخرى، تعلم أن لسانه لن يستطيع نطقها وهي موجودة، تعلم أنه لا يريد جرحها بطلب الزواج من أخرى وهي أمامه، لتقول بابتسامة هادئة: «**سأخبركِ أنا، خالتي، وأوفر على الجميع**».

قالتها وهي تنظر لكريمة التي لم تعد مرتاحة للأمر، لتكمل قائلة: «**كل الموضوع أن معاذًا يريد الزواج من سلمى**».

أنهت جملتها بسرعة ودون تردد ، بشكل حسدها عليه الجميع، فرفعت كريمة رأسها بعدم استيعاب لتقول: «**معاذ من؟**».

وأمام وجوم وجوههم جميعًا، أتاها الرد الصاعق ببساطة متناهية: «**معاذ زوجي**».

ظلت كريمة تنظر لها بدهشة، ثم قالت: «**أجننتِ، رحمة؟! ما هذه المزحة؟!**».

تكلم يحيى؛ فعند هذه النقطة يكفي إحراقًا لأعصاب رحمة، فأشفق عليها قائلًا: «**لا، أمي، ليست مزحة. هي حقيقة، ونحن هنا لمناقشتها**».

قالت كريمة بثورة: «**أجننت أنت الآخر؟! تأتي هذه المجنونة تخطب لزوجها، وتجلس أنت بجواره، وتقول لي: 'نتناقش'؟!**».

وكادت أن تقف لتغادرهم، قائلة لرحمة: «**خذي زوجكِ الصامت هذا واذهبي من هنا**».

ونظرت ليحيى لتقول: «**وأنت، فض هذه المهزلة فورًا**».

تفاجأ الجميع بسلمى تتحدث: «**لكن، أمي، أنا موافقة**».

وقبل أن تتحدث كريمة التي اتسعت عيناها فور حديث ابنتها، تحركت رحمة لتقف أمام كريمة وتأخذ يدها لتجذبها للجلوس وتجلس بجوارها، بعد أن قبلت يد كريمة التي تفاجأت مثلهم جميعًا بما تفعله رحمة التي قالت: «**أرجوكِ، أمي، اسمعيني فقط. لا أريد أكثر من ذلك. وبعدها افعلي ما تريدين**».

كانت رحمة تحاول أن تظل متماسكة بنفس قوتها وسيطرتها على أعصابها، ولم تستطع كريمة مقاطعتها، ولكنها كانت تحرك رأسها بالرفض. بدأت رحمة في الحديث الذي رتبت له كثيرًا لتقول:

«**هل لو انفصلت عن معاذ وأصبح أمر زواجنا منتهيًا، وجاء لكِ ليطلب الزواج من سلمى – فهو ابن صديقة عمرك، تعرفينه وتعرفين أخلاقه، تربى في بيتكِ، طبيب ناجح، تعرفين كل مزاياه؛ لا داعي لأعددها، فأنتم أهله – هل سوف ترفضينه وقتها؟ أم ستفكرين في الأمر؟**».

ولأول مرة منذ أول هذه الجلسة يرفع معاذ رأسه ينظر لرحمة؛ فقد خشي عليها من الانهيار، في اللحظة التي لم تستطع فيها حنين ولا سلمى السيطرة على دموعهما، فأكملت رحمة كلامها أمام عجز كريمة عن الرد، لتقول:

«**هل وجودي هو المشكلة؟ إذا كنت أنا المشكلة فأنا أعدكِ أمامهم جميعًا أن وجودي لن يمس سلمى بسوء، ولن يؤثر على حياتها، تعاملوا معي على أني مجرد شريكة ليحيى في الشركة وانسوا أمر زواجي من معاذ. أنا... أنا حتى لن أستطيع أن أنجب له أطفالًا يحملون اسمه أو يشاركون أطفالها في أبيهم. اعتبروا وجودي من دون فائدة. فقط أنا من أطلب**

منكم أن ترضوا أن أظل بينكم؛ فأنا ليس لي أهل سواكم». اهتز صوتها ولم تعد تستطيع السيطرة على نبرتها كما بدأت، لتحاول أن تكمل قائلة: «**كنت أتمنى أن تصبح لي عائلة كبيرة، كنت أحلم أن أنجب أطفالًا ليكونوا لي عزوة وأهلًا، ولكني نجحت في كل شيء إلا هذا لأنه ليس بيدي، إنها إرادة الله. لو لم تتقبلي وجودي فسأنسحب من حياة معاذ دون تردد، وهو يعلم ذلك جيدًا**».

أنهت كلامها وحاولت النهوض، ولكن تفاجأت بكريمة تأخذها بين ذراعيها وتبكي وهي تقول: «**يعلم الله يا ابنتي قدركِ في قلبي. أنا امرأة، وأعلم قسوة ما تقولينه. والله ما أرضى لكِ أبدًا حرقة القلب وقهره، حتى وإن كانت سعادة ابنتي في ذلك**».

مسحت رحمة دموعها التي بدأت ترفض سيطرتها عليها، وهي تقول: «**والله، خالتي، سأكون راضية وسعيدة بهذا الزواج. صدقيني**».

تكلم معاذ وهو ما زال جالسًا لم يرفع رأسه عن مفاتيحه:

«**هل أنهيتم جميعكم الكلام؟**».

ليقف بعد لحظات متجهًا لكريمة قائلًا: «**خالتي، هل لي أن أتحدث معكِ بمفردنا؟**».

قامت معه كريمة بهدوء إلى غرفة المكتب التي أغلق بابها بمجرد دخولها، لتبتسم رحمة أمام ما فعل؛ فقد استوعبت أنه لا يريد التحدث أمامها حتى لا يجرحها، تعلم أنه دائمًا ما يخشى عليها من أي كلمة قاسية، حتى لو دون قصد.

اتجهت سلمى للجلوس بجوارها، ونظرت لها بتمعن وهي تقول:

«**كيف تملكين من القوة والجرأة لتقولي كل ذلك؟!**».

قالت رحمة بابتسامة: «**لأني أحبه وأريد له السعادة. حبه هو قوتي، سلمى**».

«**أليس ما تفعلينه ضد الغريزة؟**».

«**بلى. أتشكين في كوني أنثى بشرية كما تخيل هو الآخر؟**».

قالتها بابتسامة لترد عليها سلمى وهي ترفع حاجبها الأيسر:

«**أتصدقين فعلًا؟ أنا شككت في أمركِ!**».

ضحكت رحمة وأخذت يد سلمى تحتضنها بين يديها، لتقول:

«**أليس ما يجعلك تجلسين جواري الآن تتحدثين بهذه البساطة معي، يجعلك مثلي؟**».

ردت سلمى وهي تفكر: «**لا أعرف**».

«**ولكني أنا أعرف**».

«**ماذا تعرفين؟**».

«**أعرف أني كنت على صواب منذ لم أرَ غيركِ تصلح له، وتأكدت أنكِ الوحيدة التي ستتقبل وجودي**».

«**هل تعتقدين أن الأمر بهذه السهولة؟**».

«**نعم، سلمى، اجعلي الأمر يمضي، استمتعي باللحظة وكونكِ عروسًا، انسيني وانسي وجودي... و... اجعليه ينسى كل شيء وأنتِ معه إلاكِ. صدقيني، هذه نصيحة لكِ من قلبي**».

فتحت سلمى عينيها باتساع وهي تقول: «**يا ألله! ضرتي تنصحني أن أُنسيَه إياها! أي جنون هذا؟!**».

ضحكت رحمة وهي تقول: «**افعلي مثلي وتعاملي مع الأمر على أنني أخرى ليس لي علاقة بمعاذ، انسي أنني أشاركِكِ فيه. أنا أتعامل معكِ على هذا الأساس. أتفهمينني، سلمى؟**».

هزت سلمى رأسها وهي تقول: «**تؤلمني صراحتكِ مع نفسك، رحمة**».

«**هذه ليست صراحة فحسب، إنها محاولة للتأقلم**».

أما حنين التي جذبها يحيى من يدها بمجرد دخول معاذ وأمه المكتب، ليترك الفرصة لرحمة وسلمى للحديث دون أي ضغوط من حنين التي ترفض الوضع كله – فقد شعر أنها بدأت تفقد السيطرة على أعصابها وتتوتر؛ فالموقف صعب –، فخرج بها للحديقة ليحاول تشتيت توترها الملحوظ: «**ماذا بكِ، حبيبتي؟**».

لتقول عكس ما توقع: «**يحيى، أنا أريد طفلًا**».

قال بدهشة: «**كيف؟! لا أفهم. هل أذهب إلى السوق لأشتري واحدًا الآن؟!**».

قالت بجدية واضحة: «**يحيى، أنت تعلم كيف**».

ابتسم لها ابتسامة ماكرة ليشاكسها وهو يقول: «**وهل أنتِ تعلمين كيف؟**».

«**يحيى، أنا لا أمزح، أنا أريد أطفالًا. أنا أحبك، يحيى، ولن أتحمل**».

فقال بعد أن فهم مقصدها: «**حنين، لا تخلطي الأمور. لكل واحد ظروفه**».

فقالت وقد بدأت الدموع تظهر في عينيها: «**لا، يحيى، أنت تبتعد عني. أنت تتجنبني منذ يوم زواجنا**».

رد يحيى بدهشة من تفكيرها، ليقول: «**ما الذي جعلكِ تقولين هذا الكلام، حنين؟! أنا لم أبعد عنك يومًا. ما الذي جعلكِ تتخيلين ذلك؟**».

بدأت تبكي وهي تقول بتوتر: «**نعم، منذ يوم زواجنا ابتعدت عني ولم تحاول الاقتراب مني. أخبرني ماذا اكتشفت**».

استوعب ما تفكر فيه، وصُدم لعدم إدراكها: «**حبيبتي، ما هذا الذي تقولينه؟**».

«**ألم تقل لي إن ما حدث يوم زفافنا هو الزواج؟ ألم تقل لي إنك تريد أن تهديني طفلًا؟ لماذا لم تقرب مني ثانية؟ ما... ماذا أبعدك عني؟**».

وضع يحيى يديه على كتفيها وهو يحركها وقد بدأ يستفزه كلامها: «**أنتِ يا بلهاء، ما هذا الذي تقولينه؟! حنين، أنا فقط أعطيكِ الفرصة للعودة لحالتك الطبيعية، أنا لا أريد أن أنهك مشاعركِ معي وأنت غير مستعدة لذلك**».

«**وتركتني بعدها ولم تعد تحاول الاقتراب مني. لماذا تتجاهل وجودي؟**».

«**بالله عليكِ كفاكِ سذاجة إلى هذا الحد. لا تستوعبين، لم أكتشف شيئًا، حنين. أفهمتِ؟**».

نظرت له والدموع تنهمر من عينيها: «**أنت... أنا كنت... هل يعني..؟**».

ضمها إليه لتخفي وجهها في صدره كما اعتادت، وسند وجهه على شعرها وهو يقول بهمس: «**حنين، ماذا تخيلتِ؟ لم يقربكِ غيري. ولو كان حدث لكنت قطعته وشربت دماءه أمامكِ قبل أن أسلمه للشرطة بيدي. حنين، ما تقولينه الآن يجعلني أتأكد أن قراري هذا سليم، أنتِ تحتاجين فترة قبل أن نعيش حياة طبيعية معًا**».

لتقول بعنف وهي تقاطعه وتبعد رأسها عنه:

«**لا، أنا لا أحتاج لأي فترة، أنا أريد طفلًا. أنت تتهرب حتى لا تأتي لي بطفل، وتتزوج بأخرى**».

أخذها تحت ذراعه وهو يضحك، واتجه بها إلى داخل المنزل قائلًا: «**هذا الأمر نتحدث فيه في غرفتنا، وليس في الحديقة يا ساذجة**».

في غرفة المكتب، جلس معاذ بجوار كريمة ليبدأ الحديث:

«**أردت أن نتحدث بمفردنا حتى لا أجرح أحدًا بكلامي. اعذريني، لم أستطع طلب الزواج من سلمى أمام رحمة؛ هي عِشرة عمر، ولن أخجل أن أقولها لكِ، رحمة بالنسبة لي كأمي؛ وجودها في حياتي ليس فيه نقاش. أشعر بها دون أن تتحدث...**».

حاولت كريمة الحديث، ولكن صمتت عندما وجدته يكمل:

«**رحمة قالت ما يكفي من الكلام وطبيعة ظروفنا وما سيكون. ولكني أردت الحديث معكِ بمفردنا لكي أُطمئن قلبك؛ فأنتِ تعلمين مكانتكِ في قلبي. خالتي، أنا لو لم أحمل أي مشاعر تجاه سلمى، لما أخذت هذه الخطوة. رحمة فعلًا أجادت الاختيار بالضبط كالأم التي تبحث عن**

عروس لابنها. سأقول لكِ ما قلته لسلمى، لو لم تكن رحمة ظهرت في وقت ما في حياتي، لكانت سلمى مكانها الآن، ولكنها أقدار. أعدكِ أن أحاول بقدر استطاعتي إسعادها وعدم ظلم إحداهما».

قالت كريمة بجمود: «**وهل ستستطيع أن تعدل، بني؟**».

أخذ نفسًا عميقًا وهو يقول: «**سأحاول**».

«**والحب هل ستعدل فيه؟**».

«**القلوب بيد الله. ليس بيدي، ولكني أعدكِ لن أجعل إحداهما تشعر به**».

وصمت قليلًا قبل أن يقول: «**هل وافقتِ، خالتي؟**».

لتقول بحسرة: «**وافقت منذ أن أخذت رحمة بين أحضاني، وافقت أن تكون هي الأخرى ابنتي، وافقت من أجل أمك صفاء - رحمها الله -**».

ابتسم معاذ براحة قائلًا: «**أراح الله قلبكِ، أمي**».

ووقف ليفتح باب الغرفة، وخرجا منها. وبمجرد أن خرج لم يحاول النظر لأحد، ليأخذ نفسًا عميقًا وهو يقول: «**ما طلباتكِ، سلمى؟**».

لم تفاجأ سلمى، وكأنها كانت تنتظر أن يسألها أحد هذا السؤال، لتقول: «**لا أريد الزواج مباشرة. أريد فترة عقد قران أولًا لأعتاد الأمر**».

رد معاذ بهدوء: «**حقك**».

لتكمل دون النظر لأحدهم: «**أريد أن نسافر بعد الزواج فترة ولو قصيرة، بمفردنا، أنا وأنت فقط**».

أغمضت رحمة عينيها بشدة، وقالت حنين هامسة لسلمى: «**جاحدة**».

لم يرد معاذ، وإنما ردت رحمة لترفع الحرج عن معاذ، وقالت: «**حقك**».

قالتها كما قالها معاذ سابقًا بنفس الطريقة، وكأنها خرجت منه هو، ولم يعقب معاذ على كلمتها، لتستمر سلمى في الكلام: «**لا أريد الخروج من هذا المنزل، أنا لن أستطيع أن أمضي أي يوم بمفردي وأنت مع زوجتك**».

لم يجد معاذ ما يقوله، فدار وقد أبعد سترته بيده للخلف ووضع يده في خصره وهو يحاول أخذ أنفاسه. رأف يحيى بحاله، فقال لأخته: «**سلمى، أي يوم لا يكون معاذ موجودًا به معكِ، يمكنكِ في المجيء هنا**».

وبعدها تم تحديد موعد عقد القران بعد أسبوع، وذهب كل منهما إلى مرساه.

في مرسى يحيى وحنين، وبمجرد دخولهما الغرفة، وقفت تضم ذراعيها أمام صدرها وتنظر إليه بتحدٍّ: «**أخبرتني أننا سنتناقش في غرفتنا**».

لم يرد عليها، وبدأ في خلع ملابسه واتجه لخزانة الملابس ليجدها تسرع وتقف أمامه وهي تقول: «**يحيى، لا تتهرب مني، تحدث معي كما أتحدث معك**».

أبعدها بيده وهو يخرج ملابسه ليكمل ارتداءها، فصاحت قائلة: «**لماذا لا تريد أن تجعلني أمًّا؟**».

رفع يحيى حاجبيه بدهشة وأكمل ارتداء ثيابه وهو يقول: «**هل تعرفين معنى كلامكِ هذا؟**».

قالها وهو يغمز لها بطرف عينه، لكنها لم تبالِ وأكملت:

«**إن لم تجعلني أمًّا، فأنا سأخبر والدتك أنك لا تستطيع أن تجعلني أمًّا**».

وهنا رمى يحيى قميصه بعيدًا قبل أن يكمل ارتداءه، ودفعها ليلتصق ظهرها بالخزانة، أمسك يديها وثبتهما جانبًا، ففتحت عينيها باتساع من المفاجأة، ليقول لها وقد ارتسم على وجهه الجمود:

«**ماذا ستقولين لأمي؟ أعيدي ما قلتِه مرة أخرى لأسمع**».

الفصل الخامس عشر

أدركت حنين أنها أخطأت في شيء، فبلعت ريقها وهي تقول بتوتر: «**هل قلت شيئًا لم يكن يصلح للقول؟**».

حاول كتم ضحكته وهو يقول: «**أجل، 'لا تستطيع' هذه تضيع فيها رقاب**».

رمشت بأهدابها تحاول الاستيعاب لتقول ببساطة: «**إذًا قل لي ما يمكن أن أقوله لها**».

ابتسم بحنو، فقد عجز عن التعامل معها وهي بهذه البراءة، ليقول وقد حاوطت يداه خصرها: «**أخبرِك، أنتِ فعلًا معكِ حق، لا بد أن تخبريها. عند ذهابي للعمل غدًا، اذهبي لها في غرفتها، بعيدًا عن سلمى. أفهمتِ؟**».

حركت رأسها بالفهم، ليكمل: «**تخبريها أنكِ تريدين ماذا؟**».

«**أريد أطفالًا**».

«**لا، أنتِ سوف تخبرينها أنكِ تريدين معرفة كيف يأتي الأطفال**».

«**ولكنك أخبرتني، يحيى**».

قالتها ببراءة وهي تحاول ألا تنظر لعينيه، فرد عليها وعلى وجهه ابتسامة: «**هي ستخبركِ أفضل مني؛ فأنا ليس لي في النظري إطلاقًا**».

«**ولكن، يحيى، أنا أخجل منها**».

ورغم بساطة كلماتها، فإنها حملت له معانيَ كثيرة، ليقول:
«**أتخجلين من أمي ولا تخجلين مني، حنين؟**»

لم ترفع نظرها له وقد اعتدلت بين ذراعيه لتسند جبهتها على صدره وهي تنظر للأسفل، وتريح يدها بجوار قلبه وهي تقول:

«**هي أخبرتني يوم زواجنا بهذا، عندما جاءت إلى الغرفة بعد صراخي**».

ليقول باستفسار: «**وماذا قالت لكِ؟**».

تحدثت وهي لا تحاول رفع رأسها: «**قالت إني لا يجب أن أخجل منك، وإني يجب أن أتحدث معك في كل شيء مهما كان لأنك زوجي**».

ابتسم وهو يقول: «**أمي لخصت المفيد بلباقة يا حنين. واضح أنها مؤدبة**».

نظرت له بدهشة وهي تقول: «**ماذا تقصد؟**».

رد عليها وهو يضحك بشدة: «**أقصد أنكِ تحتاجين أحدًا قليل الحياء، حنين، وليس أمي**».

الحب كالماء مهم للحياة، فمن دونه سنصبح كالأرض البور، رغم أنها ما زالت موجودة فإنها لا تصلح لأن تخلق بداخلها حياة جديدة. فالحب حياة، لا يوجد روتينية في الحب، فدائمًا يحتاج أن نعبر عنه ليتنفس ويخرج من داخلنا ليستنشق الهواء. ليس مهمًّا أن يكون حبًّا أفلاطونيًّا، ولكن فقط أخبر من تحب بما في قلبك،

أعطِه إشارة البدء، أرشده ليستطيع الوصول إليك بسهولة، ولا تتركه يضل الطريق.

نفذت حنين ما طلبه منها صباحًا، وذهبت لغرفة كريمة وقالت كما أخبرها بالضبط. وبعد سماع كريمة لها ابتسمت، وأخذتها تحت ذراعيها لتقول بود:

«**لماذا لم تأتي لي من البداية، ابنتي؟ ألستُ أمكِ التي ربتكِ، حنين؟ أتخجلين من سؤالي في أمور كهذه وتجعلين هذا الولد يتلاعب بكِ بهذا الشكل؟ ولكن هو من جنى على نفسه. أنا سأخبركِ ماذا يجب أن تفعلي معه**».

عاد معاذ من عمله ليجد رحمة في أبهى زينتها المنزلية، فلقد أطلقت العنان لكل ما فيها كي تكون في أوج حالاتها، وبمجرد دخوله المنزل قال وقد علت وجهه ابتسامة رضا وسعادة: «**واضح أنه موسم الأناناس**».

لتقول بتلاعب: «**هكذا بدأت تفهم وجهة نظري جيدًا**».

«**المشكلة أني فهمتها من البداية، أن زوجتي تريدني أن أتذوق نكهة أخرى. ولكني الآن أريد تذوق الأناناس**».

قالت محاولة التجاهل: «**لقد أعددت لك الطعام الذي تحبه**».

فقال وما زال يجذبها إليه بمشاكسة: «**أنا أحب أن آكل الفاكهة أولًا. أنتِ تعلمين**».

وكالعادة ضاع الاثنان في عالمهما الخاص، فهذا العالم بالذات لا يمكن أن يكون إلا لاثنين فقط، محاولين تجاهل ما هما مقبلان عليه.

أنهى يحيى عمله، وكل ما كان يشغل باله وهو في طريق عودته للمنزل سلمى، قطعة السكر التي تذوب رقة وبراءة، كيف ستكون حياتها بهذا الوضع الغريب؟ لا يخشى عليها لحظة من معاذ، فهو يعرف صديقه جيدًا ويعلم أنه مستحيل أن يجرحها، ولكن بأي حال الوضع ليس طبيعيًّا، يشفق على رحمة التي تبدو في أشد قدراتها على ضبط النفس، حزين عليها، إنها شريكة رحلة طويلة، وضعتها الظروف في طريقه لتصبح شريكة فعلية له، واليوم مطلوب منه أن يقتنع أنها ستشارك أخته أيضًا في زوجها!.. «**يا ألله! ماذا يحدث لنا؟!**».

ليعود بذاكرته وهو يقود السيارة كيف تعرف عليها:

رحمة الفتاة المتوهجة، أنيقة، جذابة، كانت تلفت الأنظار إليها بعنفوانها وتفوقها، ولكن يخشى الجميع الاقتراب منها، تعرف جيدًا متى تضع الحدود، يشاء القدر أن يشعر بالمسئولية تجاهها، هذه المكافحة التي تحمل عبء مصاريف دراستها، الوحيد الذي خصته بمعرفة ظروفها، ليتذكر جملتها التي قالتها له يومًا:

«حظي أوقعني فيك يا رفيقي؛ فقد أكرمني الله بظهورك في حياتي لأشعر أن لي في هذه الدنيا أخًا».

ذهب له معاذ يومًا صدفة في كلية الهندسة، تذكر أول مرة رأى فيها معاذ رحمة، كيف وقف أمامها، كيف كان ينظر لها، كيف رأى عينَي صديقه تلمعان وهو الذي لم يرَه بهذه السعادة منذ وفاة والدته، ليصبح من وقتها معاذ زائرًا مستمرًّا لكلية الهندسة، من أجل صاحبة العينين الزرقاوين.

وبعد فترة أمضاها في الطريق مع ذكرياته، وصل المنزل وبحث عن حنين كعادته منذ زواجهما، مجرد عدم وجودها أمامه يقلقه، لتقابله أمه وهو يصعد السلم قائلًا:

«**كيف حالكِ، أمي؟**».

«**بخير، حبيبي. هل أحضر لك الغداء؟**».

ليقول وهو يصعد السلم بإجهاد: «**لا، أمي، سأبدل ملابسي أولًا وأرتاح قليلًا، وبعدها سآكل مع حنين**».

لتقول أمه وهي تبتسم بمكر: «**كما تحب، بني. لكن أحذرك أن تأكل حنين نفسها**».

وقف لينظر لأمه بدهشة وهو يقول: «**لست جائعًا لهذه الدرجة، أمي!**».

لتقول كريمة وهي تتجه للمطبخ: «**أشك في ذلك**».

صعد يحيى السلم وهو يقول لنفسه: «**هل يظهر عليَّ الجوع هكذا؟**».

وبمجرد أن فتح باب غرفته، أغلق الباب بقدمه وهو يتحرك بصدمة لا يستوعب ما يراه؛ فقد كانت ترتدي قميصًا قصيرًا قرمزي اللون. نجمته العالية واضح أنها – وبفعل فاعل هو عرفه للتو –

قررت أن تتخلى عن براءتها لتظهر أمامه هكذا. أجل، إنه لم يرَها أبدًا بهذه الصورة، هو لم يتخيلها حتى في أحلامه، ليقول لنفسه:

«**ما هذه السذاجة؟! أحافظ عليها من نفسي حتى في أحلامي؟!**».

وقف يتأملها دون أن يتكلم، وكأنه يخشى انتهاء المشهد. انتبهت أخيرًا إليه، ومع ذلك استمرت في اللعب في هاتفها وكأن الأمر طبيعي وهي تقول: «**مساء الخير، يحيى**».

ظل صامتًا ينظر لها، لم يكن يعلم أن شعرها المتمرد بسواد ليله إذا أعطاه أحد الفرصة للانطلاق فسيكون كالأشواك في قلبه تدعوه لاستنشاق زهرته، أهكذا يكون هذا الجسد الرقيق عندما يطلق له العنان لارتداء مثل هذا الثوب؟ ليقول وهو ما زال مشدوهًا: «**ما هذا، حنين؟!**».

قالت ببساطة: «**ماذا تقصد؟**».

«**ما هذا القميص الذي ترتدينه؟!**».

لتقفز من على الفراش وهي تقول: «**آه، آسفة. لقد نسيت الروب**».

«**حنين، من أين لكِ هذا القميص؟!**».

ابتسمت ببراءة متناهية وهي تقول بسعادة: «**لا، إنها أكثر من واحد. أمي أحضرت لي الكثير، وقالت إنها قررت أن تحضر ما نحتاجه كله أنا وسلمى معًا**».

وضحكت بطفولية وهي تضرب كفًّا بالآخر وهي تقول:

«**والدتك قالت إنها ستحضر كل شيء أحتاجه، حتى وإن كنت أنت لا تستحق**».

اقترب منها وهو يحاول تمالك أعصابه بقدر الإمكان:

«**أمي تلعب بالنار، حنين. ماذا قلتِ لها؟**».

اقترب منها أكثر ليأخذ الروب من يدها وهي ترتديه، ويرميه بعيدًا:

«**وكيف أقنعتْكِ بارتداء هذه الملابس؟**».

«**أبدًا، أخبرتني أن ما كنت أرتديه لم يعد يصلح بعد أن أصبحت زوجة**».

ضمها إليه ووضع رأسه في هذا الشعر كما تمنى عندما دخل الغرفة، ليكمل حديثه: «**وماذا بعد هذه الملابس؟ ماذا أخبرتكِ أيضًا؟**».

«**لا شيء**».

أبعد رأسه عنها ليعيد ما قالت بصدمة: «**لا شيء؟!**».

«**نعم، لا شيء**».

«**إذًا أمي تلعب بي، وتنتقم من زواجي منكِ بعيدًا عنها. فما رأيكِ أنت؟**».

لتقول ببراءة: «**أنا ماذا؟! لا أعرف**».

«**ألم تكوني مصرة على طفل من عدة أيام؟**».

ابتسمت ببلاهة وهي تخبره ما قضى عليه: «**لا، يحيى. أجلت الأمر. أنسيت آخر جلسة مع الدكتورة؟ أخبرتني أن هذا أفضل حتى لا أضر الطفل، وأن أمامي فترة حتى لا يحدث انتكاسة**».

تحررت منه بسهولة بعد صدمته، وابتعدت عنه حتى لا يرى ابتسامتها الخبيثة، والتي لم تستطع إخفاءها أمام رد فعله المصدوم،

ليدخل بعدها مباشرة دورة المياه ويأخذ حمامًا باردًا ويرمي نفسه على الفراش لينام، ولم يفكر في الأكل، ولم تسمع له صوتًا مرة أخرى حتى الصباح.

أما كريمة، فانتابها الضحك عندما أخبرتها حنين في اليوم التالي رد فعله على خطتها معها، التي قررت أن تعيد بها تربيته، وتعطي هذه الفتاة فرصة للثقة بنفسها.

مساءً، بعد انتهاء معاذ من عمله، وأثناء قيادته للسيارة، وجد اتصالًا على الهاتف رغم أنه غير متوقع فقد أسعده: «**أهلًا، سلمى. كيف حالكِ؟**».

«**كيف حالك، معاذ؟ أم أظل أقول: 'دكتور'؟**».

ليضحك قائلًا: «**أنتِ كنتِ تقولينها مرة وأخرى لا، سلمى**».

لتقول بخجل: «**شككت كثيرًا في عدم انتباهك**».

«**إذًا كنتِ تقصدينها**».

«**صدقني، لا. هي كانت تخرج بمفردها**».

ضحك من ردها البسيط وهو يقول: «**ما زلتِ كما أنتِ، سلمى، لم تكبري**».

فقالت بعتاب: «**لذلك لم تحاول التحدث معي وستأتي بعد يومين لعقد القران!**».

فقال لها بتفهم: «**لا، سلمى. كنت أنتظر فقط عقد القران؛ فنحن إلى الآن لا يربطنا شيء رسمي**».

فقالت وهي تضحك: «**هل كنت تنتظر عقد القران؟ أم أن تأتي من عند الله وتتخلص مني؟ أعتقد فاجأتك بالموافقة**».

قال وما زال على هدوئه المعتاد: «**وهل يصح هذا الكلام، سلمى؟**».

ردت بتوتر: «**لم أقصد. لكن أنا فقط كنت أنتظر أي مكالمة منك تُشعرني أن وجودي أصبح يهمك**».

«**مؤكد وجودكِ يهمني**».

«**ولكن لماذا أشك أنا في ذلك؟**».

«**وإذا كان هذا رأيك، فلماذا وافقتِ على الزواج بهذا الشكل؟**».

قالت بحزن: «**ربما يأتي يوم وأخبرك فيه إجابة هذا السؤال**».

«**ولماذا لا الآن؟**».

فقالت بأسى: «**لأنك بكل بساطة إلى الآن تتعامل معي على أني سلمى أخت صديقك، التي تهربت منها منذ سنين معتقدًا أنها مراهقة. ولكن حظك العاثر أوقعك بها مرة أخرى. وهي ما زالت كما هي، معاذ، كبرت ولم تتغير مشاعرها**».

أثر فيه كلامها وكأنها تتوسل منه الحب، ليقول محاولًا طمأنتها: «**أعدكِ سيختلف الأمر. أنا أعلم أنكِ ليس لكِ ذنب، ولكن هذا هو وضعي وظروفي. لم أخدعكِ. لا أستطيع تغيير وضع اعتدت عليه بهذه السهولة، وأنتِ أيضًا، بدليل طلبكِ عقد القران فترة. أليس كذلك؟**».

«**عندك حق، معاذ. هيا، لنغلق الخط. مؤكد اقتربت من المنزل**».

قال بتعجب: «**كيف عرفتِ؟! أنا فعلًا أركن السيارة**».

ليستمع لضحكتها بشقاوتها المعهودة كما عرفها منذ أن كانت طفلة: «**أعلم موعد خروجك من المشفى، وتغادر للمنزل مباشرة، والمسافة نصف ساعة بالضبط**».

رفع حاجبيه بذهول ليقول: «**أنتِ لستِ هينة يا فتاة**».

«**أنت فقط لا تقتنع أني كبرت. هيا، معاذ، حتى لا تتأخر على رحمة. سلام**».

أغلقت الخط وتركته في حيرة؛ كيف سيتعامل معها ومع هذا الوضع؟

وجاء اليوم المنتظر، وبرغم محاولة الجميع خلال الفترة السابقة التعامل وكأن الأمر عادي، فإن مجيء هذا اليوم وترقب الأمر مربك؛ كريمة تحاول أن تنفذ وصية رحمة بأن تفصل بين وجودها والوضع الجديد، حنين تزداد توترًا وهي تشاهد فرحة سلمى وتعاملها مع الوضع وكأنه طبيعي، يحيى تربكه حالة زوجته أكثر، أما معاذ فقرر أن يمضي اليوم كغيره من الأيام، ليس لشيء إلا لأجلها هي. رحمة:

«**ماذا تفعل، معاذ؟**».

«**ماذا هناك، رحمة؟ سأذهب للمشفى**».

«**اليوم؟!**».

«**وما به اليوم؟! كأي يوم**».

لتقول محاولة التماسك، فهو يشعر بارتباك عينيها: «**لا، معاذ، ليس كأي يوم**».

«**لماذا؟ ألن تذهبي للشركة؟**».

ردت بتوتر: «**لا يوجد شيء مهم اليوم، سأعمل على الحاسوب، و... وربما تحتاج مني شيئًا قبل أن ترحل**».

قال بشك: «**قبل أن أرحل كيف؟ ألن تأتي معي؟**».

«**لا تشغل بالك اليوم بي، ما دمت أنت ستذهب للعمل حاول ألا تتأخر اليوم**».

ورفعت وجهها إليه لتضع قبلتها على وجنته وتبتعد. أما بالنسبة له فكانت كلسعة النار، ليغادر وهو يقول لنفسه: «**حتى قبلتكِ، رحمة، تستطيعين التعبير بها**».

الفصل السادس عشر

أمضى معاذ يومه كالمعتاد، وفعلًا لم يحاول التأخر في العمل. وأُثناء عودته، اتصل بسلمى التي ردت بسعادة قائلة: «**ما هذا؟ هل اليوم عيد؟ ما هذا الكرم، دكتور؟!**».

«**كيف حالكِ يا شقية؟**».

«**بخير الحمد لله، أنتظر عريسي**».

«**هل جهزتِ نفسكِ؟**».

«**وكيف أجهز؟**».

«**كأي فتاة، سلمى... جهزتِ الفستان؟**».

«**عندي فستان، لا تقلق، مؤكد لن أحضر بالملابس الرياضية**».

«**هذا صوت جرس الباب. أليس كذلك؟**».

قالت بتلقائية: «**لا تقل إنك تنازلت وجئت الآن لتراني**».

دخلت حنين الغرفة بعد ثوانٍ تحمل حقيبة وضعتها على الفراش، واقتربت تقبل وجنتها وهي تقول: «**مبارك يا عروس، واضح أن معاذًا قرر يبهرنا الأيام القادمة**».

غادرت وهي تعلم أنه من المؤكد هو من على الهاتف.

لتقول سلمى مدهوشة: «**ما هذا، معاذ؟!**».

«**افتحيه. أريد أن أعرف رأيكِ. هيا وأنا معكِ**».

فتحت سلمى الحقيبة لتنبهر بفستان يأخذ العقل بلونه المميز.

قالت بصدمة: «**ما هذا، معاذ؟ أين وجدته هذا؟**».

«**ألم يعجبك؟**».

«**بالطبع أعجبني. أنا لم أرتدِ هذا اللون من قبل**».

ضحك قائلًا: «**جربيه، سلمى. وإن لم يعجبك فلا عليكِ، ارتدي ما جهزتِ، لا مشكلة بالنسبة لي**».

لتقول بارتباك: «**كيف تقول ذلك؟! أنا فقط..**». وصمتت بعدها.

«**أنتِ ماذا؟!**».

قالها يشعر بالحزن أنه لا يستطيع إسعادها، لترد قائلة: «**أنا أخشى ألا يكون مقاسي**».

سألها بدهشة: «**ولماذا تتوقعين هذا وأنتِ لم تجربيه بعد؟**».

قالت بارتباك: «**أبدًا. لأن... لأن مقاسي أكبر من مقاس رحمة. مؤكد أنت معتاد على ما يناسبها**».

أطلق معاذ ضحكة أربكتها ليقول: «**جربيه، سلمى، لن تخسري شيئًا. أليس كذلك؟**».

«**مؤكد سأجربه. معاذ، هل أفسدت عليك المفاجأة؟**».

«**لا، أبدًا. أنا فقط، وبعد توقعاتك المرئية هذه، متأكد أنه سيعجبك؛ لأنني بمجرد أن رأيته شعرت أنه صُمم من أجلكِ**».

لتقول بابتسامة تخشى أن يراها: «**لماذا؟**».

«**سأخبركِ عندما تخبرينني ما أجَّلتِه المكالمة السابقة**».

«**هل هذا مقابل ذاك؟**».

«**اعتبريه كذلك، ولكن أعدكِ كرمًا مني أن أخبركِ أنا أولًا**».

صمتت ولم ترد، فقال: «**هيا اذهبي لتجهزي نفسكِ**».

أغلق الخط، ذهب وتركها تعيد كلامه مرة أخرى وكأنها تحفظه، تحلم بأي شيء يرضي شوقها لهذا اليوم.

وصعد هو منزله وداخله شعور أنه لآخر مرة سيصعد وهو هذا الشخص. استقبلته ككل يوم، لم يحاول كلاهما أن يُشعر الآخر بشيء، وبعد تناول الطعام استراح قليلًا، لتقول بهدوء: «**معاذ، هيا، استعد حتى لا تتأخر**».

«**ألن تأتي، رحمة؟**».

«**ليس هناك داعٍ لوجودي اليوم**».

نظر لها بتأنيب وكأن لسانه يقول: «**لماذا فعلتِ بنا ذلك؟**».

أبعدت نظرها عن عينيه لتقول: «**ليس من أجلي فقط، صدقني. من أجلها؛ حقها ألا تشعر أني أراقبها. وجودي محرج للجميع، حتى أنت. مرر الأمر اليوم، ولا تشغل بالك بي**».

ظل يتأملها وكأنه يريد الدخول في أعماقها، ولكنها هربت من عينيه واتجهت للفراش، ووضعت الحاسوب على رجليها وانهمكت في العمل.

حاول أن يتعامل بطبيعية، نظر إليها بتعمق وهو يغلق أزرار قميصه ويقول: «**رحمة، من فضلكِ أحضري لي حقيبتي من الخارج**».

وضعت الحاسوب جانبًا وقامت بهدوء، وعادت ووضعت الحقيبة أمامه على حافة الفراش، وقبل أن تجلس مره أخرى قال: «**رحمة، من فضلكِ، الساعة من الدرج**».

أحضرت له الساعة وألبستها له، وعدلت من قميصه كما تفعل، فهي دائمًا تهتم بتفاصيله. بعدها وقفت على أطراف أصابعها لترفع رأسها وتطبع قبلة على وجنته، واتجهت للفراش مرة أخرى لتجده يسير وراءها ويجلس قبل أن تحمل الحاسوب، ظل ينظر لها بصمت، فقط تتبادل النظرات، ليجذب حقيبته من بعيد حتى تصبح بجوار يده على الطرف الآخر، وفتحها بعملية وكأنه سيقوم بالكشف على أحد المرضى، دُهشت لتركيزه المبالغ فيه. وعندما أدرك أنها تحاول فهم ما يريد، جذب يدها واحتضنها بين كفيه وظل ينظر لها ولم يحاول الكلام. كان يمسك كفها بشدة وكأنه يخشى هربها منه، لتجده فجأة أخرج بيده الأخرى إحدى الحقن الجاهزة من حقيبته، وبكل سرعة ومهارة طبيب محترف حقنها في ذراعها قبل أن تستوعب ما يحدث وهي تبتسم، لم تحاول مقاومته أو جذب ذراعها، إنها الثقة حتى لو كان ما يحدث غير منطقي، فثقتها فيه لا تجعلها تقاومه حتى لو كان يقتلها، حتى لو كان كل شيء لا يبدو طبيعيًّا، لتقول بابتسامة:

«**معاذ، ماذا تفعل؟ أهي حقنة الرحمة؟!**».

مال مقبلًا يدها مكان الإبرة، ووضع يده الأخرى خلف ظهرها، فقد بدأ رأسها في الدوران، ليقول وهو يقربها من صدره: «**عذرًا، حبيبتي. لا أستطيع تركك بهذه الحالة**».

ابتسمت لتقول بصعوبة: «**أتخدرني، معاذ؟!**».

ساعدها في التمدد على الفراش، وظل يحتضنها إلى أن تأكد من انتظام أنفاسها وضربات قلبها، ليلمس بشفتيه شفتيها، ولأول

مرة لم يستطع تقبيلها وكأنه يخجل من نفسه. اعتدل في جلسته جوارها ليتأكد من سلامة نومها، أبعد الحاسوب ودثرها بالغطاء جيدًا، وأخذ بعدها حقيبته وسترته وانصرف في هدوء، وهو يقول وكأنها تسمعه: «**سوف تستيقظين لتجديني جوارِك، حبيبتي**».

بعد أقل من ساعة كان معاذ قد وصل لمنزل العائلة، فتح له يحيى الباب. بمجرد أن رآه كان السؤال المنطقي الذي توقعه: «**أين رحمة؟!**».

رد عليه معاذ بكل بساطة: «**خدرتها**».

ظل يحيى ثابتًا أمامه وما زال ممسكًا بالباب وعلامات الذهول عليه، لتأتي حنين من خلفه وتسأل نفس السؤال: «**أين رحمة؟!**».

رد نفس الرد: «**خدرتها**».

ولكن حنين لم تصمت، لتقول بسخرية: «**ماذا؟! أتريد أن تكون بحريتك لهذه الدرجة، دكتور؟!**».

ظل صامتًا ليجد يحيى يجذبه من ذراعه بقوة، بعدما استوعب فعلته، وهو يقول:

«**ماذا تقول؟ لماذا فعلت ذلك؟ ما بال أن الأمر كله بعلمها وموافقتها؟!**».

أخذ معاذ نفسًا عميقًا ورد عليهما بهدوء: «**أيجوز وأنا طبيب أن أقوم بعملية جراحية باستئصال جزء من جسد إنسان دون تخديره؟! هذا ما فعلته. لم تكن لتأتي معي، وحتى لو كان عندها هذه الجرأة فلن أعرض قلبها لهذا الوجع. فقط أردت ألا تشعر بالوقت حتى أعود**».

صمت قليلًا أمام صدمتهم، ليكمل بأسى: «**خشيت أن تفعل بنفسها شيئًا**».

تركه يحيى ليدخل، وأمسك بيد حنين التي بدأت ترتجف، ولكنها قالت قبل أن يدخل معاذ: «**وماذا ستفعل يوم الزفاف يا دكتور؟ هل ستوقف عنها أجهزة الإنعاش رحمةً بحالها؟! ستوقف قلبها لتخلصها من الحياة؟!**».

جذبها يحيى لتبتعد من أمام معاذ الذي نظر لها بعتاب وهو يقول: «**مؤكد هناك حل، حنين**».

ليذهب مباشرة لكريمة التي كان ردها بعدما علمت ما فعله مفاجئًا للجميع:

«**خير ما فعلت، بُني**».

كان قد حضر القليل جدًّا من أقاربهم المقربين ومن أصدقائهم، وعلى رأسهم باسم الذي بالطبع سيشهد على العقد هو والمحامي الخاص بيحيى ومعاذ.

حضر المأذون. وظهرت العروس التي انتظرها الجميع لتخطف الأنفاس وهي تنزل السلم، انتفض معاذ واقفًا بمجرد أن شاهدها في الفستان الذي اختاره، أبهرته أكثر مما تخيل، هو فعلًا صُمم خصيصًا لها. ومع كل درجة تهبطها، كان بغير إرادته يقوم بالمقارنة ولا يعلم هي لصالح من.

إنها أقصر من رحمة، ممتلئة فعلًا أكثر منها شيئًا ما. فكر في ذلك فعلًا عندما اشترى الفستان، ليبتسم يخبر نفسه أنه لم يكن هناك داعٍ لخوفها.

تأملها في الفستان بلونه الكناري، لقد قصد البحث عن هذا اللون بالتحديد. ضيق من أعلى لأسفل لدرجة أبرزت أنوثتها كما لم يتصور، رغم شريطه الساتان من الوسط الذي يحمل خلفه ذيلًا واسعًا من الشيفون يمتلئ بالزهور، ليحاول إخفاء أي شيء من هذا الجسد الملفوف، ليقول لنفسه بتأنيب: «**واضح أني أسأت اختيار الفستان**».

ومع قربها منه تأمل شعرها المنساب بهدوء خلف ظهرها، لأول مرة يراها تتركه بحرية. يا ألله! إنه ينافس الذيل طولًا! حقًّا يجعلها كالفراشة.

وبمجرد وقوفها أمامه قال لنفسه: «**إنها حقًّا برائحة المانجو**».

جلس الجميع وبدأت إجراءات عقد القران، وقد ظهر على الجميع علامات الفرح، وخاصة كريمة التي كم تمنت منذ صغره أن يكون زوج ابنتها! ولكن كان له اختيار آخر لتصمت وتدفن هذا الحلم مع صديقتها.

وضع يحيى يده في يد رفيقه كوكيل للعروس، شعر الصديقان برهبة الموقف، وتحدثت العيون، اثنتان بالرجاء والأخريان بالوعد، ليبدأ المأذون بالحديث، ليقول كل منهما ما يخصه. أنهى المأذون العقد أخيرًا ليبارك لهما وهو يغلق الدفتر.

لحظات اهتز لها قلب سلمى وهي ترى حلم حياتها يتحقق. أما معاذ ويحيى فقد وقفا وما زالت يداهما مشبوكتين، ليحتضنا بعضهما البعض أخيرًا.

ليقول يحيى بترجٍّ لصديق عمره: «**حافظ عليها. وثقت بك؛ لا تخذلني**».

ليرد بصدق: «**يعلم الله، ستكون في عينيَّ، يحيى**».

بدأ الحضور جميعهم بالتهاني، واتجه معاذ إلى سلمى التي ما انتهى عقد القران حتى جرت ترتمي بين أحضان والدتها تبكي، لتجذبها بعدها حنين تضمها إليها هي الأخرى، وهو يقف خلفهما ينتظر انتهاءهما بتأثر، فقالت حنين لها دون إدراك وجوده خلفهما: «**والله لولا علمي بما في قلبكِ له منذ سنين، لما كنت وافقتكِ أبدًا على ذلك. أعلم كيف يصبح الحب ضعفًا يجعلنا نرضى منه حتى بالقليل**».

«**لا تخافي عليَّ. أنا رضيت بالكثير؛ هذا أكثر مما تمنيت**».

تفاجأت به الفتاتان يجذب سلمى من ذراعها ويقبل جبهتها وهو يقول: «**أنتِ من هي كثيرة عليَّ، سلمى**».

انتفض قلبها لكلماته، لتتأكد أن حديث حنين حقيقي، هي فعلًا أقل كلمة منه ترضيها.

بعد وقت ليس بالقصير، وبين تبادل التهاني والتمنيات وبعض الأحاديث الجانبية، رن جرس الباب. اتجهت حنين لتفتحه، فوجدت أمامها فتاة فاتنة بشعر ذهبي مموج بعشوائية وعينين خضراوين، زينتها كاملة وكأنها هي العروس.

ابتسمت الفتاة بإشراق وهي تقول: «**هل انتهى عقد القران؟ هل تأخرت؟**».

دُهشت حنين من الثقة التي تتحدث بها الفتاة، فقالت: «**عذرًا. من تكونين؟!**».

ضحكت الفتاة بشدة وهي تقول: «**ماذا؟! من أكون؟ ما هذا السؤال؟!**».

قالت حنين وقد بدأت تستفزها هذه الفتاة: «**وهل سؤالي غير منطقي؟!**».

لتقول الفتاة وقد زاد ضحكها بطريقة مستفزة: «**بالطبع غير منطقي**».

تحرك يحيى يرى لمن تفتح حنين الباب، فلقد طال وقوفها، فتفاجأ بالحوار الذي يدور. وبمجرد أن رأت الفتاة يحيى خلف حنين، أبعدتها من طريقها بطرف يدها واتجهت له مسرعة تحتضنه بشدة وهي تقول: «**يحيى، أوحشتني كثيرًا، حبيبي**».

نظرت حنين بذهول لما يحدث وقد جحظت عيناها، ويحيى الذي تجاوب في احتضان الفتاة لم يبتعد عنها أو ينفر من فعلتها وكأنه اعتاد على ذلك، فقالت وقد أوشك قلبها على التوقف وصوتها يخرج بصعوبة: «**من هذي؟!**».

قبل أن يحاول يحيى الكلام، ردت الفتاة بسخرية وبكل بساطة: «**من سأكون مثلًا؟! زوجته**».

ارتبك الجميع بمجرد سماع الحوار، وقبل أن يعلق أحدهم بأي كلمة كانت حنين قد أمسكت رأسها وغابت بوعيها عن الواقع، ليبعد عنه هذه الملتصقة به مسرعًا يلحقها قبل أن يرتطم رأسها بالأرض، وقد أفزعه منظر الدماء وهي تخرج من أنفها.

الفصل السابع عشر

تفاجأ الجميع بنزيف أنف حنين. وأمام غيابها عن الوعي ومنظر الدم، صرخ يحيى في الفتاة: «**لماذا قلتِ لها ذلك؟ لماذا؟**».

أبعدت سلمى الواقفة مذهولة لا تفهم ماذا حدث لكل ذلك: «**ابتعدي يا غبية. ماذا فعلتِ؟**».

لتقول برعب وهي تمسك يدها: «**حنين، لا تصدقيها. افعل شيئًا، معاذ**».

وقبل أن يتحرك معاذ الذي صدمته المفاجأة هو الآخر، كانت كريمة تصرخ في ابنها الذي ظل جالسًا جوارها على الأرض: «**احملها، يحيى، لا تتركها هكذا، تحرك**».

لينفذ أوامر والدته دون تفكير، فحملها وصعد بها للغرفة مسرعًا وكريمة وراءه، أما سلمى فأخذت تصرخ في معاذ وهي تبكي:

«**ألست طبيبًا؟! افعل شيئًا. لن يتحمل قلبها. أرجوك، هي غيري، هي غير رحمة، حنين لا تتحمل ذلك**».

خرج معاذ من المنزل واتجه لسيارته يحضر حقيبته الطبية، ووقفت سلمى تضرب هذه المذهولة على كتفها وهي تقول:

«**لماذا أتيتِ؟! لماذا فعلتِ ذلك بها؟ أنتِ غبية، ستظلين غبية متهورة**».

دخل معاذ ركضًا ليجذب سلمى يبعدها عن الفتاة وهو يقول: «**هيا**». فصعدت معه مسرعة لأعلى متخطية إياها بإهمال. كادت الفتاة تصعد معهم وهي مرتبكة، ولكن سلمى أبعدتها وهي تقول: «**ابعدي من أمامي الآن، وإلا ارتكبت فيكِ جريمة**».

وقالت وهي تجري على السلم وخلفها معاذ: «**بسرعة، معاذ. أم إنك لا تستطيع إلا أن تعطي حقن المخدر فقط؟!**».

لم يحاول معاذ الرد عليها مقدرًا حالتها وقلقها على حنين، ولكنه قرر محاسبتها فيما بعد على هذا الكلام.

في الغرفة، كان يحيى في أسوأ حالاته وهو يرى وجهها الباهت، وأطرافها كالثلج، ولا يقول شيئًا سوى: «**حنين، لا تصدقي. إياكِ أن تصدقي**».

قام معاذ بعمل الإسعافات الواجبة ليضبط لها الضغط؛ فقد ارتفع ضغطها إثر المفاجأة التي لم تتحملها.

في الأسفل حاولت الفتاة الصعود، ولكن منعها باسم وهو يقول لها بابتسامة باردة وكأن ما حدث لا يهمه: «**يا أنتِ، إذا صعدتِ لهم الآن فسوف يقتلونكِ**».

قالت له بغيظ: «**وأنت ماذا تريد؟ ابتعد من أمامي، لا ينقصني إلا أنت**».

قال باسم بابتسامة سمجة: «**ألكِ عين بعد أن أفسدتِ الفرح أن تحدثيني هكذا؟!**».

قالت وقد كادت أن تُخرج غضبها به: «**من أنت من الأساس؟! أنا لا أعرفك**».

ضحك باسم وهو يقول: «**وهل يعرفكِ أحد منهم؟**».

لتصرخ قائلة: «**ابتعد من أمامي. أريد أن أطمئن ماذا حدث لها، ابتعد يا هذا**».

«**أولًا أخبريني، هل أنت زوجته فعلًا؟ أم أرسلك أحدهم؟**».

«**ماذا تقصد؟! أمجنون أنت؟!**».

ليقول باسم وهو ينظر لها من أعلى لأسفل: «**أيكون أمجد مثلًا من أرسلك؟ اعترفي**».

صرخت به وقد بدأت في البكاء وهي تشعر أنها شخص غير مرغوب فيه:

«**أنت يا هذا، أقال لك أحد إنك متطفل من قبل؟**».

أكمل باسم كلامه ببرود وهو يقول: «**ما المانع أن يكون متزوجًا من أخرى؟ فصديقه فعلها. أتعرفين؟ هذان الاثنان من أكثرنا التزامًا، وها هما كل واحد تزوج باثنتين كالصاروخ، وأنا لا أستطيع الزواج بواحدة**».

قالت وهي تمط شفتيها باستياء: «**أتدخل منزل أصدقائك لتعاكس زوجاتهم يا هذا؟!**».

رد عليها فورًا يدافع عن نفسه: «**أبدًا والله. لكن الموقف يستدعي الجنون. أقول لكِ أخبريني من تكونين حتى أعلم كيف أعاملكِ**».

بدأت تبكي أمام منعه لها من الصعود ووقوفه أمام السلم، أجفل وهي تخلع عدستيها اللاصقتين، فقال بصدمة: « **إنهما عدستان! يا ألله! تخفين هاتين العينين الساحرتين كالليل؟! بالله عليكِ طمئني قلبي، أنتِ فعلًا زوجته أم إن شاء الله لا؟**».

ابتسمت بخجل وهي ترمي العدستين أرضًا وتدوس فوقهما، فقال: «**لِمَ هذا العنف؟!**».

« **لأنهما هما السبب**».

«**إذًا أخبريني بالله عليكِ، هل فعلًا أنتِ زوجته؟ أخبريني حتى أعرف ماذا أفعل**».

لتقول له بتوتر: «**وما الفرق؟**».

رد بثقة وبابتسامة منافية لما هي عليه: «**لو كنتِ زوجته، فسأبتعد عنك فورًا**».

ابتسمت بخجل لتمسح دموعها وهي تقول: «**وإن لم أكن كذلك؟**».

عدل من نفسه وهو يقول: «**سأكون وجدت ما أبحث عنه في هذا البيت المبارك إن شاء الله**».

قالت بسخرية: «**أمجنون أنت؟! وجدت ماذا؟!**».

رد بسعادة وهو يقول: «**لا تشغلي بالكِ. أنا عرفت الإجابة، آنسة**».

ابتسمت وهي تقول: «**أيمكن أن أصعد الآن لأطمئن على حنين؟**».

ليجد من خلفه أحدهم يقول: «**اجعلها تذهب تطمئن عليها يا أخي، وكفاك استظرافًا**».

دار باسم باتجاه الصوت خلفه، ليعود وينظر إليها وقد تبدلت ملامحه إلى الجمود وهو يقول: «**اصعدي الآن، آنسة. آه نسيت، أنا باسم**».

نظرت له بعدم فهم، فقال بابتسامة وكأنه يصحح ما قال: «**أنا آسف**».

تركته الفتاة التي لم يعرف اسمها بعد، وصعدت تجري على السلم وعرفت طريقها لغرفة يحيى بالطبع. كيف لا تعرف هذا المنزل جيدًا؟ فهي تقضي فيه أكثر أوقاتها! وبمجرد دخولها الغرفة، وجدتهم جميعًا ينظرون لها شزرًا، فقالت: «**والله لم أكن أقصد. لم أكن أتخيل أنها لم تعرفني**».

كان معاذ يغلق حقيبته وهو ينظر لها بضيق قائلًا: «**أنا نفسي لم أعرفكِ. تخيلي!**».

تحدث يحيى وهو يمسك بيد حنين: «**رهف، لا أريد أن أسمع صوتكِ إلى أن تفيق. هل سمعتِ؟ هي لم تعد تتحمل حماقاتكِ. وابتعدي، لا تجعليها تراكِ الآن**».

تحدثت رهف بقهر وقد بدأت تنساب عبراتها: «**أنا كنت أمزح معها. لم أتخيل أن تقابلوني هكذا**».

اتجهت لها سلمى لتحتضنها: «**ليس الأمر كما فهمتِ، رهف. كيف حالكِ؟**».

جذبتها سلمى لتذهب لكريمة التي كانت تجلس بجوار حنين على الفراش، لتقول كريمة وهي تبتسم للفتاة: «**كيف حالكِ، رهف؟ لن تكبري أبدًا**».

بدأت حنين في استعادة وعيها، وبمجرد أن فتحت عينيها وشاهدتها وسط الموجودين، كادت أن تصرخ، ولكن ضمها يحيى إليه وهو يقول: «**رهف. إنها رهف. انظري لها جيدًا؛ عدستان وصبغة شعر يا حنين، ركزي. كاد قلبي أن يقف. بالله عليكِ**».

اقتربت رهف لتجلس بجوار يحيى تقول بخجل: «**كنت أمزح، حنين. هل ما زلتِ مجنونة بحب هذا المتعجرف؟!**».

أغمضت حنين عينيها بشدة وهي تبكي، ولم يحررها يحيى من أحضانه، أشار معاذ لرهف أن تبتعد ليميل محدثًا حنين بصوت لم يسمعه سوى يحيى: «**أنتِ لا تأخذين الدواء. حذرتكِ من قبل؛ ضغطكِ غير منتظم. إذا استمررتِ على ما تفعلينه فسوف يتزوج فعلًا هذا الذي بجوارك، بعدما تموتين شهيدة حبه**».

ابتعد معاذ ليغادر الغرفة، فأوقفه يحيى وهو يقول: «**معاذ، خذ عروسك كما اتفقنا، لا داعي لتضييع الوقت**».

لينظر لسلمى قائلًا لها بإشفاق بعدما فسد حفلها: «**حنين بخير، سلمى. لا تقلقي عليها**».

ظلت حنين تخفي وجهها بين ذراعي يحيى، فوجه يحيى كلامه لوالدته قائلًا: «**معاذ كان قد طلب أن يأخذ سلمى لتناول العشاء بالخارج، أمي**».

ردت كريمة بود: «**طبعًا، بني. خذ زوجتك وهيا، معاذ، حتى لا تتأخرا**».

غادر معاذ وسلمى الغرفة، وبعدهما جذبت كريمة رهف من يدها لتخرج معها، ولكن رهف اتجهت لحنين واحتضنتها وهي

تقول باكية: «**والله تخيلت أنكِ عرفتِني. افتقدت غيرتكِ وجنونكِ به، حنين**».

لم تحاول حنين النظر إليها، فقامت رهف مع خالتها بحزن. وبمجرد أن خرج الجميع من الغرفة، حاولت حنين الابتعاد عنه، فجذبها يحيى إليه مرة أخرى. لم تحاول النظر له خجلًا مما حدث أمام الجميع، فوضع يده أسفل وجهها محركًا رأسها تجاهه ليجبرها على النظر إليه وهو يقول بابتسامة عتاب: «**ما زلتِ تشكين أني متزوج**».

لم ترد عليه ولم تحاول النظر له، فرفع ذقنها بأنامله وهو يقول: «**أتتخيلين أنه يمكن أن أتزوج غيركِ؟! وصلت بكِ الغيرة إلى ألا تعرفي رهف؟! ما زلتِ تغارين منها كلما اقتربت مني**».

تحدثت حنين أخيرًا وهي تبكي: «**أنا فعلًا لم أتعرف عليها. ألم ترَ ما فعلته بنفسها؟! أنا أشعر أني فقدت التركيز في أشياء كثيرة، لم أركز في ملامحها. بمجرد أن رأيت أمامي فتاة، وقبل أن تتحدث، كل الأفكار السلبية مرت في خيالي**».

نظر لها بعتاب قائلًا: «**أتعلمين ماذا يمكن أن أفعل بكِ إذا تكرر هذا الأمر؟**».

لتقول بطفولية محاولة الدفاع عن نفسها بأي شيء: «**أنت تعلم أنها تعمدت استفزازي**».

«**وهل هي حاولت أن تفعل شيئًا؟! هذه المرة أنتِ من فعلتِ هذا بنفسكِ**».

لتقول ببساطة: «**يحيى، اجعلها تعود لوالدها**».

رد بصدمة: «**حنين، هل أنتِ فعلًا لا تحبين وجودها؟**».

لترد ببراءة: «**نعم، يحيى، هي تعاملك بأريحية دون أي اعتبارات**».

دُهش يحيى ليقول: «**حنين، أنتِ ما زلتِ لا تقتنعين أنها أختي**».

«**لا، يحيى، أنت لا تعرف ماذا كانت تفعل**».

قال بتساؤل رافعًا حاجبيه: «**ماذا كانت تفعل؟!**».

«**كانت تتعمد تقبيلك أمامي لتغيظني**».

ضحك يحيى ليهز رأسه بـ «**لا فائدة**»؛ فهو يعرف تصرفاتهما الطفولية منذ صغرهما، فقالت: «**يحيى، هي كانت تفعل ما لم أستطع فعله! كنت أنا الوحيدة الممنوعة من الاقتراب منك، وأنت أول من منعني**».

ليقول بابتسامة وهو يحاول جرها إلى ما يريد: «**ولنفترض ذلك. ماذا يضايقك منها الآن؟ نحن تزوجنا، ويمكنكِ تقبيلي كما تريدين**».

لم يقاوم خجلها، فقال: «**أبعد كل هذه الغيرة تستطيعين مقاومة وجودي معكِ يا غبية؟**».

لم تنطق حنين بكلمة؛ فهي تعلم مدى ضعفها أمامه.

«**حنين، هل ما زالت الطبيبة تحذركِ؟**».

فهمت ما يقصد، لتبتسم وهي تحاول أن تجد ما تقوله: «**يحيى، هي لم تقل ممنوع**».

ليقول بشك: «**أفهم من ذلك أنه مسموح؟**».

خبأت نفسها بين ذراعيه وهي تهز رأسها إيجابًا، فقال بشك: «**ولكن ما أنتِ قلتِه كان غير ذلك!**».

لتقول بخوف من ردة فعله: «**إنها أمي من قالت لي أن أفعل ذلك**».

اقترب من أذنها ليقول لها بهمس: «**أعلم أنها إرشادات أمي؛ لذا لي حق عندكِ ولا بد من أخذه، حنين**». وتركت له حرية الانتقام.

نزل معاذ وخلفه سلمى، ليجدا باسمًا ما زال موجودًا يجلس بأريحية على الأريكة، فقال معاذ: «**انصرف الناس، باسم. هل ستظل هنا؟ أم إن هناك مشهدًا ينقصك؟**».

قال باسم بابتسامة: «**صراحة، هناك بطلة المشهد. أريد أن أعرف من هي**».

رد عليه معاذ بنفاد صبر: «**ليست زوجته، باسم. أأشبعت فضولك؟ انصرف هيا**».

رد ببساطة وكأنه لم يسمع الأمر بانصرافه: «**أعلم أنها ليست زوجته. أنا أريد أن أعرف من تكون بالضبط**».

اتجه له معاذ وجذبه من يده ناحية الباب يخرجه وهو يقول: «**ماذا بك، باسم؟ إنها ابنة خالة سلمى ويحيى. ارتحت هكذا؟ هيا، اذهب من هنا، لا يصح وجودك الآن**».

ابتسم له باسم بإصرار رغم اقترابه من الباب وهو يقول: «**اسمها فقط، اسمها وسأذهب فورًا**».

فقالت سلمى بنفاد صبر: «**رهف يا باسم، اسمها رهف. هل ارتحت؟**».

رد بسعادة: «**أنا قلت إن نصيبي في هذا البيت المبارك**».

فتح معاذ الباب وخرج وهو يجذب باسمًا في يده، وخلفهما سلمى التي أغلقت الباب، ليقول معاذ: «**اذهب، باسم؛ لا وقت لهذه السخافات**».

عدل باسم ملابسه وهو يقول: «**عندك حق، سأختار الوقت المناسب. أنا أحبكم، معاذ، وأحب وجودي معكم، صدقني. لا بد أن أكون من هذه العائلة الجميلة**».

لم ينظر له معاذ ولم يحاول الرد عليه، ليتجه لسيارته يفتحها ويشير لسلمى بالركوب. جلست بخجل ولم تحاول الحديث في شيء؛ فلقد شعرت بالتوتر بمجرد وجودها بمفردها معه في السيارة، فبدأ هو الكلام: «**ماذا يعني أنها غيركِ وغير رحمة؟**».

ضغطت على شفتيها مدركة خطأها، لترد قائلة: «**لم أقصد جرح أحد. لكن هذه فعلًا هي الحقيقة**».

ليقول بجدية: «**أكملي، سلمى. ما هي الحقيقة؟**».

قالت محاولة تبرير كلامها: «**حنين من الداخل هشة جدًّا، دائمًا حياتها متوقفة على يحيى، كانت في صغرها تعتبره أباها، هيٍ ترى الحياة من منظور واحد، ترى الحياة يحيى فقط**»، لتصمت قليلًا قبل أن تكمل: «**تتخيل أنت وأخي أني لم أفهم طبيعة حالة حنين؟**».

حاول معاذ خطف النظرات لها وهو يقود، وقال: «**وما حالتها، سلمى؟ وما سبب استنتاج أن هناك شيئًا من الأساس؟!**».

فأكملت دون النظر له: «**أنت صديقه وطبيب، مؤكد تعرف ما بها. أنا لست طبيبة، ولكني تربيت معها في بيت واحد، أحفظ تصرفاتها، حركاتها، ردود أفعالها. حنين منذ زواجها بيحيى ليست طبيعية**».

«**وبما أنكِ استنتجتِ أن هناك شيئًا بها، فلماذا لم تعلقي على الأمر؟**».

لتقول بابتسامة: «**لأني أعلم أن كونها عادت ليحيى سيجعلها أفضل. أتوقع أنها تذهب للطبيب. أليس كذلك؟**».

أوقف معاذ السيارة جانبًا، وأخذ ينظر لها بتمعن وقد بدأت تتوتر من نظراته الجريئة لها لأول مرة؛ فقد سمح لنفسه بالتجول في تفاصيلها، ليقول:

«**ولماذا هي مختلفة عنكِ وعن رحمة؟ ما الداعي للمقارنة؟**».

فقالت بارتباك: «**أنا ورحمة، وجودنا في حياة بعضنا البعض جاء تدريجيًّا مقنعًا لكلتينا. أما حنين، فلا يقنع عقلها إلا تملك يحيى بمفردها. إنها تغار مني ومن رهف منذ طفولتها. فماذا لو هناك أخرى ليست أخته؟!**».

ظل ينظر لها بتمعن أربكها، ليقول: «**وأنتِ كيف تنظرين لتملككِ لي؟**».

بلعت ريقها وهي تحاول الهروب من نظراته المتفحصة، لتقول: «**قُد السيارة، معاذ. أسئلتك صعبة**».

اعتدل في مكانه وهو يضحك قائلًا: «**عندي الكثير من الأسئلة الأصعب، صغيرتي. ولكن أشفق عليكِ منها، سأتركك تأخذين وقتكِ**».

وجدته بعد فترة يوقف السيارة تحت إحدى البنايات، وينزل منها ليتجه لها، ويأخذ يدها ليساعدها على الخروج من السيارة بفستانها، فلاحظ ارتباكها وارتجاف يدها بين يديه، فابتسم لإرضاء رجولته وهو يغلق الباب.

«أين سنذهب؟ ألن نذهب لتناول العشاء؟».

لم يحاول أن يزيد من توترها، فقال: «**أجل، سأريكِ شيئًا أولًا، وبعدها نتناول العشاء**».

أخذها من يدها التي أمسكها ولم يتركها مرة أخرى، مما أربكها وزاد من ضربات قلبها التي جزم بأنه يسمعها جيدًا، ليصعد بها إلى إحدى الشقق في الأدوار العلوية. ركبا المصعد ولم يحاول الحديث، أدخلها أولًا، ثم دخل وأغلق الباب، ولكنه لاحظ توترها الزائد وهي تنظر حولها بعدم فهم، فقال لها بجدية مصطنعة:

«خطفتكِ سلمى. ما رأيكِ؟».

الفصل الثامن عشر

حاول معاذ إظهار الجدية على كلامه أمام ارتباكها، ليتفاجأ بها تقول ببساطة:

«**أجئت تخطفني بعدما تزوجنا؟! كنت أمامك طوال السنين الماضية**».

ضحك معاذ متفاجئًا. وأمام هذه الضحكة ذاب قلبها وهي لا تصدق أنه يتعامل معها بهذه الأريحية. هل هذا معاذ الجاد الذي يضحك لها بحساب ويتكلم معها بحساب؟! لتجده يقطع أفكارها ويقترب منها على مهل، ويقول: «**ما رأيكِ؟ إنها شقتنا**».

ردت بدهشة: «**ماذا؟ شقتنا؟! كيف؟**».

«**أجل، اشتريتها لتكون شقتك. وسوف تفرشينها كما تريدين أيضًا. ما رأيك؟**».

دارت حول نفسها وهي تنظر للمكان، وقالت: «**كيف حصلت عليها بهذه السرعة؟**».

«**يحيى بالتأكيد ساعدني في اختيارها. إنها إحدى البنايات التي شيدها**».

ابتسمت؛ فهي فعلًا مناسبة لذوقها. بالطبع يحيى يعرف ما تحلم به.

اقترب منها لتعود بظهرها للخلف بارتباك، خلع نظارته ووضعها في جيب سترته، ليقترب أكثر، فشعرت بأنفاسه على وجهها الذي بالكاد يصل لصدره – فهناك فرق طول – لتقول بتوتر: «**ابتعد، معاذ، قليلًا. ماذا حدث لك؟! كنت عاقلًا!**».

ظل مكانه ليقول: «**وهل يكون عاقلًا من يرى المانجو وقد أصبحت بين يديه؟!**».

ابتلعت ريقها بارتباك لتقول: «**ما حكايتك مع المانجو؟! أنا لا أفهم**».

«**لو هناك مرآة هنا، لجعلتك تقفين أمامها لتفهمي، أو بمعنى أصح لتصدقي رأي رحمة كما صدقت أنا**».

قالت بتوتر وعدم فهم: «**وما هو رأي رحمة؟!**».

قال وقد استند بيديه إلى الحائط ليصبح محاوطًا لها: «**أنكِ كحبة المانجو الشهية، تدعو من أمامها لالتهامها. أنتِ برائحة ونكهة المانجو، سلمى**».

أبعدته بيدها لتفك حصاره عنها وتبعد، وقد استوعبت أن هذا الرزين الذي تقف أمامه قد فقد صوابه ولم يعد كما عهدته، لتقول بجدية: «**هيا، معاذ، لنذهب لتناول العشاء**».

ابتسم لخجلها وقرر عدم اللعب بأعصابها، وقال: «**طلبت الطعام، سيأتي هنا**».

قالت بدهشة: «**أين سنأكل، معاذ؟! لا يوجد شيء في الشقة!**».

وجدته يتجه ناحية باب الشرفة ليفتحه على مصراعيه، فشاهدت المنظر المبهج من هذا المكان، وهي تقول بسعادة: «**المنظر رائع حقًّا، معاذ**».

أحضر معاذ سجادًا موضوعًا جانبًا، وفرشه على الأرض في الشرفة، والتي كانت تتمتع بسور مفرغ أعطى المشهد روعة وانطلاقًا أكثر، وقال: «**أليس هنا أفضل من أن نجلس بين عيون المتلصصين في المطاعم؟**».

ابتسمت بخجل تهز رأسها بالإيجاب، فقال: «**هيا لتشاهدي الشقة حتى يصل الطعام**».

ظلت تتنقل من مكان لمكان بسعادة، وما أدهشه أنه رآها فعلًا خفيفة كالفراشة، لم تتخلَّ عن طفولتها رغم كل ما بها من أنوثة، ليدق أخيرًا جرس الباب، فتركها وذهب لفتحه، ودخل بعدها بالطعام. وضعه على الأرض، وبدأ في فتح الأكياس بعد أن خلع سترته ورابطة عنقه ووضعهما جواره، نظر لها فوجدها ما زالت واقفة كما هي مرتبكة لا تعرف ماذا تفعل: «**اجلسي، سلمى. هل ستشاهدينني وأنا آكل فقط؟!**».

ابتسمت ببراءة وهي تقول: «**إذًا أنت من طلب ذلك**».

ليجدها تفك الشريط الذي يحمل ذيل الفستان، مؤكد لم تكن تستطيع الجلوس به، ويتفاجأ بعدها أنها رفعت الفستان قليلًا عن قدميها نظرًا لضيقه، لكي تستطيع الجلوس، وجلست بكل براءة. بلع معاذ ريقه وهو يقول: «**ما هذا الذي تفعلينه؟**».

ردت عليه بابتسامة طفولية: «**لا حل للجلوس على الأرض إلا ذلك؛ فأنت خلعت رباط عنقك وسترتك وهما لا يسببان لك أي مشكلة؛ فكيف أجلس أنا؟!**».

أبعد نظره عنها وقال: «**إذًا أيتها الشقية لا تلعبي بالنار حتى لا تحرقك**».

لم يتصور أن كلماته البسيطة ستُخجلها هكذا وتجعل وجهها كحبة الكرز، حاولت الوقوف بصعوبة وقد امتلأت عيناها بالدموع، تحرك من مكانه ليجذب يدها بسرعة وهو يقول:

«**اجلسي، سلمى. أنا زوجكِ، لا داعي لهذا الحرج. أنا أمزح معكِ. لم أتخيل أن تخجلي بهذا الشكل. أنتِ هكذا لم تعودي مانجو، أنت أصبحتِ فراولة!**».

جلست بتوتر، فلم تستطع مقاومة جذبه لها، وقد وجد أنها زادت خجلًا، فقال بمشاكسة:

«**أنتِ هكذا كوكتيل فواكه، سلمى**».

ظلت صامتة لا تتحرك ولا تحاول النظر له، ليقول لها بعد فترة طويلة وهو يأكل:

«**سأنهي الأكل كله، سلمى، وأنتِ ما زلتِ في خجلكِ**».

بدأت في الأكل وهي تحاول لملمة أعصابها. أنهى طعامه ورجع للخلف، ليستند إلى الحائط، وظل يتأملها وهي تأكل الطعام، يدخل فمها بخجل، تأكل كالأطفال بأنوثة مربكة. وبغير إرادته، قارن بينها وبين أميرته التي تأكل وكأنها جالسة على العرش، ليقول لنفسه:

«افصل، معاذ. هذا كان طلب رحمة؛ أن أفصل وأنا مع إحداكما. لا حل لي إلا هذا، وإلا فسأجن!».

أنهت سلمى طعامها ليجدها تمشي على ركبتيها كالأطفال حتى وصلت إليه، وأسندت ظهرها بجواره إلى الحائط، فقال:

«لماذا، سلمى، وافقتِ على هذا الوضع؟ من حقكِ أن يكون زوجكِ لكِ وحدكِ».

ابتسمت لتجيبه بصراحة أدهشته: **«لأني لم أستطع تقبل رجل غيرك»**.

وبقدر صدمته من كلامها كانت سعادته؛ لأن هذه الفتاة التي حلمت به طوال عمرها أصبحت الآن زوجته، فقال: **«صغيرة أنتِ على هذا الوضع، سلمى»**.

ابتسمت لترد عليه وكل منهما ينظر أمامه: **«كبير أنت في عيني، فلا أرى غيرك. أتعرف أن يحيى يعلم هذا؟ ألم تُدهش من قبوله بسهولة؟!»**.

«أخاف أن أظلمكِ، أنتِ لا تستحقين هذا؛ فرحمة في قلبي مميزة».

«أعلم أنها مميزة لديك، أعلم قدر حبك لها. ولكن اقتنعت برأيها الذي جاء لي وكأنني كنت أنتظره».

ابتسم وهو يقول: **«وكيف أقنعتْكِ؟»**.

«أقول لك صدقًا. هي تعلم جيدًا أني لن آخذ في يدها الكثير لإقناعي. وأنت تعلم ذلك أيضًا. زوجتك مقنعة، معاذ».

«منذ رأيتك اليوم تنزلين السلم أمامي، أسأل نفسي: هل يستطيع القلب أن يحب اثنتين؟!».

ابتسمت أمام اعترافه الضمني، فردت عليه ببساطة: «**القلب يستطيع أن يحب لما لا نهاية، معاذ. ولكن لكل شخص مكانة. وأنا وعدت نفسي ألا أحاول أن آخذ مكانة رحمة، وأن أجد لي مكانًا بمفردي بقلبك**».

«**وهل تعتقدين أنكِ ليس لكِ مكانة به، سلمى؟**».

صمتت، وكاد يسمع دقات قلبها أمام نظراتها له غير المصدقة، فقال: «**أجل، سلمى، مكانتكِ في قلبي منذ زمن. دائمًا كنت أسأل نفسي ماذا سأفعل يوم زفافكِ على أحدهم؟ كيف سأشعر؟ لكني لم أعتد الخيانة، سلمى. هي لا تستحق مني ذلك، هي لا يمكن لشخص عاقل أن يخونها**».

فقالت سلمى باستيعاب: «**اتفقت معها ألا تذكر إحدانا الأخرى، وأن نحاول الفصل. هي معها حق ليرتاح كل منا**».

فقال بأسى: «**هذا الحل لكما، سلمى، وليس لي**».

ابتسمت بتلاعب وهي تقول: «**أخبرك سرًّا؟ هي قالت لي إنك تستطيع، وأنا أثق في كلامها. صراحة هي تعرفك جيدًا وتعرف قدراتك أكثر مني، قالت إنك ستجعلني أشعر ألا يوجد سواي بحياتك، وهي كذلك**».

ابتسم وهو يقول: «**رحمة، أصبحت كأمي التي تحفظني. أعلم ذلك**».

لينظر لها من قرب ويكمل كلامه: «**وأنتِ طفلتي الشقية، ستكونين ابنتي. ما رأيكِ؟**».

تفاجأ بها تضحك بشدة، فقال: «**ماذا قلت لتضحكي هكذا؟**».

فقالت وما زالت تضحك: «**أخشى أن أخبرك أنها قالت هذا فيصيبك الجنون، لقد دخلَت عقلك وتلاعبَت بمفاتيحه، معاذ**».

أمسك رأسه بحرج ليقول: «**أعلم أنها كارثة**».

وجدته يقترب منها فحاولت إبعاده، فقال: «**أنا أصبحت أثق في كلامها أكثر من الأول**».

فقالت بتساؤل: «**كيف؟**».

فقال وقد اقترب منها تمامًا: «**إنكِ بنكهة المانجو**».

وأمام خجلها وارتباكها حدث نفسه قائلًا: «**معكِ حق، رحمة، هي مختلفة**».

في غرفة كريمة، أخذت رهف بين يديها لتخفف عنها استقبالهم لها، فقد أشفقت على حالتها، وجلست بها على الفراش وهي تقول: «**حبيبتي، ستنامين معي اليوم، وغدًا تذهبين إلى غرفتكِ. كيف حالكِ وحال أبيكِ وزوجته وأخويكِ؟**».

«**بخير كالعادة، خالتي. لا تشغلي بالكِ بهم؛ فحياتهم تسير بطبيعية، أنا فقط حياتي لا تريد الاستقرار**».

«**لماذا تقولين ذلك؟ أنتِ أفضل حالًا من الكثر**».

«**أشعر بأني غير مرغوب بي في أي منزل، خالتي**».

«**تقولين هذا الكلام في وجهي، رهف؟! أتريدين مضايقتي؟ هل هذا كلام تقولينه لأمك؟!**».

فقالت وهي تبكي: «**خالتي، هناك يتعاملون معي كضيفة، كلما سافرت لهم لا أشعر بالراحة، حتى أخواي يتعاملان معي بحدود. هم فعلًا لا يعاملونني معاملة سيئة، حتى زوجة أبي تعاملني جيدًا، وأبي لا يبخل عليَّ بشيء، لكني لا أشعر أنه بيتي**».

فقالت كريمة بحنانها المعتاد: «**لأن هنا بيتكِ، وأنا لست أخت أمكِ فقط، أنا من أرضعتكِ بعد وفاة والدتكِ، تربَّيتِ في أحضاني وعلى سرير سلمى، تشاركينها حبي كأنكما توأم. ويعلم الله أنه لولا حق أبيكِ فيكِ ما كنت وافقت على سفركِ للعيش معه أبدًا، ولأن فرصتكِ في التعليم هناك أفضل من هنا**».

قالت رهف بحزن: «**وما حدث اليوم، خالتي؟ لم يرحب بي أحد. أنا كنت أجري في المطار حتى أصل قبل عقد قران سلمى، أحببت أن أفاجئ الجميع. ألا يكفي زواج حنين ويحيى دون حضوري؟!**».

ضحكت كريمة بأسى وهي تخبرها: «**لا تكوني حساسة هكذا، رهف. الأمر غير ما تفهمين. أنا نفسي لم أحضر زفاف يحيى وحنين**».

تفاجأت رهف فاعتدلت في جلستها وهي تقول: «**كيف ذلك؟!**».

«**لم يكن هناك زفاف كما تتخيلين؛ يحيى عقد قرانه عليها في المنزل الكبير عند أبيها، وأتى بها بعدها. وسلمى؛ أنتِ تعلمين وضع معاذ ورحمة**».

قالت رهف وقد شغل تفكيرها زواج يحيى وحنين: «**كيف وافق عمي سليم على زواجها بيحيى بهذه السهولة؟**».

«**مؤكد ستقص حنين عليكِ الأمر فيما بعد. ولكن تعاملي فقط معها بحرص؛ هي منذ مجيئها حساسة جدًّا، تخاف أن يبتعد عنها يحيى مرة أخرى؛ الفترة التي عاشتها بمفردها كانت صعبة، عاشت مع أب قاسٍ وأنتِ تشتكين من الإحساس بالغربة وعدم الاستقرار وأبوكِ يضعكِ في عينيه وينفذ كل طلباتكِ**».

خجلت رهف من نفسها وقالت وهي تحتضن خالتها: «**معكِ حق، خالتي. أعدكِ ألا أحاول استفزازها مرة أخرى. أنسيتِ أننا تربينا معًا؟**».

أخذ معاذ بيد سلمى لتقف بهذا الفستان الذي قرر أن يكون ارتداؤها مثله للمرة الأولى والأخيرة، دخل الاثنان من الشرفة ليستعدا للمغادرة، ولبس هو سترته وبدأت هي تعدل من وضع فستانها وذيله. وجدها تقف مترددة وكأنها تريد قول شيء، فقال: «**ماذا تريدين أن تقولي؟**».

ردت بتردد: «**ألم تقل لي في الهاتف إنك ستخبرني لماذا اخترت هذا الفستان؟**».

«**أجل، أذكر أيضًا أني قلت سأكون كريمًا معكِ وأخبركِ أولًا، وبعدها تخبرينني سبب موافقتكِ على الزواج بي**».

«**إذًا هيا أخبرني**».

«**أفهم من ذلك أنكِ موافقة أن تخبريني بعدها**».

ترددت أكثر وهي تقول: «**نعم**».

اقترب منها ليقف أمامها وقال: «**لأنه بلون المانجو، سلمى؛ شعرت أنه يشبهكِ، صُمم من أجل تفاصيل جسدكِ، شعرت أن ذيله سيجعلكِ كالفراشة**».

نظرت له بخجل ولم تحاول التكلم، فابتعد خطوتين للوراء ليستطيع رؤيتها جيدًا، فقد أعجبه خجلها، ليقول: «**ها أنا قلت ما عندي. قولي ما عندكِ أنتِ أيضًا كما اتفقنا؛ ما السبب القوي الذي جعلكِ توافقين بهذه السهولة على الزواج مني؟!**».

قالت وهي تلعب بأصابعها وتنظر بعيدًا عنه: «**هناك سببان، أحدهما قديم والآخر جديد**».

«**إذًا أخبريني ما الجديد أولًا**».

«**فنجان القهوة الذي سُكب على الطاولة**».

نظر لها بعدم فهم ليحثها أن تكمل، فقالت: «**عندما تحركت بسرعة لتضع يدك حتى لا تسقط القهوة عليَّ، ولم يهمك أن تحرق يدك. عندها تأكدت أني معك لن أخشى شيئًا، سأكون في أمان، ستفكر بي قبل أن تفكر بنفسك**».

ابتسم بحب وقد لمعت عيناه مفاجأة مما تفكر فيه، وملاحظتها التي هي رغم بساطتها تحمل الكثير:

«**والسبب القديم هل هو بروعة السبب الجديد؟**».

أخذت نفسًا عميقًا لتُخرجه بهدوء، تعطي نفسها فرصة للاسترخاء قبل الرد، لتقول: «**عندما يكون كل حلمي شيئًا واحدًا بسيطًا أعلم أن تحقيقه مستحيل، ويجيء أحدهم يخبرني أني ممكن أن**

أحقق هذا الحلم ولو مرة واحدة فقط، وبعدها لا يهم ما سيحدث، حتى لو فشل هذا الزواج؛ فلا بد أن أوافق قبل ضياع الفرصة».

قال بدهشة يحاول التوقع: «**ما هذا الشيء؟ وهل تحقيقه مرتبط بي بهذا الشكل؟!**».

زاد توترها وارتباكها، وحاولت إخراج كلماتها بصعوبة؛ فهي تخشى أن ينتهي اليوم لتعود كما كانت ولم تحقق حلمها الصغير، وربما ينتهي الزواج، فقالت بصعوبة: «**دائمًا كنت أتمنى... أن أعرف كيف... كيف يكون الفرق بين حضنك وحضن أخي**».

أنهت كلامها وتحركت في اتجاه الباب. استوعب الأمر سريعًا، وجذبها ليديرها إليه، ورفع رأسها له ليتفاجأ بالدموع تنهمر من عينيها، ضمها بين ذراعيه وقد أنبه قلبه على عدم إحساسه بها، وأوجعه ضميره على ما فعله معها من قبل، ليقول:

«**سلمى، أُخبركِ سرًّا؟ بيني وبينكِ فقط، سمعتِ؟ فقط**».

هزت رأسها دون أن تنظر إليه، مغمضة عينيها بشدة، فأكمل وهو يضمها له أكثر وقد غاصت بين ذراعيه مع فارق الطول والحجم:

« **تمنيت كثيرًا عندما كنتُ أراكِ أن أضمكِ بين ذراعيَّ لأخفيكِ من الدينا، لأحميكِ حتى من نفسي، وكأنكِ ابنتي**».

زاد بكاؤها وحاولت الابتعاد، فلم يعطِها الفرصة، ليكمل: «**أنا لا أقول هذا الكلام لأرضيكِ، صدقيني. دائمًا كان بداخلي شعور أنكِ مختلفة بالنسبة لي، ولا بد أن تعلمي ذلك جيدًا**».

بعد فترة أوقف معاذ السيارة أمام منزل العائلة، وقبل أن تنزل سلمى جذب يدها ليميل مقبلًا كفها كما لم تعرف من قبل، وكأنه يجبر نفسه على اعتياد الأمر. ابتعد تاركًا يدها، وفتح باب السيارة، وخرج منها ليأخذ نفسًا عميقًا، ودار ليفتح لها الباب ويساعدها على الخروج، ودون كلام أخذها من يدها، وأوقفها أمام باب المنزل وقبل جبهتها، وانصرف بعدما تأكد من دخولها المنزل.

غادر معاذ لمنزل رحمة وبداخله تساؤلات كثيرة، وأولها: كيف سيرى رحمة بعد الآن؟

الفصل التاسع عشر

هناك حكمة ربانية في أن تصبح الغيرة في الرجل نخوة وشرفًا وصيانة للعرض والحرمات. أما الغيرة في النساء فحب وجنون وأحيانًا كثيرة يعتبرها البعض ضعفًا. ولكن، ومهما كانت ثقة المرأة بنفسها وبزوجها، فالغيرة حب، تزيد كلما زاد الحب، ذلك الهيجان الذي يحدث في القلب عندما تشعر أن هناك خطرًا يقترب من قلب حبيبك، وربما نجح في الوصول لهدفه. الغيرة مرض القلوب، وطبيبه لا يمكن إلا أن يكون شخصًا واحدًا هو الوحيد الذي بيده العلاج. فما بالك لو كان هذا الشخص طبيبًا للقلوب؟

عاد معاذ لمنزل رحمة وبداخله ألف تناقض، ليدخل غرفتها سريعًا، فوجدها كما تركها ممددة على الفراش. جلس بجوارها بضع دقائق ليطمئن عليها، ثم قام ليبدل ثيابه وهو يتحرك بآلية، وعاد ليجلس جوارها مرة أخرى يتأملها كأنه يراها لأول مرة، وأخذ يحدثها وكأنها تسمعه: «**ما كل هذا الحب، رحمة؟ كيف تفعلين بنفسكِ هكذا؟! أهذه ثقه في حبي لكِ؟ أم ثقة في نفسكِ؟ هل حبكِ لي بهذه الدرجة؟ لم أستطع أن أفصل بينكما وأنساكِ وأنا معها. كنت كالتلميذ الذي ينفذ تعليماتك، كنت كالمملوك الذي يفعل ما تقوله له أميرته. ستظلين ملكة على عرش قلبي، رحمة**».

تمدد جوارها على الفراش، ووضع يده تحت رأسها، ليكمل كلامه: «**ماذا أفعل أنا الآن في هذا التخبط؟ بالله عليكِ دليني. أليست فكرتكِ؟**».

أخذ يحدثها وهو يقترب بأنفاسه منها، يستنشق عبيرها لينسى رائحة الأخرى. ظل على هذا الحال إلى أن هدأ، وأخذ يحتضنها بشدة وهو يقبلها وكأنه لم يرَها منذ زمن، يخشى بُعدها، يخشى أن يفقد الإحساس بها يومًا. وبعدها وضع رأسه على الوسادة وما زال يحتضنها وهو يقول مبتسمًا: «**هكذا تم حذف الملفات وكل البيانات الأخرى**».

وأغمض عينيه لينام، ولم يحاول التفكير إلا في شيء واحد: أن رحمة ما زالت بين أحضانه.

بعد مرور عدة ساعات، في الصباح بدأت رحمة بالاستيقاظ، شعر بها معاذ ولكنه لم يحاول التحرك وظل مغمضًا عينيه، تركها تستوعب ما حدث. جلست ممسكة رأسها، وبعد دقائق شعر بها تقترب منه بأنفاسها وكأنها تحاول شم رائحته، لتقترب من فمه تنظر له بشدة، فمهما كان بها من القوة والجرأة فهي حواء، بداخلها هذه الأنثى الغيورة. مهما حاولت من تقويم غريزتها، والظهور على غير فطرتها، فستظل تبحث حواء عن دليل الإدانة. ودون أن يفتح عينيه قال: «**لا تقلقي، رحمة؛ تم حذف الملفات بمجرد وصولي هنا**».

لم تستوعب ما يقوله، فقالت: «**أكانت حقنة لتخديري أم للتأثير على عقلي؟ اعترف**».

اعتدل ليرتفع عنها ويدور ليأخذها بين ذراعيه، وقال: «**كما سمعتِ، حذفنا الملفات بمجرد أن رأيتكِ هكذا**».

ومال على شفتيها ليفعل ما فعله بالأمس وهي نائمة، اعتدل وأخذها بين ذراعيه ليقول بعدها: «**كنت فقط أعيد ما تم وأنتِ نائمة**».

«**تقصد مُخدرة**».

نظرت له بعتاب لتكمل: «**أهُنت عليك؟!**».

ضمها له وهو يقول: «**لأنكِ لم تهوني عليَّ فعلتها، وأنتِ تعلمين ذلك. وها أنتِ استيقظتِ وأنتِ بين أحضاني**».

«**معاذ، هل هناك مخدر مفعوله أطول من يوم؟**».

قالتها ببساطة، ليشعر بارتجاف قلبه أثر سماعها، فأخذ يضمها أكثر ليخبئ هو رأسه في عنقها دون أن يرد بأي كلمة. عجز لسانه؛ فقد فهم مقصدها، فهو نفسه لا يعرف ماذا سيفعل حينها. وبعدها بلحظات نظرت له ببساطة وكأنها تتحدث عن موضوع عابر، وقالت:

«**هيا، احكي لي كيف كان اليوم**».

لم يستطع الرد عليها مجددًا، فوجدها تجذب يده لتنظر بها، فلم تجد إلا محبس زواجها فقط، فقالت: «**معاذ، هل خلعت الخاتم وأنت تحذف الملفات؟**».

فرد بدهشة: «**أي خاتم؟!**».

قالت مصدومة: «**ألم تلبس الفتاة خاتم زواج يا رجل؟**».

تفاجأ معاذ؛ فقد نسي هذا الأمر تمامًا، وضع يده على جبهته وهو يقول:

«لم يأتِ بعقلي نهائيًّا؛ أنا ألبس واحدًا، رحمة».

فقالت بلوم: **«وهي، معاذ... هي لم تلبس واحدًا؟ أليس من حقها أن تلبسها خاتمًا؟!»**.

نظر لها بشكر وامتنان، فقالت وهي تبتسم: **«ليس معنى أنها أصبحت ضرتي ألا أنبهك لحقها؛ فأنا لم أدخلك هذا الطريق لتحمل وزر ظلمها وتدخل أنت النار، حبيبي»**.

لتبتسم مكملة: **«أريدك معي بالجنة»**.

قالت ذلك وهي ترفع يدها لتضعها على وجنته، فوجدته يأخذ يدها ليقبلها وهو لا يستطيع الرد عليها، فقالت: **«معاذ، هي صغيرة، فتاة مقبلة على الحياة، وليس لها ذنب في دخولها هذه اللعبة معنا، نحن من جذبناها لها»**.

هز رأسه بتفهم ليتحرك الاثنان؛ فهناك يوم مليء بالأعمال قد بدأ.

استعدا للمغادرة، وبالطبع بمجرد نزول معاذ من المنزل اتجه إلى أحد محال المجوهرات ليشتري خاتم زواج للعروس، وأحد الأطقم المميزة لتكون شبكتها، ولكنه لم يشترِ لنفسه واحدًا، فقد عز عليه فعل ذلك ليزاحم خاتم رحمة، ولكن اشترى أحد الخواتم الرجالية ذات الأحجار الكريمة، فقد كان خاتمًا مميزًا حجره باللون الكناري! اتجه بعدها لعمله بعد أن أرسل رسالة نصية إلى سلمى:

(صباح الخير عروستي الصغيرة).

وقد بدأ قلبه يحارب في جبهتين في آن واحد!

لم يصدق نفسه يحيى عندما استيقظ من النوم صباحًا ووجدها ما زالت بين أحضانه لم يصبها الكوابيس ولا الأرق مرة أخرى، ليطبع قبلة على شفتيها، مما جعل الكهرباء تسير في جسدها، ففتحت عينيها ببطء وهي تقول: «**يحيى، أيقظتني، أريد أن أنام**».

قالتها بتلقائية وبراءة، وأغمضت عينيها لتكمل نومها. ظل ينظر لها والابتسامة لم تفارقه، ليقول: «**هكذا يحيى لن يذهب للعمل أبدًا، حنين**».

لتقول بتكاسل: «**إنها فكرة رائعة**».

واحتضنت ذراعه ونامت مرة أخرى، سحب يده بهدوء ودخل دورة المياه ليأخذ حمامه الصباحي، وبعد خروجه وجدها ما زالت نائمة كما هي، فارتدى ملابسه ووقف يفكر أيذهب ويتركها تنام بهذا الشكل، فهو لا يريد تركها هكذا، فمن الممكن اقتحام إحدى الفتاتين الغرفة وهو يعلم مدى تهورهما، فقرر أخيرًا؛ فتح خزانة الملابس وأخرج أحد القمصان الخاصة بحنين، بالطبع غير ما أحضرته أمه، فكان عليه صورة عروسة الأطفال المشهورة بشعرها الطويل، وجلس جوارها يلبسها ثيابها، اعتقد في البداية أنها ستستيقظ، ولكن تفاجأ أنها تركت له نفسها كالأطفال. وبعد أن أنهى ما يفعله كاد أن يقف، وجدها تشير له بأصبعها على وجنتها ليطيعها ويضع قبلته فورًا ودون تردد، وأعدل غطاءها وغادر.

غادر غرفته ليذهب لغرفة سلمى يطمئن عليها، فهو لم يرَها عندما عادت من عشاء معاذ، فوجدها مستغرقة في النوم. قبل رأسها وخرج، وبمجرد أن غادر غرفة سلمى، وجدها تجلس على السلم تنتظره، وما إن رأته حتى جرت عليه تحتضنه:

«اهدئي، رهف، قليلًا. كفاكِ مشاكسة أرجوكِ؛ يكفي ما حدث بالأمس».

«والله أبدًا، يحيى. أنا فعلًا افتقدتك؛ إنها سبعة أشهر. لمَ أشعر أني الوحيدة التي تعاملها بهذا الجفاء؟».

شعر يحيى أنها جادة في حديثها، فأخذها تحت ذراعه وهو يسير بها للخارج قائلًا: **«أنتِ تعلمين معزتكِ عندي. ولكنكِ دائمًا تتعمدين استفزاز حنين. يجب أن تراعي طبيعة شخصيتها؛ لم تعودي صغيرة على ذلك».**

«أتعلم، يحيى؟ حبيبتك غبية».

قالتها وهي تضحك وما زالت تسير معه، ليقول بجدية: **«أولًا: لم تعُد مجرد حبيبتي؛ إنها أصبحت زوجتي. ثانيًا: أيمكن أن أعرف لماذا تنظرين لها هذه النظرة؟».**

وقفت أمامه تمنعه من السير، فقد اقترب من سيارته، لتقول: **«ببساطة، إن لم يكن لي حق التعامل معك بهذا الشكل كما أفعل طوال عمري لكنت سأصبح منافسة لها بجدارة».**

ضحك بشدة وجذب وجنتها وهو يقول: **«أتندمين أنكِ أختي، أيتها الفتاة؟».**

فقالت وهي تضحك: **«دائمًا رأيي فيك في محله، أيها المتعجرف المغرور. يحيى، هي لم تستوعب أبدًا منذ صغرنا أن ما تغار منه في معاملتنا معك - أنا وسلمى - هو ما جعلها مميزة وتنام في غرفتك الآن. غيرتها ليست بمحلها أبدًا؛ لو كان لها نفس حقوقي ما تزوجتك. هذه ميزة وليست عيبًا».**

قال وهو يمط شفتيه: «**أتصدقين، رهف؟ أول مرة أقتنع بكلامكِ. كنت أشك أنكِ تستطيعين التفكير كشخص بالغ. مبارك، رهف؛ لقد كبرتِ**».

وسار متجهًا لسيارته، لتجري وراءه مرة أخرى قائلة: «**انتظر يا أخ أنت، أنا ما زلت أتحدث**».

«**رهف، إنه وقت عملي. عندما أعود نتحدث كما تشائين**».

وقفت أمام سيارته تشعر بالإحباط وهي تقول: «**يحيى، هل كل من حضر الحفل بالأمس أصدقاؤك؟**».

انتبه قبل أن يغلق باب السيارة، فقال: «**بالتأكيد. من تقصدين منهم بالضبط؟**».

«**أ... أبدًا، لم أقصد أحدًا**».

وانصرفت من أمامه ليقول لنفسه: «**واضح أن وراءكِ حكاية، رهف. يا ألله! أريد أن آخذ هدنة**».

بعد فترة، اتصل معاذ بيحيى. وبمجرد أن فتح الأخير الخط، قال: «**أهلًا، نسيبي العزيز**».

ابتسم معاذ بمرارة: «**جديدة هذه الكلمة، صديقي**».

«**أصبحت قدري للأبد، معاذ، تحاوطني من كل اتجاه**».

«**حتى من دون نسب، صديقي، أنا قدرك وأنت قدري**».

«**أخبرني ما عندك، معاذ**».

«**دائمًا أنت تفهمني. صراحة، أنا نسيت شيئًا مهمًّا بالأمس، ولا أعرف ماذا أفعل**».

«**خاتم الزواج يا أحمق**». قالها يحيى بتأكيد، ليرد معاذ بعتاب: «**إذا كان الأمر واضحًا، فلماذا لم تنبهني؟!**».

«**انشغلت بحنين، واعتقدت أنك ستعطيه لها على العشاء. ولكن لم أرَ شيئًا بيدها صباحًا، فعرفت حماقتك**».

«**يحيى، أنا لم أحضره من الأساس إلا اليوم**».

قال يحيى بصوت مرتفع: «**بالله عليك كيف تخبرني ذلك؟! أنا أخوها أيها الأحمق!**».

ليقول معاذ بأسى: «**لأنك صديقي وأخي ورفيق دربي، ليس لي سواك أسأله**».

أخذ نفسًا عميقًا ليرد عليه بهدوء: «**وكيف اكتشفت فجأة؟**».

ليقول بتردد: «**أنا لم أكتشف؛ إنها رحمة، عندما لم تجد آخر بيدي**».

رد عليه يحيى ضاحكًا: «**يا لسخرية القدر! والله لو والدتك لما فعلت معك ذلك**».

«**أعلم**». قالها وما زال يرد بصعوبة، حرجًا من صديقه.

«**وما المطلوب حاليًّا مني؟**».

«**أريد الذهاب لها اليوم لأعطيها هديتها**».

«**إنه بيتك، معاذ، غير أنها أصبحت زوجتك**».

«**شكرًا، يحيى. أدامك الله لي خير رفيق**».

لم ينتظر رده وأغلق الهاتف، ليقول لنفسه: «**واضح أني سأمر بفترة من التخبط**».

وبعد عدة ساعات

في منزل العائلة، وبمجرد عِلم سلمى بوجود معاذ، انطلقت تجري على السلم بملابسها المنزلية التي لم يرَها بها منذ كانت طفلة. ابتسم لها وهي تجري عليه لتقف أمامه مرتبكة، فأدرك أنها كانت سترمي نفسها بين ذراعيه، وضع يده على كتفها، ومال عليها ليقبل جبهتها ببساطة وهو يقول: «**كيف حال عروستي الجميلة؟**».

فاحمرت وجنتاها، فقال: «**ماذا قلت أنا يستدعي الخجل؟ ألم يخبركِ أحد من قبل أنكِ جميلة؟!**».

قالت بابتسامة صاحبت خجلها: «**كلا، لم يقل أحد لي إني عروسته**».

«**إذًا سأقولها كثيرًا؛ حتى أرى هاتين الغمازتين على وجنتيكِ**».

عضت شفتيها بحركة لا إرادية وهي تشعر أنه يتعمد إخجالها، فوجدته يكمل هامسًا:

«**أتعلمين؟ لولا أننا هنا لكنت جعلتكِ ترحمين شفتيكِ من هذه المعاناة**».

جلست وكأنها لم تعد تستطيع الوقوف، ولم تحاول الرد عليه، فجلس جوارها، وأخرج من جيبه علبة محبس الزواج، وجذب يدها اليسرى ليلبسها الخاتم، ظلت تنظر للخاتم بعينين لامعتين، فقال: «**آسف؛ ارتبكت بالأمس ولم أتذكر**».

قالت وهي ما زالت تنظر للخاتم بسعادة: «**لا داعي للكذب، معاذ. لم يكن معك الخاتم من الأساس**».

ضحكت عندما رأت صدمته، ليقول بشك: «**ومن قال لكِ ذلك؟**».

ردت ببساطتها المعتادة: «**أبدًا، أنت خلعت سترتك وألقيتها بعيدًا، ولو كان بها شيء لكنت تذكرته حينها**».

قال بدهشة: «**وهل هذا سبب مقنع لما تقولين؟**».

قالت وهي ما زالت تنظر للخاتم بيدها: «**وهناك سبب آخر أكد لي ذلك**».

«**ما هو يا سيادة المحقق كونان؟**».

«**عندما حضنتني، لم يكن هناك شيء في جيوبك سوى النظارة**».

فقال بصدمة وقد رجع بظهره على الأريكة: «**يا ألله! ما هذا الجنس البشري؟! أيعقل ما أنا فيه؟! اثنتان من جنس حواء! ما هذا الذي فعلته بنفسي؟! ما هذه العقول؟!**».

ضحكت بشدة وهي تقول: «**اهدأ، دكتور. ما بك هذا أبسط ما عندنا**».

«**أعلم. إن كيدكن عظيم**».

أخذ بعدها نفسًا عميقًا، وأخرج من جيبه علبة بها طقم ذهبي لإحدى الماركات المعروفة، وألبسها إياه، وهي ما زالت لا يشغلها إلا خاتمها، فقال: «**ما بكِ، سلمى؟ هل أحضرت لكِ كل هذا لتظلي تنظرين للخاتم؟!**».

قالت بابتسامة: «**لأنه لم يكن في أحلامي سوى خاتمك، معاذ**».

حزن بداخله لأنه لم يهتم بأمر كهذا مهم بالنسبة لها، فقال بترقب: «**إذًا هل أُخرج مِن جيبي ما بدأت أشك أنكِ تعرفين ما به منذ دخلت من الباب؟**».

ضحكت سلمى ببراءة: «**لا... لا، ليس لهذه الدرجة. إنها مجرد توقعات**».

فقال بتوتر: «**إذا هل يمكنني أن أعرف هل أحلامك يوجد بها خاتم زواج خاص بي؟**».

فوجدها تتحدث ببساطة وقد فهمت ما يريد: «**أعلم أنك ترتدي واحدًا، معاذ. وكنت أنوي أن أخبرك أنه لا داعي لآخر؛ هو دليل على زواجك، وأنت ترتدي واحدًا بالفعل. لا يهم الناس أن يعرفوا أن هناك اثنتين. لا داعي للفت النظر إليك... و... ذلك سيجعل رحمة حديثًا للناس لأنك تزوجت عليها بأخرى**».

تنفس بعمق وقد ارتاح وقال: «**أتعلمين أني أشكر الله عليكِ؟**».

ابتسمت ولم تُجبه، فأخرج من جيبه خاتمه ذا الحجر البرتقالي المموج، فابتسمت بمكر وأخذته من يده وألبسته له في يده اليمنى، فقال: «**ألم ألبسكِ الخاتم في اليسرى؟ لماذا تلبسينني في اليمنى؟!**».

ابتسمت وهي تقول: «**لأن يسراك بها واحد، وأنا ورحمة قررنا ألا نجتمع**».

أنهت كلامها وأطلقت ضحكة مشاغبة، فقال: «**أتمزحين، سلمى؟**».

«أبدًا. هكذا أجمل. أما بالنسبة لخاتمي، فقد مررتها بمزاجي؛ كان من المفترض أن تلبسني إياه في اليمنى إلى أن يأتي يوم زفافنا».

«لكني قصدت ذلك؛ فأنتِ زوجتي الآن، ولستِ خطيبتي».

وقف بعدها ليستأذن في الرحيل، وقبل جبهتها كما فعل عند دخوله، وانصرف، ليعود لرحمة وبداخله نفس الشعور من التخبط.

الفصل العشرون

كل منا يسكن بداخله شخص يريد إخفاءه عن العالم ليكون في أمان. هذا الشخص الذي ربما يربطك به صلة الدم وربما لا، ولكنه بأعماقنا كدماء تنشر في الجسد الحياة، كروح بكيان غير ملموس بداخلنا يشارك روحنا الوجود، بل إنه نبض يدل على أنه ما زال بنا حياة.

عاد معاذ لمنزله، وبمجرد دخوله اتجه لرحمة وجذبها بين ذراعيه ليحتضنها بشدة، فقالت له مدهوشة: «**لماذا؟**».

ليقول لها وهو يأخذ نفسًا عميقًا: «**أكملي السؤال**».

لتكمل سؤالها قائلة: «**لماذا كلما احتضنتني تفعلها بقوة؟**».

ضم رأسها لصدره وهو يقول: «**لأني هذه الأيام أصبحت أشعر أني أريد أن أُدخلكِ بين أحشائي. كان لا بد أن تكوني جزءًا ما بداخلي رحمة. أتعرفين؟ أنتِ كالشريان التاجي يمد قلبي بالدماء، سأصاب بسكتة قلبية إن توقف هذا الشريان عن دفع الدماء لقلبي**».

زادت هي من احتضانه، ولم تنسَ أن تنظر للخاتم بيده، لترى الخاتم الذي وضعه بيده اليمنى، ابتسمت بسعادة رغم أنها حاولت عدم إظهار اهتمام بهذا الأمر.

أوقف يحيى سيارته أمام المنزل بعد عودته من العمل، فوجدها ما زالت في الحديقة تسير ذهابًا وإيابًا، خرج من السيارة وهو يقول: «**ما هذا؟ هل ما زلتِ هنا منذ تركتكِ صباحًا؟!**».

اتجهت رهف لكرسي الحديقة وأخذت باقة من الزهور وأعطتها له، فقال بابتسامة: «**ما هذا، رهف؟ أقررتِ حرق دم حنين لهذه الدرجة؟ زهور، رهف؟!**».

فقالت له معترضة: «**وأنا أحضر لك زهورًا لماذا؟! يكفيك زهور زوجتك المجنونة**».

أخذها تحت ذراعه كما هو معتاد معها وقال: «**أولًا: قبل أن أعرف قصة الزهور أحذرك أن تقولي عنها مجنونة مرة أخرى. ثانيًا: من أرسل هذه الزهور يا شقية؟**».

ناولته رهف الكارت المرسل مع الزهور، ليقرأ ما به: (لمن زلزلت أمس هذا المنزل، وزلزلت معه قلبي، واهتز لجمال روحها كياني؛ إني عشقتكِ واتخذت قراري).

ابتسم يحيى لمعرفته خط صديقه، وقرر مشاكستها قليلًا: «**من أخبركِ أنكِ المقصودة؟! لا يوجد أي دليل**».

دارت رهف بعينيها يمينًا ويسارًا، ورفعت حاجبًا وهي تقول: «**وهل هناك غيري من زلزل هذا المنزل بالأمس؟**».

«**نعم، هناك سلمى العروس، وهناك حنين**».

«**ينقص أن تقول هناك خالتي**».

«**مثلًا، فعلًا، كلهن مؤنث**».

ردت بسرعة وقد بدأ يظهر عليها الغضب: «**هل سيرسل معاذ زهورًا إلى سلمى وقد كان هنا بالفعل وأعطاها هديتها وقبل جبهتها؟! وهل سيجرؤ أحدهم أن يرسل إلى زوجتك زهورًا؟! أم سترسل أنت زهورًا إلى زوجتك وأنت بالعمل مثلًا؟! أنا أعلم أن هناك أمورًا في الزواج أهم من الزهور، لا تحاول اللعب بأعصابي، أنت تعرف من هو**».

رد يحيى مصدومًا من حديثها: «**انتظري هنا، ما هذا الذي تتفوهين به؟ ماذا تفعلين من ورائي عندما تسافرين لأبيك؟ ما لكِ أنتِ بأمور الزواج ومن قبَّل من؟! ماذا يحدث ببنات هذه العائلة يا ربي؟!**».

لتضحك قائلة ببراءة: «**وماذا قلت أنا؟! أتعطي نفسك الحق وتسلبه من غيرك؟!**».

أعطته ظهرها لتضحك بتلاعب، فقال وهو يديرها له بنفاد صبر: «**حق ماذا يا مقصوفة الرقبة؟**».

«**نعم، يحيى. ألم ترَ نفسك بالأمس وأنت تحتضن حنين ولم يهمك وجود العائلة والأصدقاء والجيران، أيها العاشق المتيم؟!**».

صُدم يحيى، ولأول مرة لم يستطع الرد عليها، ليقول: «**أصبحتِ وقحة، رهف**».

مطت شفتيها وهي تقول: «**للأسف، يحيى، إنه السن؛ لم أعد صغيرة، أنت فقط ما زلت تتعامل معي على أني طفلة**».

«**سن؟! سن ماذا، رهف؟! وكم كل سنك هذه؟!**».

«**نعم، يحيى. أيرضيك وضعي هذا؟ كلكم تزوجتم إلا إياي، وأنت مصمم ألا تخبرني من أحبني أخيرًا!**».

«**رهف، هل جن عقلك؟! تتحدثين عن زواج وأنتِ لا تعرفين شيئًا عن هذا الشخص؟! فرضًا أنه متلاعب، أو أحدهم يمزح معكِ!**».

شبت بقدميها تحاول وضع يدها على كتفه كما يفعل معها دائمًا، وهي تقول: «**الموضوع ليس كذلك، يحيى. أنا فقط أردت أن أتأكد أنه نفس الشخص الذي تحدث معي بالأمس**».

ضحك يحيى وهو يبعد يدها عنه ويسير ليدخل المنزل، وهو يقول: «**وتحدثتِ معه أيضًا؟! وتقولينها بكل ثقة! يا ألله! أنا لا أستطيع تحمل ذلك السمج في العائلة**».

جرت وراءه وهي تقول: «**يحيى، انتظر. أنت تعرفه، قلت سمج، إذًا تعرفه**».

«**ماذا تريدين مني أن أفعل الآن، رهف؟ أشكره على معاكسة أختي؟!**».

نظرت له بخجل لتقول بترجٍّ: «**أنت تعرفت على خطه. من هو؟**».

أخذ نفسًا وقال: «**باسم. ممكن أن أذهب الآن؟**».

هزت رأسها بإيجاب والابتسامة تملأ وجهها، فقد تأكدت أنه نفس الاسم الذي ذكره بالأمس لها، ذهب يحيى لغرفة سلمى ليجد والدته معها، مال يقبل رأس أمه وبعدها سلمى، وجلس جوارهما وقال: «**ما الأخبار يا عروس؟**».

مدت سلمى يدها لتريه خاتمها بسعادة، ابتسم وأمسك يدها وهو يقول: «**مبارك، حبيبتي**».

فقالت كريمة وهي تعطيه العلبة الكبيرة: «**وهناك أيضًا هدية أخرى لم تهتم بها أختك**».

فتحها يحيى ليبتسم وهو يقول: «**دائمًا معاذ ذوقه مميز. لماذا لم تعجبكِ، سلمى؟!**».

قالت وهي تشير إلى أصبعها: «**ومن قال إنها لم تعجبني؟ فقط أنا ما يهمني هذا**».

وضعت كريمة يدها على كتف يحيى وقد همت بالمغادرة، وقالت: «**أنتظرك في غرفتي، حبيبي**»، وتركته ليتحدث مع أخته.

بعد خروج كريمة، نظر يحيى لسلمى وسألها: «**هل أنتِ سعيدة، سلمى؟**».

هزت رأسها بالإيجاب ولم تحاول النظر إليه، فرفع رأسها لتنظر له وهو يقول: «**سلمى، هل هذه السعادة التي تتمنينها؟ أمامكِ وقت إذا أردتِ الرجوع، ما زال هناك فرصة. فكري بعقلكِ قليلًا**».

ردت عليه بهدوء غير معتاد منها: «**لماذا تقول ذلك، يحيى؟**».

قال بنفس نبرته الرخيمة: «**لا أريد أن أشعر يومًا أني فرطت فيكِ بسهولة ورضيت بوضع لا يليق بكِ، أخشى أن أكون رضيت بذلك لأنه صديقي**».

ردت بابتسامة رضا: «**لكنه كان أيضًا قراري، ليس لك ذنب فيه**».

«**أنا أخوكِ، سلمى. أنتِ مسئوليتي، قطعة من قلبي. سوف أُسأل عنكِ أمام الله. عديني ألا تترددي يومًا أن تلجئي لي مهما كان؛ أنا سندكِ في هذه الدنيا. إن شعرتِ بعدم الراحة يومًا فلا تترددي في أن تأتي بين ذراعيَّ وتخبريني**».

حضنته سلمى بشدة وهي تقول: «**لا حرمني الله منك أبدًا، أخي**».

وفي هذه اللحظة تفاجأ الاثنان بالباب يفتح وحنين تدخل مندفعة: «**أين أنتِ، سلمى؟!**».

وقفت أمامهما تضيق عينيها من دون كلام، فما كان من يحيى إلا أن قال وهو يبتسم: «**ضُبطنا متلبسين**».

أخرجت سلمى لسانها لحنين التي هجمت عليهما لتجذب سلمى وهي تقول: «**أنتِ، ماذا تفعلين؟ ابتعدي عنه، ألم تتزوجي بالأمس؟**».

ظلت سلمى متشبثة بأخيها الذي حاول الفصل بينهما، وأخيرًا استطاع أن يجذب حنين لتجلس بجواره تحت ذراعه الأخرى ويقول في أذنها هامسًا: «**ما زلتِ تغارين**».

تجاهلت كلامه وهي تخبط سلمى على كتفها لتتعاركا وهو بينهما، أغمض يحيى عينيه لحظات، رغم عراكهما الطفولي فإنه شعر براحة غريبة عندما جمعهما بين ذراعيه، وفجأة ظهرت من اقتحمت الباب كما حدث من دقائق: «**أين أنتم؟ أنتظركم بـ...**».

وقفت ثوانيَ وبعدها نظرت أرضًا بحرج وكادت أن تغادر الغرفة، دُهش يحيى من انقلاب حالها وقال بشك: «**ما بكِ، رهف؟**».

قالت وهي تستدير: «**أبدًا، أدركت أني لم يعد لي مكان بينكم**».

أسرعت حنين نحوها قبل أن تغادر الغرفة، وجذبتها من يدها تجاههم وهي تقول: «**تعالي يا بلهاء؛ قلب يحيى يسعنا جميعًا. جيد أننا ثلاثة ولا يوجد مكان لأخرى**».

رجعت لرهف بهجتها وهي تقول: «**ولكنه له ذراعان فقط**».

دفعتها حنين لتجلس مكانها، دُهش يحيى من الحوار الدائر حوله وما حدث من حنين، قالت رهف بسعادة: «**شكرًا. لم أتخيل أبدًا أن تفعليها**».

قال يحيى وقد بدأ يشك في أمر حنين: «**ما هذا الموقف البطولي؟!**».

وجدها تجلس على رجله ببساطة شديدة لتقول: «**أبدًا، حاولت أن أجد مكانًا مختلفًا لي**».

بعد وقت ليس بالقصير، ضم الكثير من الأحاديث والذكريات، تركهن يحيى بابتسامة رضا وسعادة، وذهب لوالدته.

جلس يحيى على الأرض أمام والدته، فابتسمت قائلة: «**تخيلت أن يكفيك نصف ساعة لتأتي وليس ساعتين**».

«**نصف الساعة لسلمى فقط، أمي. ولكن عندما يصبحن هن الثلاثة موجودات، فأنا هكذا خرجت من بينهن بأعجوبة**».

ضحكت وهي تقول: «**إذا كان الأمر هكذا، فكان الله في عونك**».

صمتت قليلًا وبعدها قالت: «**ما أخبارك مع زوجتك؟**».

«**الحمد لله، أمي، أحتاج لدعواتك فقط وليس مؤامراتك**».

ضحكت بشدة وقالت: «**أنت من بدأت التلاعب بالفتاة يا ولد**».

قال لها بجدية: «**أبدًا والله، أمي. أنتِ دائمًا تفرضين فيَّ سوء النية. كنت أريد أن تعتاد وجودي معها بشكل مختلف بعد ما مرت به من ظروف؛ خشيت عليها من تهور مشاعري**».

قالت وهي تضع يدها على شعره: «**أسعدك الله، بنيَّ، ورزقك منها الذرية الصالحة**».

بعد عدة أيام، كانت رهف قد اعتادت استقبال الزهور كل يوم، ولكن لم تصل اليوم، فظلت تجوب حديقة البيت بجنون لتحدث نفسها بصوت مرتفع:

«**ماذا حدث يا رهف؟! هل مل من إرسال الزهور؟ هل نسيني؟ مؤكد أساسًا نسي شكلي، هو لم يرَني إلا مرة واحدة. ماذا كنتِ تتوقعين؟ هل تنتظرين قصة حب مثلًا؟! ما لكِ أنتِ وما للحب؟! هل هذا مظهر فتاة تحَب؟ أنا اهتممت بكل شيء لكي يحبني أحدهم؛ لون عينيَّ، لون شعري، ملابسي، كل شيء. ماذا أفعل أكثر من ذلك؟!**».

«**ولا أي شيء. من يحبكِ عليه أن يحبكِ كما أنتِ، رهف بجمالها الطبيعي، المتهورة الحمقاء**».

دارت للصوت خلفها لتقول بغيظ: «**وما أوقفك أنت ورائي تستمع لما أقول؟!**».

ليضحك قائلًا: «**أنتِ من تحدثين نفسكِ بصوت عالٍ**».

«**اتركني، يحيى، من فضلك؛ أنا لست بمزاج معتدل اليوم**».

قال بابتسامة: «**ما رأيكِ أن أعدل لكِ هذا المزاج؟**».

ذهب لسيارته وأخرج منها باقة ورد تشبه الباقة التي كانت تستلمها كل يوم، فنظرت له بامتنان: «**شكرًا، يحيى، لا داعي للتعاطف، ليس لهذه الدرجة**».

ضحك بشدة وقال: «**إنها ليست تعاطفًا، إنها أساسًا ليست مني**».

اعتدلت رهف لتقول وقد برقت عيناها بسعادة قائلة: «**حقيقي، يحيى؟ هل هي منه؟**».

فقال بتأكيد: «**المجنون كان عندي بالشركة اليوم**».

لتقول بغباء: «**ذهب لك الشركة لكي يعطيك الزهور توصلها لي؟ لماذا لم يرسلها ككل يوم؟!**».

رد بجدية: «**ألم يقل لك أحد إن هذا البيت به رجل يجب احترامه، ولا يصح إرسال الزهور كل يوم بهذا الشكل؟!**».

بلعت ريقها وقالت بحزن: «**هل منعته من إرسالها؟**».

ليقول بجدية: «**نعم، رهف**».

ردت بخيبة أمل: «**إذًا انتهى الأمر على هذا**».

فقال بحب: «**رهف، لا بد أن تثقي بنفسكِ. أنتِ جميلة دون كل ما تفعلينه، ومن يحبكِ لا بد أن يحبكِ كما أنتِ وبكل حالاتك، بعينيكِ السوداوين وشعرك الأسود المجنون هذا. رهف، عيناكِ فعلًا جميلتان؛ لا داعي لهاتين العدستين**».

ابتسمت بمجاملة وكادت أن تغادر، «**رهف، انتظري. خذي زهورك، إنها ليست لي**».

أخذت الزهور بيأس، وانصرف يحيى، لتتأمل هي زهورها وتحدث نفسها مرة أخرى: «**كنتِ تحلمين بماذا يا غبية؟! انتهى الحلم**».

تفاجأت بكارت معلق بالزهور؛ نعم، إنه اعتاد على إرسال الكروت مع الزهور. أمسكت الكارت لتقرأه:

(قريبًا سأعطيها لكِ بنفسي).

جرت سريعًا داخل المنزل وهي تصرخ: «**يحيــى، انتظر**».

رن هاتف سلمى لتُدهش من المتصل: «**أهلًا، رحمة. كيف حالكِ؟**».

«**بخير، سلمى. لا تُدهشي من اتصالي، فأنا أفكر منذ أيام أن أتصل بكِ**».

«**يااه، رحمة! أيامًا لكي تتصلي بي؟ لماذا كل هذا التفكير؟!**».

«**أبدًا، كنت أريد أن أُنسيكِ وجودي، كنت أحاول ألا أكون في الصورة، ولكن أردت أن أقول لك شيئًا**».

«**أنتِ في الصورة فعلًا من قبلي. وهذا الوضع كان باتفاقنا، لا داعي لنتجنب بعضنا البعض**».

«**كنت أريد أن أشكركِ**».

«**على ماذا، رحمة؟!**».

«**منذ ارتدى معاذ خاتمك، كلما رأيته أشعر بالامتنان تجاهكِ**».

قالت بعدم فهم: «**لماذا؟!**».

«**كنت... كنت أخشى...**»، صمتت قليلًا، فتحدثت سلمى قائلة:

«وعدتكِ ألا أقصيكِ من حياته، ولا حتى أن أشاركَكِ في مكانتكِ عنده. ومع ذلك، رحمة، الخاتم كان فكرة معاذ، ولم يحضر محبس زواج. وإن كان فعلها لكنت أيضًا وضعته في يده الأخرى».

شعرت بأنفاس رحمة قد اضطربت، فأكملت: **«رحمة، أنتِ تستحقين حبه فعلًا، أنتِ جميلة من الداخل والخارج. وأدركت منذ أول حديث بيني وبين معاذ أنكِ تملكين شيئًا بداخله مستحيل أن ينافسك به أحد، وأنا قررت أن أبحث عن مكان آخر ولا أعرف كيف سأجده، ولكني غير طامعة بأكثر من وجودي بجواره»**.

حاولت رحمة ألا تُظهر التأثر، فقالت لها بثبات: **«كنت أعلم أن الخاتم اختياره، سلمى»**.

ضحكت وهي تقول: **«أنا غيركِ؛ صراحة شككت أنه اختياركِ. ولكن لماذا هذه الثقة؟!»**.

ردت رحمة بابتسامة، لتقول قبل أن تغلق الخط: **«لأنه لون المانجو، سلمى»**.

لو فقط يعلم كل أب قاسٍ لا يعرف غير التقريع والتجريح مع أولاده، كم يحملون له من مشاعر متناقضة! لو يعرف فقط كيف يهز ثقتهم بأنفسهم ويدمر شخصياتهم! والأدهى لو فتاة تحتاج إلى الحنان تنتظر كلمة لطيفة أو ضمة تعطيها الثقة، وتظل رغم القسوة، بداخلها ذلك النقاء الذي يجعلها تشتاق لإحساس أن لها أبًا! ألم يُوصِكم النبي يا بني الرجال بالنساء خيرًا؟!

دخل يحيى حجرته ليجد حنين نائمة على غير عادتها في هذا التوقيت، جلس جوارها، وبمجرد أن مال عليها ليقبل جبهتها وجد الدموع تملأ وجهها، رفعها عندما أدرك أنها ليست نائمة وقال: «**حبيبتي من أزعجها؟ أخبريني وأنا سأعلقه في السقف**».

ابتسمت وقالت بتردد: «**أريد أن أقول لك شيئًا، و... أخشى أن تنزعج مني**».

«**هل بيننا هذه الطريقة، حنين؟**».

ورفع وجهها له، وقال وهو يشير إلى رأسها: «**أي شيء يفكر فيه هذا، لا بد أن أعرفه. أفهمتِ؟**».

«**ولكن هناك أمورًا ممكن ألا تتقبلها، يحيى**».

فقال وهو يحثها على الحديث: «**مثل...؟**».

«**أنا... أنا أريد أن أرى... أبي**».

ضمها إلى صدره وهو يقول: «**وهل هذا ما تخشين قوله؟! إنه أبوكِ، وعمي. أتعتقدين أني سأجعلكِ تقاطعينه؟! إنها مسألة وقت. أريدك أن تهدئي وتنسي كل ما حدث، وأريد أن يأخذ وقته في التفكير جيدًا في ما وصلنا له**».

قالت وهي تحاول التحدث بجدية، ودون أن يظهر عليها الضعف:

«**يحيى، أنا هذه المرة لا أريد أن أستسلم وأرضى بأي وضع، أريد أن أتحدث معه، أواجه دون خوف، لا أريد أن أظل سلبية، أنا أريد أن أزيل كل خوف بداخلي، أن أكون أنا المتحكمة في حياتي، أن أقرر أنا خطواتي**».

ابتسم بسعادة وهو يشاهدها تتحدث بهذه الثقة والجرأة، وقال: «**أتعرفين ما هو إحساسي الآن؟ إحساس الأب عندما يرى أخيرًا ابنته استطاعت أن تقف على أول الطريق. إياكِ أن تتراجعي عمَّا وصلتِ له. أريدكِ دائمًا قوية صاحبة قرار. ولكن معي أريدكِ دائمًا هكذا**».

ابتسمت وهي تقول له: «**هكذا كيف؟**».

«**أن تظلي صغيرتي، ضعيفة بين أحضاني، طفلتي التي كبرت بين يديَّ**».

قالت كريمة بصدمة من حديث عفاف بعد أن اتصلت بها بناءً على طلب يحيى:

«**كيف، عفاف، تركتِ المنزل؟! ولماذا لم تخبريني؟!**».

الفصل الحادي والعشرون

دائمًا، ومع زحمة الحياة، وانشغالنا بأمورنا وأحلامنا، يسقط منا أحدهم، أو ربما نتذكره ولا نهتم لذكراه ما دامت حياتنا تسير بانتظام بعيدًا عنه. ولكن سيظل الواجب المفروض على أعناقنا يلزمنا بوضع هؤلاء في الصورة، حتى وإن كانوا لا يستحقون ذلك.

«سيدة كريمة، أنا حاولت الاتصال برقمكِ، لم يكن هناك رد. وبعدها تركت المنزل؛ بعد زواج حنين، لم يعد لوجودي هناك ضرورة، أنا ظللت هناك من أجل حنين، وإلا كنت أتيت معكم من البداية. تكفي صباح فقط في المنزل».

قالت كريمة وقد أصابها القلق: «**أعلم، عفاف. أنا هاتفي دائمًا ما أنساه، لست معتادة على حمل هذا الشيء، حتى دائمًا أنسى شحنه. هل تعرفين رقم صباح هذه؟**».

للأسف، سيدة كريمة، ضاع مني. وأنا في بلدتي الآن، لا أستطيع الوصول لها».

قالت كريمة بأسى: «**حسنًا، عفاف. مؤكد سأتصل بكِ مرة أخرى. نحن لا نستغني عنكِ أبدًا؛ لو أردتِ نحن فعلًا بحاجة لكِ، أنتِ ربَّيتِ الأولاد معي، وأنا لا أثق إلا بكِ. منزلي يستقبلكِ في أي وقت**».

استعدت رهف للذهاب إلى النادي كعادتها كل يوم، ولكن هذه المرة كانت بحماس زائد؛ فقد وصلتها رسالة لتوها من رقم غير معلوم:

(أنتظركِ بالنادي في موعدكِ، أعلم بذهابكِ كل يوم).

كادت تطير فرحة؛ أخيرًا سيحادثها، أخيرًا ستخوض قصة الحب التي تتمناها طوال عمرها.

جلست رهف في النادي، وبداخلها شغف وانتظار أن يطل عليها فارس الأحلام يحمل زهوره المعتادة ويطلب منها الزواج.

«**صباح الخير، آنسة رهف**».

رفعت رأسها بابتسامة ما كادت أن تظهر حتى اختفت من وجهها وهي ترى شخصًا آخر غير الذي توقعته. أيعقل أن يكون هذا من يرسل الزهور وهي فهمت الأمر خطأ؟!

فقالت بدهشة: «**من أنت؟**».

جلس أمامها ببساطة وهو يمد يده لها بالسلام: «**أمجد زاهر، صديق يحيى ومعاذ، وزميل دراسة**».

لم تمد يدها للسلام وحاولت المغادرة، ليوقفها قائلًا: «**انتظري، آنسة. ألم تأتي في الميعاد؟! أنا أريد أن أتحدث معكِ في أمر مهم، أنتِ رأيتِني يوم عقد قران سلمى ومعاذ، أنا من كنت أقف مع باسم عندما حاول منعكِ من الصعود**».

قالت بصدمة: «**ماذا؟! أنت من أرسل الرسالة؟**».

قال بثقة: «**بالتأكيد**».

قالت وما زالت واقفة تريد الانصراف: «**وكيف حصلت على رقمي؟!**».

«**هذا أمر أصبح من أسهل ما يكون، آنسة. انتظري دقائق، اسمعيني وبعدها قرري الانصراف**».

ترددت رهف، ولكن فضولها دفعها لسماع ماذا يريد: «**ما الأمر؟ من فضلك بسرعة**».

بعد عدة أسابيع، وأثناء حضور أفراد العائلة، تم تحديد موعد الزفاف بعد أسبوع من يومهم هذا، فلا داعي لإطالة الأمر بناءً على اتفاق معاذ ويحيى. تحدثت سلمى أخيرًا بعد كثير من الصمت: «**أنا لا أريد حفل زفاف**».

نظر لها الجميع بدهشة، لتقول كريمة بحسرة: «**لماذا، حبيبتي؟**».

قالت سلمى ببساطة وهي مبتسمة: «**أمي، الحفل ما هو إلا مسرحية لا داعي لها. أنا سألبس فستان زفافي، وسأفعل كل ما يسعدني بوجود من أحبهم ويحبونني فقط**».

تعمدت النظر لمعاذ الذي قابلها بنظرة امتنان وكأنها علمت ما يريد، فقال يحيى مشفقًا على أمه التي بدأت في مسح دموعها بحسرة: «**سلمى، الفرح حلم كل فتاة**».

قالت وما زالت على ابتسامتها: «**من قال ذلك؟! حلم الفتاة فارس الأحلام وفستانها الأبيض. ليس في حلمي حفل كبير ومدعوون يتعمدون النميمة، وغالبًا لا يعجبهم لا العريس ولا العروسة. ولماذا نبتعد؟! أنت – يحيى –، ألم تتزوج حنين من دون حفل؟!**».

وأكملت حديثها بعتاب: «**من دون وجودنا نحن من الأساس**».

رد معترضًا على ما قالت: «**الوضع مختلف. كان هناك ظروف؛ لذلك، سلمى، لا داعي للمقارنة**».

قالت وقد شعرت بإحراجها أخاها وزوجته: «**لم أقصد، يحيى، والله. ولكن كل ما أقصده: ألم تفرح حنين بوجودها معك؟ ألم تشعر أنت بالسعادة؟**».

تكلمت رهف بعدم رضا وهي تقول: «**تتنازلين كثيرًا، سلمى**».

ردت عليها حنين التي تجلس بجوارها، ولأول مرة منذ بداية هذا الارتباط تؤيد موقفًا لسلمى: «**من قال إن الاستغناء عن الناس تنازل؟! يكفيها من يحبونها من قلوبهم، يكفيها سعادتها بزوجها. هي أساسًا لن تتذكر غيره وقتها**».

أنهت حديثها وهي تنظر ليحيى بابتسامة، ليقابل ابتسامتها بغمزة سريعة من عينه لم ينتبه لها سوى رهف التي نظرت أرضًا بعدها ولم تتحدث.

ذهبت سلمى للجلوس بجوار والدتها التي ما زالت تبكي بهدوء لتقول: «**أمي، كل هذا بالإضافة إلى أني لا أريد جرح رحمة، أي شخص يعرفها ويعرف معاذًا فسيكون وجوده محرجًا. رحمة وجودها أو عدم وجودها في حفل الزفاف في الحالتين مؤلم بالنسبة لها، وسيؤلمها أكثر نظرات الناس لها، سواء في الحفل أو بعده**».

لم يحاول معاذ النظر للموجودين؛ فقد كان كل ما يفكر فيه لحظتها أن هذا الحل لم يجرؤ على التفكير فيه من أجل سلمى، أما

هي فكانت من النقاء وطيبة القلب بدرجة أكبر مما تخيل، ليخبر نفسه أن رحمة أحسنت الاختيار.

تفاجأ الجميع برهف تقف وتصرخ قائلة: «**ولماذا تفكرين فيها؟! ألم تُقم هي حفل زفاف عندما تزوجته؟!**».

أسكتتها كريمة قائلة: «**رهف، الوضع ليس كذلك. وكل ما يحدث بموافقة رحمة؛ لماذا نجرحها نحن؟! هي معها حق**».

نظرت لها رهف بصدمة وهي تقول: «**حتى أنتِ خالتي؟!**».

وانصرفت تجري صاعدة السلم أمام صدمة الجميع من رد فعلها المبالغ فيه!

«**مبارك، معاذ**». قالتها رحمة بابتسامتها المعتادة وهي تقبل وجنته، نظر لها بدهشة قائلًا: «**من أخبركِ؟**».

«**وهل كنت تنوي عدم إخباري؟ أم كنت ستعطيني حقنة مخدرة لمدة أسبوعين؟!**».

فقال وما زال الجمود على وجهه وكأنه كان يتمنى عدم علمها: «**من أخبركِ، رحمة؟**».

قالت وهي تحاول أن تُبقي ابتسامتها: «**يحيى أخبرني صباحًا في الشركة أنه ينوي تحديد موعد الزفاف معك اليوم، وسألني لو عندي مانع أن يكون بعد أسبوعين، فأخبرته أن خير البر عاجله، ويكفي أسبوع**».

نظر لها معاذ بحزن وهو يقول: «**قدمتِ موعد زواجي، رحمة؟!**».

فقالت وهي تحتضنه: «**سيحدث سيحدث؛ لا داعي للتأجيل. ولا تقلق، لن أحضر الحفل، لا داعي لوجودي، ولا داعي لحقنة المخدر؛ سأكون بخير. لا تحمل همي**».

ضمها إليه بشدة، ولم يجد ما يستطيع قوله.

بعد يومين مر معاذ على سلمى ليأخذها لشراء ما تريده قبل حفل الزفاف وقد جهز لها مفاجأة جديدة.

وقف بسيارته أمام البناء الموجودة به شقتهم، نظرت له بريبة: «**معاذ، أين سنذهب؟**».

«**هل نسيتِ مكان شقتكِ يا فتاة؟**».

قالت بابتسامة: «**بالطبع لا. ولكن لماذا؟**».

ابتسم لما تخيل أنها تصورته، وقال: «**لا تخافي، سلمى. لن أخطفكِ كالمرة السابقة**».

فقالت عكس ما توقع بطفولة ساحرة ألجمته: «**وحتى لو خطفتني، فما المشكلة؟ زفافنا بعد يومين، وستخطفني العمر كله**».

بمجرد دخولهما الشقة، صرخت سلمى بفرحة: «**هل فرشت الشقة، معاذ؟! كيف؟ ومتى؟**».

ابتسم لفرحتها وقال: «**أتسألين هذا السؤال وأخوكِ وزوجكِ يملكان شركة هندسة وديكور، سلمى؟**».

أخذت تجري في الشقة ببهجة وهي تقول: «**حبيبي، يحيى! يعلم كل أحلامي!**».

أمسكها معاذ وهو يقول بغضب: «**كل هذا و'حبيبي يحيى'؟! أتعلمين؟ هو لم يدفع أي شيء، هو أشرف على الأمر فقط**».

نظرت له بدهشة: «**وما المشكلة؟! أنا أعلم**».

استمر معاذ على غضبه المصطنع: «**ما المشكلة؟! ألم يوجد أي 'حبيبي' للآخر الواقف أمامك؟!**».

قالت له بتسلٍّ: «**ومن أخبرك أن هناك 'حبيبي' آخر؟!**».

جذبها له وهو يقول: «**أنا أعلم من دون أن تقولي يا شقية**».

ولكنه، وفجأة، وقف يفكر وهو يتشمم شيئًا ما في المكان، وقال لنفسه بصوت مسموع وهو يهز رأسه: «**أشعر برائحة رحمة في المكان**».

لم تحاول التعليق، وتجاهلت كلماته تمامًا، وابتعدت عنه بعد أن كانت بين ذراعيه. بعدها حاول السيطرة على أفكاره، وانتبه لردة فعلها، فشدها للداخل وهو يقول محاولًا تجاهل ما قال: «**هناك غرف لم تريها بعد**»، فتح باب غرفة النوم وهو يقول:

« **ألن تدخلي غرفة النوم؟**».

هزت رأسها بـ «**نعم، لن أدخلها**»، ولكنه جذبها إلى داخلها وهو يقول: «**لا، لا بد أن نجربها**». حاولت الابتعاد عنه وهي تقول: «**معاذ، لا تُخِفني منك**».

وفجأة تغير شكله بمجرد أن وقع نظره على الفراش، ولاحظت أنه ارتجف وكأنه أصاب جسده صاعق كهربائي، ونظر حوله في كل مكان كأنه يبحث عن شيء في الغرفة. ابتعدت عنه بقلق وهي تقول: «**معاذ، هل لم ترَ الغرفة من قبل؟ ماذا بك؟!**».

فقال وعلامات الصدمة على وجهه: «**رحمة دخلت هذه الشقة، سلمى. رحمة كانت في هذه الغرفة**».

دُهشت سلمى لما قال؛ فهي تعلم أن لا أحد يعلم مكان الشقة سوى يحيى: «**كيف، معاذ؟ كيف ستدخلها؟!**».

قال بانفعال وكأن لها يدًا في الأمر: «**أنا أقول لكِ رحمة دخلت هذه الشقة، أنا واثق من ذلك، وليس دخولًا عاديًّا**».

تغيرت ملامح سلمى وهي تقول: «**ماذا تعني؟**».

«**هذه الغرفة هي من فرشتها. مستحيل أن يفعل يحيى بها هكذا**».

وأخرج الهاتف من جيبه ليتصل بيحيى، ومن دون مقدمات:

«**كيف دخلت رحمة الشقة، يحيى؟!**».

«**ماذا تقصد، معاذ؟! وكيف ستدخلها وهي لا تعرف بأمرها؟!**».

«**يحيى، أنا واثق من دخول رحمة الشقة، هي من رتبتها. أتفهم ما أقول؟**».

سكت يحيى قليلًا ثم قال: «**آسف، معاذ؛ أنا لم أقدر ذكاءها. مؤكد استنتجت أنها شقتك رغم إخفائي بيانات المالك. والله حاولت إبعاد كل التفاصيل عنها، وهي لم تحاول التعليق. للأسف لا تمرر شيئًا مرور الكرام، لا في العمل ولا خارج العمل. فعلًا، آسف**».

أغلق معاذ الهاتف بأسى لتقول له سلمى وهي لا تعرف ماذا تفعل، أو حتى فيمَ أذنبت: «**كيف عرفت؟ لا يوجد شيء يدل على دخولها**».

قال بأسى وهو ينظر حوله: «**إنها التفاصيل؛ عندما يعرف شخص تفاصيل حياتكِ ستعرفين بصماته على الأشياء، ستعرفين إن كان مر بهذا المكان أم لا. وهي مرت من هنا؛ شممت عطرها بمجرد دخولي الشقة، ولكن كذبت نفسي وقلت ربما تأنيب ضمير.. ربما... أي ربما...**».

لم يُرد تكملة الجملة التي أكملها بداخله: «**... ربما أفتقدها**».

قالت سلمى وقد كادت أن تبكي: «**وهل هذا دليل، معاذ؟ العطر يباع في كل مكان، ربما مهندسة الديكور**».

قال وما زال لا يشعر بما يقول أو يفعل، لا يشعر بوجودها: «**غطاء الفراش هي من وضعته، ثنيته من الاتجاه الذي أفضل النوم به، وجود المنبه في هذا المكان، اتجاه أدواتي عند المرآة؛ لا يعرف هذه التفاصيل إلا هي**».

صمتت سلمى ولم تتحدث، وخرجت من الغرفة بهدوء. خرج وراءها وهو لم يندم على ما قاله، كان لا بد من كسر هذا الحاجز بينهما لتطلع على حياته وتستوعب وجود رحمة بها، وقفت تنتظر بجوار باب الشقة فشدها للداخل.

«**أرجوك، معاذ، أريد العودة**».

قال وقد بدأ يفقد أعصابه: «**لا داعي للغباء، سلمى. أنا أخبرتكِ بما أفكر فيه، لم أقُل ذلك لجرحكِ، استوعبي الأمر، لا داعي لأن يظل بيننا هذا الحاجز، زفافنا بعد يومين**».

بكت وهي تقول: «**أريد أن أذهب من هذا المكان، من فضلك أريد العودة، دعني أغادر واذهب أنت لزوجتك**».

جذبها لصدره يحاول احتضانها وهو يقول: «**وأنتِ زوجتي، سلمى. هذا أصبح واقعًا**».

حاولت إبعاده وهي تقول: «**لا، معاذ، أنت لا تشعر بوجودي من الأساس. هي بداخلك، هي حتى خارجك، هي حولك في كل مكان، هي بيني وبينك. أنا الدخيلة بينكما، وأنا من يجب عليها الانسحاب. أنا تسرعت، فكرت خطأ، كان وهمًا**».

«**وأنتِ زوجتي، ولا بد أن نستوعب أنا وأنتِ أنكِ زوجتي**».

ليحاول التهجم عليها وقد فقد عقله ورزانته، ولكنه أمام دموعها أفاق فجأة على حالتها بين يديه، ليقول بذهول من نفسه: «**آسف... آسف**».

وجدها ترتجف، فاقترب منها يحاول تهدئتها، فزاد ارتجافها عند اقترابه، جذبها بشدة لتستند برأسها على صدره وهو يقول:

«**والله آسف، لم أستطع السيطرة على نفسي. أنا لا أعرف ماذا يحدث لي. لم أكن بهذا التهور في حياتي**».

أخذت فترة حتى هدأت، وهو يحاول بكل الطرق أن يجعلها تعود لطبيعتها. وبعدها غادرا الشقة لتجده يتجه بالسيارة في غير اتجاه المول التجاري:

«**أين نذهب؟!**».

«**سأخطفكِ مرة أخرى**».

«**معاذ، اخطفني مرة واحدة بالله عليك، لا داعي لكل هذا الخطف**».

ضحك بشدة وهو يقول: «**سلمى، ما هذه السلاسة في الردود؟**».

«**أين سنذهب، معاذ؟ أصبحت أخشى مفاجآتك**».

فقال ولم يحاول اللعب بأعصابها -يكفي ما حدث-: «**سنذهب لرحمة**».

قالت بدهشة: «**مــاذا؟!**».

فقال بهدوء: «**ألم تدخل شقتكِ؟ حقكِ أن تدخلي شقتها**».

قالت بسخرية: «**عندك حق في ذلك؛ هكذا تكون عادلًا!**».

وأمام شقة رحمة، ضرب معاذ جرس الباب وبعدها فتح بالمفتاح؛ فهو معتاد على ذلك فقط عندما يكون معه أحد، أدخلها الشقة لتخرج رحمة وتصيبها المفاجأة عندما رأت أن من معه هي سلمى، لتقول بترحيب: «**أهلًا، سلمى، أنرتِ المنزل**».

سلمت عليها سلمى كما هي معتادة دائمًا، فقال معاذ قبل أن تسأل عن سبب الزيارة: «**ألم تدخلي شقتها؟ حقها أن تدخل شقتكِ**».

ابتسمت رحمة ونظرت في الأرض، هي أيضًا لم تضع في الحسبان أنه سيعلم دخولها، قالت سلمى متفاجئة: «**أنتِ دخلتِها فعلًا، وهو لم يكن يتخيلكِ حوله في كل مكان؟!**».

أطلقت رحمة لضحكتها العنان وهي تقول: «**لا تقلقي، هو أعقل من ذلك**».

وسكتت قبل أن تكمل كلامها وهي تنظر في وجه سلمى بشدة، التي احمر وجهها خجلًا وأدارت وجهها تبعده عنها، ودون أي كلام آخر جذبتها رحمة وهي تقول:

«**تعالي معي، سلمى، أريدكِ بالداخل حتى يطلب لنا هذا الوحش طعامًا من الخارج، فأنا لم أجهز الغداء**».

الفصل الثاني والعشرون

دخلت سلمى غرفة رحمة التي ما إن شاهدتها حتى ضحكت وهي تقول: «**وهل كنتِ تتخيلين أن يعتقد أن مهندسة الديكور هي من رتبتها وعدلت له الفراش هكذا، رحمة؟ لقد جعلتِها نسخة أخرى منها**».

قالت رحمة بخجل: «**خطأ مطبعي مني، أنا آسفة. ظننت وقتها أني أفعل ما يريحه**».

ردت عليها سلمى بتساؤل: «**ما أدهشني حقًّا كيف عرف وجودكِ من رائحتكِ**».

دُهشت رحمة لتقول: «**كيف؟**».

فقالت سلمى تحاول أن تخفي حزنها وتتحدث ببساطة: «**بمجرد دخولنا الشقة، وقبل أن يشاهد أي شيء، قال محدثًا نفسه: 'أشعر برائحة رحمة بالمكان'. صراحة ظننت أن ضميره يؤنبه تجاهكِ ويتخيلكِ حوله**».

أخذت رحمة نفسًا عميقًا وهي تقول: «**واضح أنه يحفظ رائحة عطري جيدًا، فأنا لا أستخدم غيره، فهو يجلبه لي دائمًا من الخارج. جيد أنكِ أخبرتِني هذا الأمر حتى لا أقع في هذا الخطأ مرة أخرى**».

بعدها جذبتها رحمة لتُجلسها أمام المرآة، وأخذت في وضع بعض كريمات الأساس على وجهها لتخفي آثار بصمات معاذ عليها.

نظرت لها سلمى بخجل وقد علمت أنها فهمت الأمر، فقالت رحمة وقد أشفقت عليها: «**لا يمكن أن تذهبي لعائلتك بهذا الشكل؛ سيلغي يحيى الزفاف بمجرد أن يراكِ**».

ظلت سلمى محرجة فترة، وبعدها قالت بخفوت وخجل: «**هل هو متهور هكذا دائمًا؟**».

قالتها وكأنها تطلب منها العون، فردت عليها رحمة بكل صدق: «**لا، سلمى؛ هو فقط خرج عن أعصابه. أنا السبب، أنا آسفة فعلًا، ذهابي إلى الشقة هو ما أربكه. لم أكن أقصد أبدًا ما حدث، أنا أحببت أن أطمئن أن الشقة لم ينقصها شيء، دون أن أشعر رتبت أغراضه، والله ما كنت أقصد حتى الفضول. صدقيني**».

قالت سلمى بود: «**كنت سأخبركِ. أنا وعدتكِ أن تكوني صديقتي**».

ابتسمت رحمة وهي تجذبها لتخرجا من الغرفة، ولكن تفاجأت الاثنتان بمعاذ وقد استقبل الطعام وأخذ يأكل بمفرده وقد أوشك على إنهائه، فنظرت سلمى لرحمة وهي تقول بجدية: «**إنه متوحش، رحمة. لم تخبريني ذلك، إنه يأكل أي شيء أمامه. أهو من آكلي لحوم البشر؟!**».

ضحكت رحمة بشدة وهي تخبط كفًّا بالآخر، لتجده يرفع رأسه وكأنه انتبه لهما أخيرًا وقد أنهى معظم الطعام: «**سلمى، اجلسي لتأكلي؛ فلا يصح أن ترجعي إلى البيت دون طعام. ماذا سيقولون عني؟!**».

فتحت سلمى فاها غير مستوعبة ما يقوله، لتجده قد جذب رحمة للداخل بعنف، فقالت رحمة وهي تضحك: «**وأنا أريد أن آكل**».

«**سأطلب لكِ طعامًا لاحقًا**».

أدخلها الغرفة بعنف وأغلق الباب بالمفتاح لأول مرة، فهناك بالخارج من لا يتوقع أي رد فعل لها، ظلت رحمة تضحك وهي تقول: «**اهدأ يا وحش**».

اقترب منها وهو يثني يدها وراء ظهرها بعنف: «**سأجن بسببكِ أيتها المتهورة. ماذا تريدين أن تفعلي بي؟ تذهبين إلى شقة ضرتكِ يا مجنونة؟! والأدهى ترتبينها، رحمة؟! ترتبين الفراش لها؟!**».

ردت ببرود وكأنها لم تسمع ما قال: «**لا يمكن أن ترجع لعائلتها بهذا الشكل. ألهذا السبب أحضرتها هنا؟ أظننتها مانجو فعلًا؟! الفتاة مصدومة، معاذ، لقد أخطأت**».

ضغط على أسنانه وهو يقول بنفاد صبر: «**كيف تتحدثين بهذه البساطة؟! ألم يؤثر على قلبكِ ما يكون قد حدث بيننا؟! أي كائن أنتِ؟!**».

«**وهل لو ظهر عليَّ الغيرة والغيظ ستكون سعيدًا؟! أنا أنبهك لما يجب أن تفعله؛ هذا جزائي؟! أشعر بتأنيب الضمير تجاهها، معاذ**».

وظلت تضحك لتجده تهور عليها أكثر وهو يقول: «**كبحت جماح نفسي معها ليكون هذا من نصيبك أنتِ**».

وإذا لم تتقبل هي منه كل هذا فمن سيتقبله غير قلبها؟!

خرج معاذ بعد فترة، وجذب سلمى من ذراعها: «**هيا، سلمى، سنذهب**».

قالت بشك: «**أين رحمة؟**».

رد عليها بنفس الهدوء: «**لا تشغلي بالكِ. لقد أكلتها**».

استعدت العائلة لزواج سلمى، ولاحظ الجميع اعتراض رهف غير المبرر على الزواج بهذا الشكل، جاء اليوم المنتظر.

استيقظ معاذ في موعده ككل يوم، فلم يجد أي أثر لرحمة بالمنزل، كاد أن يجن إلى أن وقع نظره على ورقة أمام زجاجة عطره:

(حبيبي، اعتنِ بنفسك واستمتع بوقتك، ولا تقلق عليَّ، أنا فقط أريد أخذ هدنة من نفسي. لا تحاول الاتصال بي؛ فهاتفي مغلق. اعتَدْ عدم وجودي، معاذ، كما أحاول أن أفعل. ستعود لتجدني في انتظارك إن شاء الله).

قد تبذل قصارى جهدك لتبدو قويًّا، تُظهر عكس ما يعتمل داخلك حتى لا تبدو منكسرًا؛ حتى لا تصبح محلًّا للشفقة، وفجأة تجد أنك لم تعد تتحمل، تحتاج – في هذا التوقيت بالذات – أن تصرخ من ألم وجع القلب وناره التي تحتاج أن تبرد... ابتعد... ارحل... اذهب إلى أي مكان إلا مكانهم، سافر بعيدًا واصرخ، ربما الصحراء، حتى لا يسمعك أحد، اجعل صدى صراخك يعود ليرن من حولك، ربما يطفئ من لوعتك وقهرك، ربما تُخرج ما يؤجج النار في قلبك، احذر أن يراك أحد، ظل قويًّا للنهاية، هذا ما قررت فعله.

ظل معاذ يتحرك في المنزل بعصبية لا يعرف ماذا يفعل، هاتفها بالطبع مغلق، ليتصل بيحيى قائلًا بألم: «**رحمة رحلت، يحيى**».

«**كيف هذا، معاذ؟! أين رحلت؟!**».

«لا أعرف، هاتفها مغلق. تركت لي ورقة بألا أبحث عنها إلى أن أعود».

«لا تقلق، معاذ. رحمة أعقل من ذلك. هناك مسائل كثيرة في العمل لا يمكن أن تتركها؛ مؤكد ستظهر. هي تحب عملها، أنت تعرف».

«يحيى، ليس لها مكان تذهب فيه، ليس لها غيري، هي لم تذهب من قبل إلى مكان من دوني».

أخذ يحيى نفسًا يحاول ألا يظهر قلقه، فاليوم لا يحتمل توترًا، ليقول محاولًا تهدئته: **«مؤكد لم تستطع رؤيتك تتزين لعرسك وتُزف إلى غيرها. هي فعلت الصواب لنفسها، معاذ. لا تكن أنانيًّا. كان سيصبح عذابًا لها. غدًا سأطمئنك عليها، صدقني»**.

أغلق معه الهاتف، وظل يتحرك في المنزل لا يعرف ماذا يفعل الآن، إلى أن قرر أن يبدأ في الاستعداد للنزول، فلا داعي للتأخير. فتح خزانة الملابس وهو لا يعرف ماذا سيرتدي، ليجد بدلة الزفاف جاهزة بكل ما يحتاج، وبجوارها حقيبة مؤكد أنها لرحلة شهر العسل. حتى هذي لم يكن يتذكر... ولم تنسَها هي!

وقف الجميع ينتظر نزول العروس بيد أخيها، ترتدي فستانها الأبيض، كان واسعًا براقًا بطرحته المميزة لليلة العمر، فستانًا يأخذ العقل، وسط زغاريد عفاف التي أتت على عجل بمجرد إخبار كريمة باحتياجها لها في يوم كهذا.

وقف العريس ينتظر وصولها له وقد أخذت عقله وشتتت تفكيره، نسخة مختلفة من الجمال، براءة ابتسامتها، سحر خجل عينيها كلما اقتربت منه.

ومر اليوم وسط سعادة الجميع، وتوتر معاذ الذي بقدر ما هو يخشى ظهور رحمة ورؤيته في هذا المشهد، كانت أمنيته أن يراها ليطمئن عليها أنها بخير، يلتفت حوله باحثًا عن عينيها في أي مكان، يشعر أنها ستأتي لرؤيته، ولكن كيف؟ لقد اختفت وكأنها كانت حلمًا أو طيفًا مر من أمامه ومضى!

أما رهف، فقد كانت تتعمد معاملة معاذ بكل صلف، وزاد من سوء معاملتها له وجود باسم بالطبع، فلم يحاول باسم الحديث معها أو الاقتراب منها، رغم ابتسامته لها من بعيد كلما تلاقت العيون، فهذا لم يكن كافيًا بالنسبة لها ولم يُرضها، بل جعل الظنون تلعب بها.

انتهى الحفل بعد تهنئة المقربين الذين لم يكن موجودًا سواهم، وركبت العروس بجوار عريسها في سيارته، وكان وراءهما يحيى وحنين بسيارتهما لتوصيلهما للمنزل، فقد رفضت سلمى السفر بفستان الزفاف، وقررا قضاء الليلة في منزلهما على أن يسافرا صباحًا.

نزل الجميع أمام البناء ليقول يحيى: «**أختي أصبحت لك، معاذ. وأنت أكثر من يعرف ما هي بالنسبة لي. حافظ عليها، صديقي**».

أغمض معاذ عينيه وربت على كتف يحيى، فلم يجد ما يقوله، ليركبا بعدها المصعد في اتجاه شقتهما، نظر معاذ ليحيى قبل أن يغلق باب المصعد وكأنه يترجاه، يطلب منه شيئًا لا يعرفه سواه، ليفهم يحيى الرسالة ويغمض عينيه له بتفهم يطمئنه. وأغلق الباب.

اتجه يحيى لحنين التي كانت تقف بجوار السيارة، لتتفاجأ به يجري خطوات، وعاد لها مسرعًا يركب السيارة ويصرخ فيها أن تركب، وانطلق بالسيارة لتقول له بعدم فهم: «**ماذا حدث؟ ماذا هناك؟**».

رد بتوتر وهو يضغط بقدمه على أقصى سرعة: «**رحمة كانت تقف بسيارتها بعيدًا، حنين، كانت تشاهدنا من بعيد، وبمجرد أن رأيتها جرت بالسيارة**».

طار يحيى بسيارته، ولكن كانت رحمة أسرع في رد الفعل فلم يلحق بها، وبعد أن قص عليها صباحًا رحيل رحمة واختفاءها، قالت بحزن: «**كنت واثقة أنها لن تتحمل**».

«**ولماذا هذه الثقة؟**».

«**لأنها مهما كانت تمتلك من القوة فهي تحبه بجنون، ونحن عندما نصل لهذه الدرجة من الحب تضيع إرادتنا، وتضعف قوتنا**».

فتح معاذ الباب ليشير بحركة مسرحية للعروسة بالدخول، وبمجرد أن أغلق الباب، وجدها ترجع للخلف بخوف، ليقول بأسى أمام تصرفها: «**سلمى، أتخافين مني حقًّا؟**».

لم تحاول الرد، ووقفت مرتبكة يزداد توترها كلما تقدم خطوة تجاهها، أدرك معاذ أن الأمر بينهما أصبح معقدًا بعد تهوره السابق، ليحاول تدارك الموقف: «**سلمى، أنتِ بهذا الشكل تجعلينني أصغر في نظر نفسي جدًّا. لم أكن أتخيل أن تكون البداية بهذا الشكل، من**

الممكن أن أتركِكِ وأبتعد، ولكني لا أفضل هذا الحل. إن كان لي عندكِ رصيد فرجاء اجعلي هذا اليوم مختلفًا لنظل نذكره».

هزت له رأسها بالإيجاب، مما شجعه على الاقتراب منها وضمها إلى صدره وهو يقول: «**والله، سلمى، لو تعلمين كيف يصيبني الهدوء النفسي بمجرد أن أضمكِ هكذا لغفرتِ لي تهوري معكِ**».

ابتسمت دون رفع نظرها له، ولكنها تمسكت بسترته أكثر وكأنها ترد عليه بهذه الحركة. وما كان منه إلا أن حملها لتتمسك بعنقه بشدة.

دخل بها الغرفة وأنزلها لتقف أمامه، فوجدها ترتجف ولا تستطيع الوقوف، فقال بصوته الرخيم: «**سلمى، اهدئي. أعدكِ لن أقربكِ، والله لن يحدث شيء**».

نظرت له بشك وهو يخلع سترته ورابطة عنقه، فابتسم وهو يقول: «**مؤكد أننا لن ننام هكذا، ولكن لا تضعي في حسبانكِ أن ينام كل منا في غرفة. نحن فقط نحتاج أن نصلي ركعتين لكي يبارك لنا الله في حياتنا، وبعدها ننام. اتفقنا؟**».

بعد أن أتما صلاتهما أبدل هو ثيابه، واقترب منها وهي تقف كما هي يساعدها في خلع فستانها، فأمسكت بذراعيه بقوة وهي تقول: «**وعدتني**».

رد بابتسامة يطمئنها: «**وما دخل وعدي بالفستان؟! هل ستنامين بكل هذا الشيء؟! إما الفستان وإما أنا على السرير، سلمى**».

أسقط فستانها وحملها لينزلها على الفراش، وسحب الغطاء عليها ونام جوارها، وأغمض عينيه وهي بين أحضانه، لتهدأ بعدها وتنام في أمان؛ فهي لم تنم منذ عدة أيام، منذ كانت معه آخر مرة!

ظلت رهف مع كريمة طوال الليل تؤنس وحدتها، فهي تعلم كم تتعلق كريمة بسلمى، وكم يصعب عليها زواجها بهذه الطريقة رغم استيعاب كريمة للموقف وسعادتها بمعاذ زوجًا لابنتها، فهي لم تتمنَّ أبدًا أفضل منه لسلمى منذ صغرها: «**لماذا، رهف، تأخذين موقفًا من معاذ بهذا الشكل؟!**».

ابتلعت رهف ريقها وهي تقول: «**أنتِ واثقة به لهذه الدرجة، خالتي؟**».

«**بالطبع، رهف. وإلا فلم أكن لأوافق حتى لو كانت حياتها متوقفة عليه. معاذ ابني مثلكم تمامًا، حملته طفلًا صغيرًا بين يديَّ، ويوم دخوله كلية الطب كان من أسعد أيام حياتي، يعلم الله لم يقل عن سعادتي بدخول يحيى الهندسة كما كان يحلم. وانفطر قلبي لعدم إنجابه، ولكنها أقدار**».

صمتت رهف والدموع تنزل من عينيها لا تستطيع قول شيء أمام صدق مشاعر خالتها التي تخشى عليها من الصدمة! لتكمل كريمة:

«**أتعلمين، رهف؟ والدته كانت أعز صديقاتي، صفاء، يوم وفاتها شعرت أنها أخذت معها صباي وشبابي، لم أشعر أني كبرت إلا عندما**

تركتني، يومها مرت ذكرياتي وأحلامي وسنوات عمري ودفنتها معها، ولم يقر عيني إلا معاذ. أتعلمين؟ توفيت أمه وهو بالمرحلة الثانوية، وقتها لم أتخيل أن يحصل على هذا المجموع. وعندما أتى ليخبرني، وجد دموعي تنهمر بغير تصديق، لن أنسى أبدًا ما قاله لي: 'كان يجب أن أحقق حلمها، خالتي. هي الآن سعيدة، أليس كذلك؟'!».

بكت رهف بشدة وكأنها ترى المشهد أمامها، وقالت: «**يكفي، خالتي، تُصعبين عليَّ أنا الأمر أكثر**».

ظلت كريمة تتحدث وكأنها لم تسمعها: «**أتعلمين؟ صفاء كانت تحلم بالحفيد، دائمًا كانت تقول إنها تحلم أن ترى أبناء معاذ. عندما طلب معاذ الزواج من سلمى صُدمت، ولكني قبل أن أرفض رأيتها تقف أمامي تتوسل إليَّ أن أوافق، كانت تقف صبية كما كانت في شبابها، جميلة، تبتسم وتشير لي: 'وافقي'!**».

ربتت رهف على كتف خالتها واحتضنتها، ولم تستطع التعليق أو الإفصاح عن سبب رفضها معاذًا، ولكنها أمام كل هذه المشاعر التي شحنتها بها خالتها لم تستطع إلا أن تطلب منها شيئًا تمنته منذ زمن: «**خالتي، احكي لي عن أمي. كيف كانت؟ هل كانت تشبهكِ؟ هل كانت بمثل حنانكِ وطيبتكِ؟ أنتِ لم تحكي لي من قبل عنها**».

ضمتها كريمة وهي تفرد جسدها على الفراش، لتنام رهف جوارها، وأخذت تحكي لها: «**كانت أجمل مني، كانت أطيب وأرق بكثير. أتعلمين؟ رآها والدكِ مرة واحدة فقط وظل يطاردها شهورًا إلى أن وافق أبي أن تتزوج قبلي لأنها كانت أصغر من. أحبها والدكِ بجنون، رهف؛ ولذلك هو يحبكِ ولا يستطيع أن يرفض لكِ طلبًا؛ فأنتِ تشبهينها لحد كبير**».

قالت رهف بحزن وكأنها لم تصدقها: «**ولكنها كانت أجمل. هي كانت جميلة؛ لذلك أحبها**».

ابتسمت كريمة وهي تربت على شعر رهف: «**بالعكس، أنتِ نسخة من أمكِ، نفس تصرفاتها، خفة دمها وطفوليتها، نفس عينيكِ السوداوين الواسعتين بكحلهما الطبيعي ورموشكِ الثقيلة. اتركي شعركِ ليعود للونه وستجدين أنكِ أصبحت نسخة منها، ولكن بروح جيلك**».

نظرت لها رهف بسعادة وهي تقول: «**أتعتقدين أني ممكن أن أجد من يحبني مثل أبي عندما أحب أمي؟**».

ابتسمت كريمة وقالت: «**وهل لم تجديه بعد؟ أتتخيلين أني لا أعلم بأمر الزهور يا وردة حياتي؟!**».

استيقظت سلمى من النوم لتجد معاذًا يتأملها، فابتسمت له وهي تقول: «**متى استيقظت؟**».

قال بابتسامة هادئة: «**لا أعرف كم مر من الوقت وأنا أتأمل براءتكِ التي منحني الله إياها. وأنتظر أن تستيقظي لأعرف إجابة سؤالكِ: ما الفرق بين حضني وحضن يحيى؟**».

ابتسمت سلمى بخجل وهي تحاول أن تعدل من جلستها، وإذ بها تفتح عينيها على مصراعيها بصدمة، فابتسم ببراءة وهو يقول:

«**لم تهوني عليَّ أن تنامي بالجورب وهذه الأشياء المتعبة**».

وضعت سلمى يدها على وجهها بخجل، لتجده يميل فوقها لتجد نفسها نائمة مرة أخرى وهو يقول: «**نمنا من دون عشاء، وإلى الآن لم نفطر بعد. هل يرضيكِ هذا؟!**».

ردت عليه ببساطة تحاول إبعاده: «**إذًا هيا نعد الإفطار**».

قال وما زال كما هو: «**لا، أنا إفطاري مختلف بعد الزواج**».

ليأخذها لعالم لم تعرفه إلا على يده، ويغوص هو في نكهة مختلفة؛ ربما ينسى قلقه على رحمة. فما الغريب؟! فهذا حال بني الرجال.

الفصل الثالث والعشرون

وصل العروسان للفندق المقرر قضاء أسبوعين كاملين فيه، بناءً على رغبة العروس، وبمفردهما. وبمجرد أن استقرا في الغرفة، دخلت سلمى تأخذ حمامها بعد هذا المشوار الشاق، لتستعد بعدها للانطلاق؛ فالبحر في انتظارها.

أمسك معاذ بهاتفه يحاول الاتصال برحمة؛ ربما يجد ردًّا، ولكن لم يجد إلا الرسالة المسجلة. اتصل بيحيى بعدها وقد بدأ قلقه يزيد: «**يحيى، طمئني بالله عليك**».

رد يحيى بحيرة لا يعرف ماذا يقول: «**للأسف، معاذ، لم ألحق بها عندما رأيتها. زوجتك بارعة في القيادة**».

أغمض معاذ عينيه بأسى وهو يقول: «**يحيى، أنت تعلم؛ ليس لها أحد. بالله عليك لا تتركها**».

أغلق معاذ الخط فور خروج سلمى بانطلاق وتألق، لتقول بسعادة: «**الآن هيا للمغامرة**».

نظر لها نظرة مطولة يتفرس هيئتها، ليقول وهو يحاول الابتسامة: «**واضح أنكِ تنوين على البحر**».

حاول معاذ طوال اليوم تجاوز توتر أعصابه وعدم إظهار ذلك لسلمى؛ فهي ليس لها أي ذنب، حاول إسعادها بكل الطرق، وتلبية

كل طلباتها التي ما كانت أبدًا شاقة عليه، وظل الوضع على ذلك كل يوم وتوتره يزيد إلى أن وصل لمرحلة لم يستطع معها إخفاء ما به.

لم يكُف يحيى عن البحث عنها وحتى إرسال الرسائل الإلكترونية لها، وما كان ليطمئنهم إلا أنها تقرأ الرسائل وترد على رسائل العمل فقط.

وبالطبع لم يخفَ الأمر على سلمى التي لم تكن تدري أيحزنها حال زوجها وهو معها ويفكر بأخرى، بل هو ليس معها إلا بجسده فقط، ترى روحه تبحث عن رحمة في كل مكان حوله وكأنها ستظهر له في أي وقت، وكأنها ستخرج له من البحر أو ربما تنزل له من السماء التي يجلس يتأملها، أم تحزن هي على رحمة التي من المؤكد لم تستطع الصمود أمام اختيارها.

سمعته يصرخ في يحيى على الهاتف قائلًا: «**يحيى، أنا لم أعد أستطيع الصبر أكثر من ذلك. عشرة أيام، يحيى، لا أعرف أين زوجتي، وأنت تطمئنني أنها ترد على رسائل العمل! والله لو حدث لها مكروه فلن أسامح نفسي أبدًا**».

وأمام غضبه لم يستطع يحيى إلا أن يقول بنبرة شابها العنف: «**قدر هروبها من نفسها؛ هي ليست طائرًا في قفص تريد إغلاقه خوفًا عليه من الهرب. قلت لك هي بخير وتراسل السكرتارية والمهندسين. ماذا يعني ذلك؟ انتبه أنت لزوجتك التي معك**».

فرد معاذ بصوت مخنوق: «**أعلم أن الأمر صعب عليك، و... أعلم أني هكذا أُقصر في حق سلمى. ولكن هي... رحمة**».

أنهى المكالمة باسمها، ليجد سلمى واقفة خلفه ولا يشعر بها، فقالت له بصدق رغم دموع الحسرة التي تملأ عينيها: «**لا تخف عليها، معاذ، هي مؤكد بخير. أتعرف لماذا؟ لأنها تعلم أن لو حدث لها شيء فستؤذيك، وهي مستحيل أن تؤذيك، هي ضحت بالكثير من أجل إسعادك. أتتخيل أن توجع قلبك بعد كل هذا؟**».

لم يحاول النظر لها، وظل ينظر للبحر أمامه وهو يقول: «**آسف، سلمى. والله ما بيدي. أنتِ لا تعلمين ظروفها، رحمة ليس لها أحد في الدنيا غيري، ليس لها أصدقاء أو معارف. حتى أهلها لم تعد تعرف عنهم شيئًا. أنتِ لا تتخيلين شعور رجل لا يعرف مكان زوجته. أتفهمينني، سلمى؟**».

ابتعدت سلمى عنه لتقف بعيدًا أمام البحر، لتبكي بهدوء حالها وحاله وحتى حال رحمة، وقررت المحاولة؛ فربما تستطيع. أمسكت بهاتفها وقربت الهاتف من فمها لتقوم بتسجيل رسالة صوتية لم تستطع خلالها السيطرة على بكائها: (رحمة، أعلم أنكِ ستسمعين رسالتي. إن كنتِ تحبينه فأرجوكِ طمئنيه عليكِ. إن كنتِ أنتِ من جعلتِني طرفًا في قصتكما فلا تفعلي بي هذا، ولا تبخلي عليَّ بالسعادة التي حلمت بها سنين. رحمة، إنه يناديكِ وهو نائم، لا يستطيع أن يراني، لا يشعر بوجودي، قلقه عليكِ يجعله يناديني باسمكِ دون أن يشعر. أنتِ وعدتِه بالسعادة، مستحيل أن يشعر بالسعادة وأنتِ بعيدة عنه. أعلم أن الموقف صعب عليكِ، ولكن طمعي في كرمكِ زائد؛ أنا ينقصني الكثير هنا، ينقصني كل شيء).

أنهت الرسالة وظلت واقفة كما هي تبكي للبحر وجع قلبها.

لم يمر دقائق حتى وجدته يقف فجأة على الرمال وهو يضع الهاتف على أذنه، وكانت أول كلمة واضحة لسمعها «**رحمة**».

«**رحمة، أين أنتِ بالله عليكِ؟**».

ليأتيه صوتها عبر الهاتف تقول بهدوء: «**أنا بخير، معاذ. قلت لك ستجدني أنتظرك عند عودتك**».

بدأ يثور أمام هدوئها المعتاد الذي لم يعد يستطيع أن يتحمله: «**أين أنتِ، رحمة؟ أنا لم أعد أستطيع تحمل تصرفاتك. كيف تذهبين لمكان دون علمي؟!**».

ردت بنفس الهدوء وهي تقول: «**إن كنت تريد معرفة مكاني لكي تطمئن، معاذ، فأنا بأمان، وإن احتجتك فلن أتردد لحظة. أما إن كنت تريد معرفة مكاني لأن شرقيتك تجعلك لا تتقبل أن أكون في مكان لا تعرفه، فأنا ممكن أن أخبرك ما تريد**».

تنفس بصعوبة قائلًا: «**لماذا فعلتِ ذلك؟**».

«**لأني لم أستطع الصمود؛ هل انهياري أمام الجميع سيسعدك؟!**».

لتكمل وهي تحاول السيطرة على دموعها: «**معاذ، أنا بخير أقسم لك، ومكاني أبسط مما تتخيل. اعتنِ بالفتاة التي وثقت فينا وصدقت الوعود، لا تكسر قلبها أكثر من ذلك. هل أصبحت تستمتع بتعذيب القلوب؟! يكفي قلبي! فاعتنِ بقلبها، اعتنِ بها من أجل أخيها؛ إنه تعامل معي بما يرضي الله ولم يخذلني يومًا، فلا تخذل أخته. اعتنِ بنفسك، معاذ؛ يكفيها أن تراك على هذا الحال. واهتم بنفسك من أجلي؛ لا يرضيني أبدًا ما أنت عليه**».

أغلقت الخط بعدها، ولكنه ظل واقفًا فترة يلتفت حوله، ليجد سلمى تأتي مسرعة بعدما رأته أنهى المكالمة، لتقول له بسعادة تأملها: «**أكانت رحمة؟**».

«**نعم، سلمى، هي... أنا أشعر....**».

لم يكمل كلامه لتدرك أنه توقف عن شيء كان سيقوله من أجلها، وجدته ينظر لها بتمعن ويحملها فجأة ويجري بها على الرمال ليرميها في المياه وسط صرخاتها وضحكاتها، وهو يقول: «**أنا لم آتِ بكِ إلى هنا لتقفي تشاهدين الماء من بعيد، عروستي الصغيرة**».

أطلق معاذ لروحه العنان وكأنه حصل على إشارة البدء. وبعد ساعات مرت رائعة كما لم يحدث طوال الأيام السابقة، داخل غرفتهما بالفندق، كان جالسًا يتصفح هاتفه، وجدها تقوم بتشغيل إحدى الأغاني الشرقية على هاتفها وتقف لتتمايل أمامه برقص شرقي محترف، فتح عينيه باتساع؛ فهذا ما لم يكن يتخيله من هذه البريئة، المذهلة. وبمجرد انتهاء الموسيقى جرت نحوه ببساطة تجلس أمامه وهي تبتسم وكأنها لم تفعل شيئًا، فقال وما زال غير مستوعب ما صدر منها: «**ما هذا، سلمى؟**».

فقالت ببساطة: «**كنت أرقص. ما هذه الدهشة؟ ألم ترَ واحدة ترقص من قبل؟!**».

رد عليها بخبث: «**صراحة، لم أرَ إلا على الشاشة**».

ضحكت بعدم تصديق وهي تقول: «**أنسيت، معاذ، أني أعلم أنك متزوج منذ أعوام؟!**».

فقال وقد بدا عليه عدم الفهم، يحاول أن يعرف ما يرمي إليه كلامها: «**وما المشكلة في ذلك، سلمى؟!**».

نظرت له بشك لتقول: «**أنت متزوج صاروخًا ناريًّا، معاذ، شمسًا وهاجة لو دخلت إحدى مسابقات الجمال لفازت دون منافس**».

ضحك وهو يقول: «**جميل أن تصفي ضرتكِ بهذا التميز**».

قالت بجدية: «**إنها حقيقة لا يمكن تكذيبها من عاقل**».

فقال وهو ما زال لا يفهم وجهة نظرها: «**ما دخل رحمة إذًا بالرقص؟**».

قالت وقد بدا عليها الاعتراض: «**نعـــم؟! وهل فتاة مثلها لم ترقص مرة؟ أتخدعني؟!**».

ابتسم معاذ وقد أدرك أخيرًا مقصدها، ورغم أنه لا يريد الخوض في تفاصيل علاقته برحمة – فذلك لا يصح ولا يجوز أن يفعله – فإنه قرر أن يريحها ويغلق هذا الحوار: «**سلمى، الرقص ليس من هوايات ولا اهتمامات رحمة نهائيًّا. ولا تسألي عن أمور تخصها مرة أخرى؛ لا يصح ذلك**».

تخيل أنها لم تستوعب كلامه أو أن رده ضايقها، ولكنه تفاجأ بها تبتسم بسعادة وهي تقول: «**أصِدقٌ ما تقول؟**».

ضحك بدهشة: «**ما هذه السعادة؟!**».

لتقول له بانطلاق: «**أخيرًا وجدت أول الطريق؟**».

«**أول طريق ماذا؟!**».

ابتسمت وقد عاد لها الخجل مرة أخرى، وكأنه خُلق لأجلها: «**أول طريق الوصول لشيء أختلف به عن رحمة**».

ابتسم بأسى لا يعرف بماذا يرد عليها؛ هي تحاول الوصول له بأي شكل، وهو يفكر في غيرها، والمُثير للسخرية أنها تعلم!

آخر يوم في الإجازة، في شركة رحمة العقارية للهندسة والمقاولات، دخلت رحمة الشركة التي تحمل اسمها تلبس نظارة شمسية تكاد تخفي وجهها. اتجهت لغرفة يحيى دون النظر حولها، وكأنها مبرمجة على الطريق. وما إن رآها وقام مذعورًا من هيئتها المرهقة حتى اتجه لها يسندها، ولكنها أشارت له أن يبتعد، وجلست بكل هدوء لتخلع النظارة، لتكون صدمته أكثر بمجرد رؤيته عينيها الحمراوين والهالات السوداء حولها، ليقول بقلق: «**أين كنتِ، رحمة؟ لماذا تفعلين بنفسكِ كل ذلك؟ ألستِ أنتِ من خططتِ لنصل لهذه النقطة؟!**».

تحدثت بخفوت شديد ليس من عادتها، تسند رأسها على يدها ولم تحاول النظر له: «**أتذكر، يحيى، عندما جئت إليك ونحن في السنة الأولى من الجامعة؟ أتذكر كيف ساعدتني؟ معاملتك لي وكأنك مسئول عني. لم أشعر يومًا غير أني فعلًا أختك، كنت أحسد سلمى عليك، يحيى**».

قاطعها بأسى على حالها، فلأول مرة يرى الشمس وقد انطفأت: «**أنتِ فعلًا أختي، رحمة. لا داعي لهذا الكلام الآن. هيا معي للمنزل**».

قالت وهي على نفس الحالة، وقد ظهر عليها التوتر: «**لا، يحيى، اسمعني للنهاية؛ لا بد أن أتحدث**».

تركها تقول ما تريد؛ لعلها تهدأ بعدما تُخرج ما بداخلها.

«عرفت معاذًا عن طريقك، وعلمت برغبته في الارتباط بي. ساعدتني للمرة الثانية وشعرت بصدق سعادتك بهذا الارتباط، رغم أني واثقة أنك كنت تتمناه لأختك. وأتيت لك مرة أخرى، لا أعرف كيف أتصرف أمام رفض أهلي مساعدتي في الزواج، فهو العريس ميسور الحال ولا داعي لخسارتهم أي أموال، وعندما علمت أني سأخبر معاذًا، لم أهن عليك أن يُكسر خاطري أمام عريسي. لن أنسى عندما أعطيتني بطاقتك الائتمانية لأشتري كل ما أحتاجه، قلت لي: 'أنتِ مسئولة مني إلى أن تتزوجي'. أتعرف أن وقتها كانت أول مرة بحياتي لا أشعر باليتم؟ وقتها وأمام رفضي أخبرتني أن أرد لك كل هذه الأموال عندما أعمل. ولكني إلى الآن لم أردها لك، جعلتني شريكتك، وافقت معاذًا بأن تحمل الشركة اسمي رغم أن لك مثله، أصبح لي راتب لا أصرف منه لأن معاذًا لا يتركني أحتاج لشيء. وبعد نجاح الشركة، جعلت لي نسبة من الأرباح من أجل مجهودي، ليصبح لي حساب بالبنك، وأيضًا لم أرد لك أموالك».

صمتت قليلًا تأخذ نفسها وتمسح دموعها، وظل هو ناظرًا أرضًا لم يحاول النظر لها وهي بهذه الحالة، لتكمل كلامها: «**أنا في لحظة قررت رد الجميل، يحيى**».

رفع رأسه ينظر إليها لتكمل: «**نعم، أرد لك الجميل في أختك، سلمى، التي من أول مرة رأيتها أعلم أنها لم تحب سواه. رددت جميلك فيها، يحيى؛ حتى لا أرى نظرة الحزن في عينيك كلما ظهرت أنا ومعاذ أمامها في مكان، كلما حاولت هي تجنبنا وحاول هو تجاهلها. لكني لم أستطع الصمود للنهاية، لم أستطع رد الجميل بأكمله**».

تحدث أخيرًا يقطع كلامها؛ فقد شعر أنها لم تعد تعرف ماذا تقول: «**اهدئي، رحمة، قليلًا. لا داعي لهذا الكلام الآن. نتحدث فيما بعد**».

لتكمل كلامها وكأنها لم تسمعه: «**أتعلم أين كنت؟ كنت أشاهدهما من بعيد**».

وقف يحيى مصدومًا مما قالت، فلم يتوقع أحد أن تكون بنفس المكان، ليقول بأسى: «**ماذا فعلتِ بنفسكِ، رحمة؟!**».

فقالت وقد بدأت تمسك رأسها بألم: «**لم أستطع النوم يومًا دون أن أراه، أنا لا أنام إلا عندما يأتي، أعاني من رهاب الانفراد. لم أخبر معاذًا لأني منذ تزوجته أنام بهدوء، لم أكن أعرف أنني سأعود مرة أخرى أصاب بالذعر عندما أنام بمفردي. ذهبت هناك لكي أنام، طلبت من الفندق إخفاء اسمي، وتركت لهم رقم معاذ إذا حدث لي شيء. ولكن... لم أنم، يحيى، منذ يومين... لم... لم يخرجا من الغرفة منذ يومين... بعد مكالمتي له اختفى من أمامي**».

صمتت تحاول تجميع شتاتها، ولم يجد هو ما يستطيع قوله ليجدها تقول وهي تحاول الوقوف لتنسحب من أمامه: «**آسفة... والله آسفة**».

فوقف أمامها يمنعها من الذهاب: «**لن تخرجي من هنا، رحمة، وأنتِ بهذا الشكل**».

«**دعني أذهب، يحيى**».

خاطبها هذه المرة بنبرة حادة لم يحدثها بها من قبل، قائلًا بعنف: «**اجلسي، رحمة، أفضل. ولا تجعليني أتعامل معكِ بيدي. اجلسي**».

أخرج هاتفه من جيبه ليجري مكالمة وهو ما زال يقف أمامها يمنعها:

«**حنين، أنتظركِ بالشركة، تعالي بسرعة**».

وقبل أن تسأله عن السبب، أكمل كلامه:

«**رحمة عندي في المكتب، أحتاج وجودكِ**».

ظلت واقفة تسند على الباب وهو يقف أمامها، إلى أن قال:

«**رحمة، اجلسي من فضلكِ، أنا لن أتركك تذهبين هكذا. لا تضطريني أن أستخدم معكِ العنف**».

أطاعته هذه المرة؛ فقد كانت فعلًا على قدر من الضعف يجعلها لا تستطيع حتى الخروج من الغرفة بمفردها. وبمجرد أن شعر بهدوئها، اتصل فورًا بمعاذ الذي كان يستعد هو وسلمى للعودة؛ ليطمئنه على رحمة وأنها معه بالشركة.

وبعد فترة كان حنين ويحيى يدخلان برحمة شقتها.

دخلت حنين برحمة الغرفة، وحاولت أن تقنعها أن تنام قليلًا أو تتناول أي شيء، ولكنها رفضت.

«**رحمة، هل تريدين أن يراكِ معاذ بهذا الشكل؟! لا بد أن تنامي قليلًا**».

لم تحاول رحمة الحديث، وظلت جالسة على الفراش تنظر للفراغ أمامها، فقررت حنين إجراء محاولة أخيرة معها:

«إذًا ما رأيكِ أن تأخذي فقط مهدئًا؟ أنا معي بالحقيبة. أتعلمين؟ اشتراه لي معاذ مرة، ومن يومها هو بالحقيبة».

ابتسمت رحمة لأول مرة وهي تأخذه منها، فقالت حنين بمكر: **«الآن تأخذينه لأنه نصيحة دكتور القلوب، أليس كذلك؟»**.

لم يمضِ دقائق وكانت رحمة قد ذهبت في نوم عميق، وحنين تنظر لها بخبَث وهي تعدل من وضع غطائها.

بعد ثلاث ساعات تقريبًا كان معاذ وسلمى قد وصلا لمنزل العائلة، واعتذر لها عن عدم استطاعته الدخول للذهاب للاطمئنان على رحمة.

«متى ستعود؟».

رد بمرار: **«لا أعرف، سلمى»**.

قالت بحزن: **«اعتدت وجودك»**.

«وأين سأذهب، سلمى؟ أنا معكِ طوال العمر».

لم يجد منها سوى ابتسامتها العذبة التي تأسر قلبه، احتضن يدها بكفيه ورفعها لفمه يقبل راحتها، وبعدها فتحت باب السيارة وجرت داخل المنزل بسعادة.

دخلت سلمى المنزل لتجد والدتها في انتظارها بشوق أم لم تعتد بعد على ابتعاد ابنتها عنها، لتجذبها رهف بعدها من ذراعها وتحتضنها بشدة وهي تبكي وكأنها لم ترَها منذ سنين: **«ما هذا، رهف؟ أكنت متعلقة بي وأنا لا أعرف؟! لمَ هذا البكاء؟! أنت تعتادين**

السفر دائمًا والغياب عنا، ما كل هذه العواطف التي ظهرت عليكِ فجأة؟!».

حاولت رهف الابتسام وهي تقول: «**لا أعرف، سلمى. أتعتقدين أني فجأة أصبح عندي إحساس؟**».

«**مؤكد، رهف، هذا أمر يستحق الدراسة**».

جذبتها كريمة من ذراعها وهي تُبعد رهف قائلة: «**تعالي معي، حبيبتي، يمكنكِ الحديث مع هذه المشاغبة في وقت آخر**».

أخذتها كريمة باتجاه غرفتها، لتقول سلمى وهي تخرج لسانها: «**عذرًا، رهف، هناك أمور لا يمكن التحدث بها أمامكِ؛ اذهبي والعبي بالحديقة**».

دخل معاذ منزله ليجد يحيى في انتظاره، فاتجه للغرفة مباشرة وكأنه سيقتحمها بغضب، ولكن منعه يحيى قائلًا: «**انتظر، معاذ، حنين معها بالداخل**».

قال معاذ بغضب: «**إذًا أخبر زوجتك أني جئت**».

«**اجلس أولًا، دعنا نتحدث، هي ليست في حالة طبيعية**».

«**نتحدث في ماذا، يحيى، وزوجتي ظلت أسبوعين لا أعرف لها مكانًا؟!**».

وقف يحيى أمامه يدفعه بيده قائلًا: «**اجلس، معاذ، ولا داعي لهذا الكلام. لا يصح ما تقول**».

جلس معاذ واضعًا يده على رأسه، ساندًا إياها على مرفقيه، ليقول بصوت مخنوق: «**ماذا بها؟**».

«**كان أولى لك أن تعلم أنت ماذا بها. للأسف جميعنا تخيلها تمتلك من القوة ما يجعل الأمر يمر بسهولة، لكن انهارت، معاذ**».

«**هل تعرف أين كانت؟**».

«**أجل، أخبرتني اليوم عندما عادت**».

أخذ معاذ نفسًا عميقًا وهو يقول: «**كانت في القرية السياحية التي كنت بها. أليس كذلك؟**».

الفصل الرابع والعشرون

من منا لم يجرب يومًا أن يشعر باقتراب حبيب أو صديق، تلتفت متوقعًا وجوده خلفك فتجده، تستيقظ متوقعًا أن يحدثك فتجد رسالة منه؟ فما بالك لو كان هذا الشخص هو من ينتفض قلبك باسمه؟ تشعر بقربه فتجده لا لشيء سوى هذه الهالة التي ينشرها حوله، لا يشعر بها سواك لتجذبك كالمغناطيس من دون أن تشعر.

دُهش يحيى من علم معاذ بمكان رحمة، وقال له بحدة وقد كاد يتهور عليه: «**أكنت تعلم بوجودها؟ رأيتها وتركتها بمفردها؟**».

رد معاذ بهدوء مخنوق وكأن صوته يخرج من الأعماق: «**لم أرَها. حاولت البحث عنها دون علم سلمى، ولم أجد لها أثرًا. إنه إحساسي؛ كنت أشعر أنها قريبة. عندما حدثتني منذ يومين، شعرت بوجودها، شعرت أنها تراني**».

رد يحيى وقد أدرك ما وصل إليه حالهما، وفهم ما فعله معاذ: «**ألذلك لم تخرج من الغرفة منذ حديثك معها؟**».

هز معاذ رأسه بصمت، فأكمل يحيى صادمًا إياه: «**انهارت، معاذ، لأنها لم ترَك**».

تحدث معاذ بأسى: «**خشيت عليها أن تراني مع عروسي وهي بمفردها، خفت أن تشعر سلمى بوجودها، لم أجد حلًّا آخر**».

قال يحيى بألم: «**إنها تعاني رهاب الانفراد، وأنت لا تعلم يا دكتور!**».

نظر له معاذ بصدمة: «**رحمة زوجتي... تعانى من فوبيا؟! كيف.. كيف عرفت ذلك؟**».

«**هل تسألني أنا هذا السؤال؟! اسأله لنفسك، كيف لا تعرف طوال السنين الماضية؟! منذ أن كانت في الجامعة أنت تعرفها، خطبتها وعقدت قرانك بالإضافة لأكثر من ثلاث سنوات زواج وأنت لا تعرف عنها شيئًا كهذا، لا تعرف أن زوجتك تخشى النوم بمفردها، وكانت تعالج من هذا الأمر قبل زواجكما يا دكتور**».

ظل معاذ صامتًا مغمضًا عينيه ولم يستطع التكلم، فقط كان يمسك رأسه، ولم يحاول يحيى تأنيبه أكثر من ذلك، فنادى حنين لينصرفا، وقبل أن يغادرا قالت له حنين: «**معاذ، أعطيتها المنوم الخاص بي؛ لن تستيقظ قبل الصباح. اعتنِ بها، ولا داعي للعتاب؛ هي لا تحتمل ذلك الآن**».

وبمجرد مغادرتهما، دلف معاذ للغرفة ليراها كما لم يرَها من قبل، باهتة الوجه هزيلة، واضح عليها الإجهاد. جلس مستندًا بمرفقيه إلى الفراش، وأمسك بيدها، وأخذ يقبلها باشتياق وهو يقول: «**لا أعرف هل أطلب منكِ السماح أم من نفسى، هل أنا السبب أم أنتِ، هل أعذركِ أم ألومكِ. أردتِ تحريك المياه الراكدة وها هي تحركت. هل رضيتِ الآن؟ أنا أناني، رحمة، لم أفكر ماذا ستفعلين في غير وجودي. أنتِ لستِ أمي، لستِ امرأة حديدية لأفعل بكِ هكذا. ماذا أفعل الآن؟ علمتِني كيف أعشقكِ وكيف أعشقها، فدليني فأنا ضللت الطريق**».

أنهى حديثه ونام جوارها وهو يضع يده تحت رأسها ليضمها إليه بشوق، وراح في نوم عميق وكأنه لم ينم منذ فترة، ولم يحاول التفكير في شيء، فقط هي بخير.

عاد يحيى وحنين للمنزل، فوجدا سلمى في انتظارهما بقلق، جذبها يحيى لصدره وهو يقبل رأسها قائلًا: «**افتقدتكِ، سلمى. كيف حالكِ يا عروس؟**».

رفعت سلمى نفسها لتقبله وهي تقول: «**وأنا أيضًا، يحيى. المرة القادمة لا بد أن نذهب جميعنا**».

جذبتها حنين لتحتضنها وهي تقول: «**سأصعد، سلمى، لأبدل ثيابي؛ فأنا مجهدة. وصباحًا انتظريني، لنا حديث طويل، لن أتركك**».

وأكملت بهمس حتى لا يسمعها يحيى: «**لتخبريني هل عرفتِ الفرق**».

ضحكت سلمى لتقول بنفس الطريقة: «**لا، بل عرفت ماذا كان يقصد يحيى بصديقات منحرفات**».

لاحظ يحيى همسهما وهما ما زالتا في أحضان بعضهما البعض، فجذب الاثنتين من أعلى ملابسهما بيديه الاثنتين وهو يقول: «**أتتخيلان أني لا أعلم ماذا يمكن أن تقولا الآن؟**».

تخلصت حنين من يده وصعدت مسرعة، فأشار لسلمى أن تجلس على الأريكة ليجلس جوارها ويأخذها تحت ذراعه، لا يعرف ماذا يقول لها ولا يستطيع لوم أحدهم، ولكن لا بد من التحدث: «**هل أنتِ سعيدة، سلمى؟**».

ابتسمت له بخجل وهي تهز رأسها، وسألته: «**كيف حال رحمة؟**».

تحدث مترددًا مما سوف يقوله، ولكن ينبغي عليه ذلك، لا مفر:

«**أتمنى أن تراعي ظروف رحمة لفترة، ولا تثقلي على معاذ؛ فهو مرتبك ويحتاج لبعض الوقت لتنظيم حياته**».

«**هل هي متعبة لهذه الدرجة؟**».

«**أكثر مما تتخيلين**».

ردت عليه محاولة عدم إظهار حزنها: «**معنى ذلك أنه لن يأتي لي**».

رفع يحيى رأسه لينظر للسماء وكأنه يطلب العون من الله؛ فالأمر صعب عليه، فمهما كان فهي أخته التي يعلم أن سعادتها منقوصة، فقال بمرارة: «**الأمور دائمًا في بدايتها صعبة. أنتِ رضيتِ بوضع تعرفينه منذ سنين، أما هي فالأمر جديد عليها، ستأخذ فترة لتتأقلم على انسحابه من حياتها بعض الوقت. للأسف، سأقول لكِ ضعي نفسكِ مكانها؛ وقته كله كان لها، سلمى، وفجأة اختفى**».

هزت رأسها ولم تستطع إخفاء حزنها عنه.

صباحًا، استيقظ معاذ ليجدها ما زالت نائمة. أخذ حمامه الصباحي، وجهز لها ملابسها، واتجه للمطبخ لإعداد الفطور، وعاد ليجدها ما زالت نائمة، فقرر الاتصال بسلمى قبل أن يحاول أن يوقظها: «**صباح الخير، عروستي الصغيرة. كيف حالكِ اليوم؟**».

ردت عليه بإحباط: «**استيقظت مبكرًا؛ لقد عودتني على ذلك، لترحل بعدها!**».

رد عليها بخفوت: «**لن أرحل وأتركك أبدًا. ولكن هل يرضيكِ أن أتركها متعبة وآتي إليكِ؟**».

صمت قليلًا، ولم تحاول هي التحدث، فأكمل بأسى: «**إنها متعبة بشدة، سلمى، تكاد تكون لم تأكل أو تنم الفترة الماضية. إنها إلى الآن لا تشعر بوجودي**».

صمت يحاول أن يختار الكلام المناسب، فهو لا يريد استعطافها، هو فقط يحتاج منها أن تقدر الوضع، ليكمل: «**أعلم أنكِ عروس. سامحيني. لا أستطيع تركها هكذا**».

قاطعته بنبرة لائمة: «**يكفي، معاذ. أتراني من النذالة على هذه الدرجة؟ أم عرفت عني قسوة القلب؟ أنا... أنا فقط تخيلت أنها أقوى من ذلك، أقوى من أي منا. ألم تكن هي من رسمت لنا الحياة وردية كسلة الفاكهة؟ لقد أخذت منها الجرأة والقوة لأخذ هذه الخطوة. لولاها لما كنت أقدمت على ذلك. وأنت تعلم**».

قال وهو يتأمل وجه رحمة من بعيد: «**هي كذلك فعلًا، وستعود. ما هي فيه فقط صدمة البداية؛ فمهما كان، فالكلام أسهل من الواقع. استمتعي بيومكِ، سلمى، وأنا بمجرد أن أطمئن عليها سأكون عندكِ، أعدكِ**».

صمتت قليلًا قبل أن تسأله بحرج: «**هل لي أن أخرج قليلًا؟**».

«**بالطبع، حبيبتي، كما تشائين. ولكن أخبريني فقط أين أنتِ**».

فهمست قائلة: «**معاذ، أفتقدك**».

ابتسم بمرار وهو يقول: « **أنا أيضًا أفتقدكِ، صغيرتي. مسألة وقت، وستنتظم حياتنا**».

بعد أن أغلق الهاتف عاد لرحمة ليقترب منها بقلق؛ فهي تنام منذ أكثر من ثماني عشرة ساعة متواصلة، من دون طعام ولا يعرف متى آخر مرة أكلت فيها، فأخذ قليلًا من عطره على يده وقربه من أنفها: «**رحمة، ما كل هذا النوم؟**».

كانت يده تتلمس بشرتها وكأنه يريد التأكد من وجودها، فتحت عينيها بصعوبة لتراه أمامها، وأكملت نومها، تركها لحظات ولكنه خشي عليها من قلة الطعام، فبلل يده من كوب الماء الموضوع بجوار الفراش ووضعها على وجنتها، لتقول بضيق: «**اتركني أنام، معاذ**».

مال بجبهته يسندها على جبينها وهو يحاوطها بذراعيه، ليقول: «**هكذا أنتِ تتهربين، استيقظي رحمة وإلا حملتكِ كما أنتِ ووضعتكِ في حوض الاستحمام، وأنتِ تعلمين أني أفعلها**».

حاولت الجلوس وكأن جسدها تيبس من النوم، فساعدها ليقول وهو يرفعها لتجلس: «**صباح الخير. كل هذا نوم؟!**».

هربت بعينيها بعيدًا عنه، وقالت بتوتر: «**معاذ، أرجوك، أنا لا أتحمل العتاب**».

قال وهو لا يحيد بنظره عنها: «**ومن قال إني سوف أعاتبكِ؟ أنا سأنتظر أن تستردي طاقتكِ وقدرتكِ على المجادلة كاملة، لأعرفك عواقب ما فعلتِ بي وبنفسكِ**».

خفضت بصرها وكأنها تخجل من النظر إليه، فرفع رأسها بأنامله لتنظر له وهو يقول: «**لماذا فعلتِ ذلك؟**».

لم تحاول الرد، وأغمضت عينيها هربًا منه، فقال وهو يمسد على شعرها ويضمها لصدره بشوق: «**لماذا ذهبتِ هناك؟ تعلمين أني شعرت بوجودك. واثق أنكِ كنتِ ترينني ونحن نتحدث في الهاتف**».

قالت بصوت ضعيف لم يعهده منها حتى في أصعب أوقاتهما معًا: «**لأني لم أجد مكانًا أذهب إليه دون وجودك معي**».

ضمها بشدة وتركها تكمل كلامها: «**لا أستطيع النوم إلا عندما أطمئن لوجودك**».

«**لماذا لم تخبريني بهذا الأمر من قبل؟ لماذا دائمًا تحاولين إسعادي ولا تفكرين بنفسكِ؟! كيف لم أعرف كل هذه السنين؟! أترينني بمثل هذه الهشاشة؟**».

ردت بخفوت: «**كنت أهاب النوم عندما كنت أعيش بمفردي، لم أستطع النوم براحة إلا عندما تزوجنا، تخيلت أن الأمر انتهى**».

ليقول محاولًا السيطرة على نفسه كي لا يعنفها: «**ماذا كنتِ تفعلين عندما أغيب في المشفى أو يكون عندي جراحة ليلًا؟ أكنتِ تأخذين أدوية من ورائي وتخفينها عني؟**».

تشبثت بصدره ولم تحاول النظر له، قائلة: «**لا والله، كنت لا أنام إلا عندما تعود، كنت أحاول إشغال وقتي بأي شيء**».

قال بصوت حاد وقد زاد من ضغط أصابعه عليها وما زالت تسند برأسها على صدره: «**كثيرًا كنت أعود لأجدكِ نائمة، رحمة**».

قالت بضعف تحاول عدم البكاء: «**كنت لا أستطيع النوم إلا عندما تعود، لم أنم مرة قبل عودتك**».

تحدث بأسى وشفقة على حالها وعلى وجهه ابتسامة سخرية: «**أكل ذلك بداخلكِ وتُظهرين الشجاعة؟ وأنا أتخيل أني أعرفكِ وأحفظ حتى أنفاسكِ!**».

«**أردت ألا أشغلك بأمر لم يعد مهمًّا، أنا تداركته بوجودك جواري**».

فقال وقد بدأ يثور: «**تداركتِه، رحمة، لدرجة أن تظلي كل هذه الفترة في الفندق بمفردكِ ودون الخروج من الغرفة! هل تتخيلين لو حدث لك شيء كيف كنت سأجدكِ؟ ماذا سيكون إحساسي وأنتِ بنفس المكان الذي أنا به وأستمتع بوقتي، وأنتِ تغلقين على نفسكِ غرفة وتتابعيننا من خلف زجاج النافذة؟! لماذا، رحمة، جلد الذات هذا؟! لماذا تعذبين نفسكِ؟**».

قالت بخفوت: «**كنت أحاول ألا تشعر بوجودي، تخيلت أن يمر الأمر كما رسمت، لم أكن أضمن أن أخرج من الغرفة فتراني، حتى عطري لم أضعه**».

ضمها بكلتا يديه يغرس رأسه في شعرها وهو يقول بنبرة اختلط بها اللين والعنف:

«**وإحساسي بوجودكِ، ماذا تفعلين به؟ هل تخيلتِ أني لم أشعر أنكِ ترينني أثناء محادثتكِ معي؟! كنت متأكدًا أنكِ هناك، سألت في الفندق عن اسمكِ ولم أجده!**».

بدأت تخونها الدموع وهي تقول: «**شعرت بأنك عرفت بوجودي، فأخبرت الفندق بإخفاء اسمي. وأنت عاقبتني بعدم خروجك من الغرفة، أليس كذلك؟**».

قال وقد بدأ يفقد السيطرة على هدوئه: «**غبية، أنتِ غبية. بحثت عنك ليلًا في كل مكان وأنا أعرف أنكِ لن تتركي لي فرصة لأجدكِ**».

أطلقت العنان لشهقاتها أمام عتابه وهي تقول: «**أكان من المفترض أن أخبرهم أني زوجة هذا العريس؟!**».

قال بحنو محاولًا عدم التمادي، فلم يكن ينوي التحدث الآن: «**انسي الأمر. سأتغاضى عنه فقط من أجل اطمئناني عليكِ. ولكن والله، رحمة، إن تكررت هذه الحماقات فلسوف أتعامل معكِ معاملة أخرى. ومن الآن لا خروج من المنزل دون علمي، أتفهمين؟ حتى العودة من العمل، تخبريني بها**».

ابتسمت بمرار وهي تقول: «**أنا كبرت على هذه المعاملة، معاذ**».

«**لا، رحمة، أنا المخطئ من البداية لأترككِ دون متابعة ولا عناية. كل ما مضى انسيه لأنكِ من اليوم لن تَخْطِي خطوة إلا بعلمي، حتى نومكِ سأعلم به. وتحملي نتيجة أفعالكِ**».

قالت بضعف: «**ستمارس سلطاتك عليَّ، معاذ، بعد هذه السنين؟ هل لم تعد تثق بي بهذا الشكل؟!**».

«**لا، رحمة، الأمر ليس نقص ثقة وأنتِ تعلمين. ولكن عندما تصل بكِ تصرفاتكِ لما أنتِ عليه الآن، فلا بد أن أوقفكِ لتفيقي ممَّا تفعلينه**».

«**لماذا مصمم أن تُشعرني بالانكسار أمامك؟**».

«حبيبتي، أنا أريدكِ أن تعودي أمام الجميع كما كنتِ؛ رحمة الواثقة من نفسها القوية. أنا لا أريدكِ أن تنكسري أمام أحد».

وابتسم بخبث وهو يقترب منها أكثر، وقد شكت أنه ينوي على شيء، ليكمل كلامه: «**لكن لا مانع أن يكون انكساركِ هذا أمامي أنا فقط**».

وحملها على كتفه بيد واحدة لتصرخ من المفاجأة وهي تقول: «**هل قررت قتلي أخيرًا؟**».

«**لا، حبيبتي قررت غسلكِ**».

دخل بها دورة المياه وفتح صنبور حوض الاستحمام ليملأه، وبعدها أنزلها من على كتفه وهو يشير لها: «**سأذهب لأعد لك فطورًا آخر، خذي حمامكِ واستجمي قليلًا، اغسلي من ذهنكِ كل ما حدث لترجعي كما كنتِ، رحمة. هل فهمتِ؟**».

حركت رأسها بطاعة، هي التي كانت دائمًا متمردة، أصبح بها من الوهن ما يجعلها تنفذ دون مجادلة! غادر، وظلت هي تنظر للماء بتأمل، حررت شعرها من عقدته، خلعت ثيابها التي لم تبدلها منذ عادت، لتلقي بجسدها في الماء وكأنها تتخلص من نار قلبها.

خرجت بعد فترة ليست بالقصيرة. دلف معاذ للغرفة وقد تركها بحريتها، لم يُرد إزعاجها، ليجدها مستكينة مغمضة العينين تجلس على المقعد أمام المرآة، وقف يشاهدها بهدوء محدثًا نفسه: «**أيعقل أن يكون هذا الجمال ملكي؟! إنها كالملكة تحتاج إلى الحاشية، لا يجوز لمثلها مساعدة نفسها؛ أين الخدم؟! أين الوصيفات؟!**».

اقترب منها على مهل لا يريد إزعاجها وإخراجها من حالة السكون هذه، يتأملها لتبتسم وهي ما زالت مغمضة، فقالت: «**أنا أيضًا أشعر بوجودك**».

قال وعيناه تحاولان الشبع منها ولكن بلا فائدة: «**هل ملكتي تحتاج لشيء؟**».

فتحت عينيها اللتين تفتحان له أبواب الجنة، وقالت: «**كنت فعلًا أحتاج لذلك**».

«**أنا دائمًا أعلم ماذا تحتاجين. هيا، ليس عندي استعداد أن أعد الطعام للمرة الثالثة**».

تحركت معه، ولكن وقفت في منتصف الغرفة، فقال مدهوشًا: «**لماذا تقفين هكذا؟!**».

وجدها تجري نحوه تتعلق برقبته، لتقول: «**أرجوك، لا تجعل يومًا يمر دون أن أراك؛ كدت أجن عندما تخيلت حياتي من دون وجودك**».

مسد بيده على شعرها المبلل، وشدد بيده الأخرى من احتضانها، وهو يقول: «**أنا من لا أتصور حياتي وأنتِ لستِ بها، أنتِ جزء مني، رحمة. وعد، والله وعد، لن يتكرر ما حدث**».

كانت جالسة بجوار رهف في الحديقة تتحدثان كما لم يحدث منذ زمن، وقد بدأت الفتاتان تقتربان أكثر مما مضى، سبقتهما سلمى للداخل لتعد الغداء مع والدتها، لتظهر سيارة يحيى تقترب من بعيد. دُهشت حنين ورهف؛ فقد عاد هذا اليوم مبكرًا، وقفت الاثنتان

تنتظران وقوف السيارة، لتفاجَآ بوجود فتاة بجواره، نظرت حنين لرهف وهي تقول: «**هل تعرفينها؟**»، هزت رهف رأسها بـ «**لا**». تقدم يحيى نحوهما بصحبة الفتاة بوجه خالٍ من أي تعبير، ليقول دون انتظار أن يسأله أحد: «**أعرفكما، داليا زوجتي**».

رجعت حنين بظهرها لا تستوعب ما يقوله، لتتحدث رهف صارخة: «**ما هذا الذي تقوله، يحيى؟! متى؟! وكيف؟!**».

ليرد بنفس جمود تعابير وجهه: «**تزوجتها قبل ظهور حنين مرة أخرى**».

ظلت حنين ترجع بظهرها لا تصدق ما يحدث، لتكمل رهف بحنق: «**لماذا، يحيى؟ هل هانت عليك حنين؟! أين الحب الذي عشت تتغنى به؟! لماذا جئت بها الآن؟**».

«**للأسف هذا ما حدث، ولم يعد يصلح إخفاء الأمر؛ لأنها... تحمل طفلي**».

وبمجرد سماع حنين هذه الجملة، جرت خارج المنزل بصدمة غير واعية لما تفعله، لا تصدق ما يحدث معها. أسرع خلفها، وقبل أن يلحق بها، دوت صرخة منها ارتجف لسماعها كل من بالمكان، أثر ارتطامها بسيارة مسرعة لم تستطع رؤيتها من هول الصدمة.

الفصل الخامس والعشرون

الخوف من شيء يجعلك تعيشه وكأنه واقع غرس بداخلك، ينخر كدود يعرف طريقه لعقلك وقلبك، حتى تعيشه حقيقة!

جرى يحيى مفزوعًا أثر صرخة حنين، ليقول بقلق: «**حنين، استيقظي. هل عادت الكوابيس لكِ مرة أخرى؟**».

بدأت حنين تتدارك أنه لم يكن سوى حلم، فأخذت تبكي. ضمها لصدره وهو يحاول تهدئتها: «**حنين، لماذا عادت الكوابيس مرة أخرى؟**».

زاد بكاؤها وهي تتشبث به وتقول: «**لماذا تفعل ذلك بي؟**».

دُهش ليسألها بتعجب: «**أنا، حنين؟ ماذا فعلت؟! أنتِ كنتِ نائمة وأنا كنت أرتدي ثيابي لأذهب للشركة**».

فقالت وما زالت على حالتها: «**دائمًا تفعل بي هذا، دائمًا تقهرني، دائمًا توجع قلبي**».

زادت دهشة يحيى وعدم استيعابه حديثها، فقال محاولًا فهمها: «**متى دائمًا هذا؟ أنا لا بد أن أعرف بماذا تحلمين، حنين**».

ظلت تبكي ولم ترد عليه، ليقول: «**حنين، أهو نفس الحلم كل مرة؟**».

هزت رأسها بالإيجاب لتقول بمرار: «**وكل مرة واحدة غير الأخرى**».

ليقول بعدم فهم: «**كل مرة واحدة كيف؟! حنين، لا أفهم شيئًا. لماذا كلامكِ مبهم؟**».

قالت وهي تحاول الابتعاد عنه وكأنه ارتكب ذنبًا في حقها فعلًا: «**كل مرة تأتي لي متزوجًا واحدة، كل مرة تتزوج عليَّ وتأتي لتخبرني، وهذه المرة تأتي لي بها حاملًا لطفلك، وأنا لم تجعلني أحمل مثلها**».

ظل ينظر إليها وعلى وجهه علامات الصدمة، ليرفع يده لرأسه يمرر أصابعه في شعره، نظر حوله ثم نظر لها بعدم استيعاب: «**ماذا؟! هل هذا الحلم الذي يقلب ليلكِ وتصرخين بعده لينقلب المنزل وتأتي أمي وسلمى يوم زواجنا لتصبح فضيحة وأنا أحاول لملمة الموقف؟!**».

هزت رأسها بـ «**نعم**» وهي تمسح دموعها، ليقول بصدمة: «**أنا مصمم أن أقهركِ وأوجع قلبكِ في الحلم، حنين؟! في الحلم! تجمدين دمائي كل مرة، وأظل أتخيل ما هو الكابوس الذي يؤرق حياتكِ هكذا؛ وفي الأخير يكون هذا هو الحلم؟!**».

أدارت رأسها بعيدًا عنه، فوضع يده على وجهها ليديره له وهو يقول: «**لا تقلقي، حبيبتي؛ فأنا بعد ما تفعلينه بي قد لا أصلح لا للزواج ولا للإنجاب، لا منكِ ولا من غيركِ**».

أنهى كلامه ووقف يعدل من ملابسه يحدث نفسه بكلام لم تفهم منه شيئًا، وغادر الغرفة صافقًا الباب خلفه، لتقول بعدها: «**لماذا يُحدث نفسه هكذا؟! لم يعد طبيعيًّا!**».

أنهى يحيى يوم عمله وظل يُصدم كلما تذكر ما أخبرته به حنين عن كوابيسها العجيبة. وما إن استوعب ما قالته بعد عدة ساعات حتى ظل يضحك إلى أن عاد للمنزل وهو يفكر كيف يقنع هذه المجنونة أنه لم ولن يتزوج من أخرى، دخل الغرفة ليجدها متقوقعة بجوار الفراش لتعود لحالتها السابقة، خلع سترته وقميصه واتجه يجلس جوارها يحاوطها بذراعه ليتحدث معها بحنو:

«**ما بكِ، حنين؟ لماذا عدتِ مرة أخرى لهذه الحالة؟ وما الذي جعل هذه الكوابيس المزعجة التي ليس لها علاقة بالواقع نهائيًّا - أتسمعين؟ نهائيًّا - تعود؟**».

أجابته بصوت هامس حزين: «**هل يستطيع الرجل بهذه السهولة أن يحب أكثر من امرأة؟! هل ببساطة يتأقلم ويتحول من واحدة لأخرى؟!**».

صمت يحيى يحاول معرفة ما يرمي إليه كلامها، لتكمل: «**رأيته كيف ينظر لسلمى، كيف يحاول أن يرضيها ويسعدها، أنا رأيت لهفته وخوفه على رحمة. هل أنتم بهذه السهولة تحبون؟ تتنقلون بين هذي وتلك؟!**».

ابتسم يحيى وقد أدرك ما بها، فوقف ورفعها من على الأرض ليُجلسها على حافة الفراش وجلس جوارها، ليقول لها برفق:

«**لا أنكر، حنين، أن الله - عز وجل - أعطى الرجل القدرة على استيعاب أكثر من زوجة، وكذلك أعطى المرأة القدرة على تحمل وجود زوجة أخرى، كما خلقها غيورة. وفي هذا حكمة؛ فسبحانه يعطي كل إنسان قدر استطاعته من منح أو حتى ابتلاءات. ومع ذلك،**

فالبشر مختلفون باختلاف طباعهم وقدراتهم، ولكل إنسان طاقة وقدرة. أتعلمين؟ مثلًا في الدول الأوربية، ورغم عدم السماح بتعدد الزوجات والسماح بالعلاقات غير الشرعية، وببساطة يكون الرجل متزوجًا ويخون زوجته، ففي نفس البلاد ورغم إباحة كل شيء وأي شيء، فهناك رجال لا يخونون زوجاتهم ولا يستطيعون رؤية غيرهن».

رفعت رأسها تنظر إليه باستفهام وهي تقول: «**ماذا تقصد؟**».

«**أقصد أن هناك من يحب ولا يستطيع رؤية أي أنثى غير التي هواها قلبه، هي وحدها من تقر عينه، وهناك مجتمعات تقبل فيها المرأة أمر زواج زوجها بكل سهولة، ومع ذلك في نفس المجتمعات رجال لا يتزوجون غير واحدة، يكتفون بها عن كل نساء الدنيا**».

ضمها لصدره بعدها ليكمل: «**إنها فروق فردية واختلاف ظروف وطباع، حنين، وليست قاعدة. قال - تعالى -: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)**».

لتقول وقد بدأت تستكين: «**أشعر بالرهبة كلما رأيت معاذًا مع إحداهما، أشعر بقلبي ينقبض كلما رأيت حب واحدة له وكيف هي تقبل هذا الوضع، أشعر بقلبي يحترق كلما وضعت نفسي مكانهما**».

«**حنين، أرجوكِ لا تتركي الظنون تتلاعب بكِ وتفسد حياتنا. الشك هلاك، لا تتركي نفسكِ لهذا الوسواس حتى لا تدمري حياتنا. أبعدي عن تفكيركِ كل الأفكار السلبية، تذكري فقط كل شيء جيد في حياتنا، تذكري أننا معًا. جميعنا بخير، حتى سلمى ورحمة بخير، لا تضعي نفسكِ مكان أحد؛ منظور السعادة مختلف من واحد للآخر. هل تفهمينني؟**».

تحدثت بخفوت تخبره بما داخلها لعلها ترتاح: «**منذ زواج معاذ وسلمى، أخاف ألا أنجب لك أطفالًا وتفعل مثله**».

ابتسم لها بحب وأخذ يعبث بشعرها المتساقط على وجهها وهو يقول: «**أحسني الظن بالله، ودعي غدًا للغد، واعلمي أن الله - سبحانه وتعالى - لن يخذل عبده إذا دعاه. ما علينا إلا أن ندعو: 'اللهم لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين'. قوليها فقط واتركي أمركِ على الله. اتفقنا؟**».

أغمضت عينيها براحة وكأن كلامه بعث الطمأنينة في قلبها، لتهز رأسها بابتسامة قائلة: «**اتفقنا**».

اتجه معاذ للباب الذي يدق جرسه، يفكر من سيحضر الآن. فتح الباب ليتفاجأ بالواقفة أمامه مبتسمة، فقال بدهشة: «**سلمى؟! لماذا لم تخبريني أنكِ آتية؟!**».

قالت ببساطة: «**ألم أخبرك أني أريد الخروج؟ أنت لم تسألني إلى أين سأذهب!**».

لتبعده بيدها وتدخل، فقال وما زال ممسكًا بالباب: «**سلمى، إلى أين؟!**».

أغلقت الباب وهي تقول: «**أين رحمة؟!**».

«**ما لكِ بها؟!**».

ردت بابتسامة: «**وما دخلك أنت؟ أريد صديقتي**».

لتنادي بعدها بصوت مرتفع: «**رحمـــة**».

خرجت رحمة إثر سماعها سلمى وهي مبتسمة لتحتضنها: «**كيف حالكِ، رحمة؟ علمت من هذا الرجل أنكِ متعبة، فلم أستطع الانتظار لأطمئن عليكِ**».

ردت بمحبة: «**بخير، سلمى، الحمد لله**».

تحرك معاذ وهو يضيق عينيه، يقول لنفسه مرددًا كلمتها: «**هذا الرجل!**».

نظرت له سلمى بطرف عينها، وجذبت رحمة من يدها لتدخل بها الغرفة وهي تقول: «**تعالي لنتحدث بالداخل**».

جلست الاثنتان على الفراش كأنهما صديقتان، أو هكذا تريدان. وقف معاذ أمام باب الغرفة ينظر لهما ولسان حاله يقول كيف يجتمع الشمس والقمر، ليجد سلمى تقول:

«**أنت يا هذا، فتاتان تريدان الحديث مع بعضهما البعض؛ أنت لمَ تقف؟!**».

ظل معاذ ينظر لهما بدهشة، لتضحك رحمة أخيرًا وهي تقول: «**تلميذتي**».

قال معاذ محاولًا رسم الجدية على وجهه: «**هل ستتآمران عليَّ من البداية؟! أنا لن أتحرك من هنا**».

نظرت سلمى لرحمة وهي ترسم علامات الدهشة على وجهها، وقالت: «**هل زوجكِ معتاد على الجلوس مع صديقاتكِ؟!**».

ضحكت رحمة من قلبها، فابتسم معاذ بسعادة لضحكتها، وخرج وهو يقول: «**واضح أني وقعت ولم يُسَمِّ عليَّ أحد**».

وبمجرد خروجه من الغرفة نظرت رحمة لسلمى وهي تقول لها بصدق: «**هل أنتِ سعيدة، سلمى؟ أخشى أن أكون قد ظلمتكِ**».

ردت سلمى بابتسامة هادئة وهي تحرك عينيها يمينًا ويسارًا وكأنها تفكر، لتقول:

«**صراحة، رحمة، أنا أكون سعيدة بمجرد حديثه معي، لا بمجرد وجوده أمامي، حتى ولو كانت روحه تبحث عن أخرى**».

ردت رحمة بأسى: «**آسفة لكِ وله ولنفسي، فعلًا أسأتُ التصرف**».

قاطعتها سلمى وهي تقول بترجٍّ: «**بالله عليكِ، رحمة، لا تفعليها مرة أخرى. هو يكون في أبهى حالاته وهو مطمئن عليكِ. تبدل حاله، رحمة، بمجرد اطمئنانه عليكِ**».

ردت رحمة بمرار: «**آسفة، أنا من فعلت بكِ هذا، أنتِ لا تستحقين ذلك**».

«**أنتِ لم تخدعيني، أنا دخلت حياته وأنا أعلم بوجودكِ وحبه لكِ منذ سنين، أعرف كيف ينظر لكِ، كيف يبتسم لرؤيتكِ. أتعلمين؟ أعرف حتى عيونكما وهي تتحدث. أنا فقط أحاول أن أبحث عن شيء بداخله تجاهي مختلف، أنتظر أن يحبني حبًّا مختلفًا عن حبكِ؛ لأنه ببساطة مستحيل أن يكون لحبكِ منافس**».

ابتسمت رحمة وهي تقول: «**محظوظ هذا الرجل؛ يحظى باثنتين لا تتمنيان من الدنيا غير وجوده بجوارهما**».

أغمضت سلمى عينيها وهي تأخذ نفسًا، لتقول: «**أعلم أن الأمر صعب بالنسبة لكِ. أخبركِ أمرًا ربما لم أبُح به لأحد من قبل؛ ليلة زفافكِ إلى معاذ لم أستطع النوم، كنت أشعر بقلبي يؤلمني، ظللت فترة إلى أن**

استطعت أن أعود لطبيعتي وأتأقلم على الوضع، كل ذلك وهو لم يعدْني بشيء؛ لذلك أعلم أن الأمر بالنسبة لكِ أصعب وقاسٍ. سيمر الأمر لأننا نريد ذلك، رحمة».

دلف معاذ للغرفة مرة أخرى وهو يقول: «**هل سيطول حديثكما كثيرًا؟! لقد طلبت الطعام ووصل للتو، هل أذهب لآكله بمفردي وأنتما تتسامران؟**».

وقبل أن ينهي كلامه كانت الاثنتان تجريان خارج الغرفة، خرج وراءهما بدهشة، وإذ بهما تنظران لبعضهما البعض وتضحكان بشدة وتجلسان أمام الطعام بسرعة. رفع حاجبًا، فقد فهم ما جال بخاطرهما وخوفهما أن يأكل الطعام بمفرده كالمرة السابقة، فجذب الطعام تجاهه ليقول: «**إذًا سآكل وأحلي بكما بعدها، وهذا أفضل عقاب**».

أكل الثلاثة والابتسامة لم تفارقهم، ليمر الوقت فتقف سلمى لتستأذن للمغادرة، لحظات لاحظت فيها حيرة معاذ، فقالت ببساطة:

«**سأذهب كما جئت، معاذ، لا تشغل بالك؛ معي السيارة**».

احتضنتها رحمة وهي تقول: «**شكرًا، سلمى، كنت أحتاج الحديث معكِ**».

اتجه معاذ بسلمى للباب وهو يحثها على الاتصال به بمجرد الوصول ليطمئن عليها، فوجدها ترتفع على أطراف أصابعها وتضع قبلة على وجنته وهي تقول هامسة: «**لا تجعل يومًا يمر دون أن أراك**».

وغادرت وتركته يمسك رأسه وهو يقول لنفسه: «**كيف ومتى يا ربي؟! ماذا فعلت بنفسي؟ الاثنتان تريدان رؤيتي كل يوم؟!**».

جلست رهف مع سلمى وحنين تقنعهما بالخروج معًا؛ فهي تفتقد الخروج معهما بالإضافة إلى أنها تشعر بالوحدة؛ فكل منهما أصبحت لها حياتها، وهي وحدها. دخلت كريمة تبحث عن الفتيات، فاستمعت لكلام رهف، فقالت بشفقة على حالها: « **اذهبن معًا، حبيباتي؛ أنتن فعلًا تحتجن للخروج قليلًا للتنزه والتسوق**».

وهمت بالخروج وهي تكمل: «**هيا، كل واحدة تستأذن زوجها، هيا**».

ذهبت كل فتاة لغرفتها، لتقف رهف بين الغرف تنظر لهاتفها بحزن وهي تقول لنفسها: «**ألم يعدني بالعودة ومعه الزهور؟!**».

ودخلت غرفتها وهي تقرر الاتصال بشخص ما!

بعد فترة، استعدت الفتيات للمغادرة، لتركب الثلاثة سيارة رهف لتنطلق بهن أولًا للنادي وبعدها للتسوق.

في نفس الوقت، قرر باسم القيام بخطوة تجاه رهف، ففكر في التحدث معها في النادي؛ فقد لاحظ تواجدها يوميًّا وانطواءها من دون الحديث مع أحد. وقف أمام بوابة النادي ينتظر وصولها ككل يوم، وأمسك هاتفه ليجري مكالمة لا بد منها قبل هذه الخطوة:

«**أهلًا، يحيى. كيف حالك؟**».

«**أهلًا، باسم. ما الأمر؟! ليس من عادتك الاتصال بي في هذا الوقت**».

«**أنا صراحة أريد أن أستأذنك في أمر**».

رد يحيى وهو يضحك؛ فهو يعرف صديقه جيدًا ويعرف ماذا يريد: «**ماذا تريد، باسم؟ أقلق دائمًا من طلباتك**».

ليقول باسم بجدية لم يعتد عليها: «**أنا احترمت طلبك بألا أحاول التحدث مع رهف أو إرسال الزهور لها، ولكن....**».

«**أكمل، أنا ليس عندي وقت لأفلام العشاق هذه**».

«**أنا لم أحاول التحدث معها بغير علمك، فها أنا أتقدم بطلب رسمي من سيادتك؛ فهل تتكرم وتوافق؟ أم أعود للطيش مرة أخرى؟**».

ضحك يحيى بشدة وهو يقول: «**هل هذا رجاء أم تهديد، باسم؟**».

رد باسم بتوسل: « **سَمِّه كما تريد، ويكفيك لعبًا بأعصابي**».

ليقول بمودة: «**موافق، باسم. أريدك فقط أن تعرف أني طلبت منك ذلك لأعطيك فرصة ألا تتسرع كعادتك، وأن تأخذ وقتك في تجهيز نفسك؛ وليس من باب فرض السلطات**».

«**أعلم، يحيى. شكرًا لك**».

أنهى باسم المكالمة وقد كانت عينه تبحث عنها في كل مكان، ليتفاجأ بها تركن سيارتها بجوار سور النادي، ومعها حنين وسلمى. كاد أن ينصرف شاعرًا بخيبة الأمل، ولكنه قرر دخول النادي خلفهن لعله يعثر على فرصة للحديث معها بمفردها.

أما الفتاتان بالسيارة فكادتا تصرخان في رهف أكثر من مرة بسبب قيادتها غير المنتبهة، وبمجرد أن أوقفت رهف السيارة قالت سلمى بشك: «**ما بكِ، رهف؟! كدنا نضيع بسبب عدم تركيزكِ!**».

أغمضت رهف عينيها ولم تحاول الرد عليها، لتقول لها حنين: «**أنتِ لستِ طبيعية منذ فترة، واليوم بكِ شيء غريب. ماذا حدث لكِ؟!**».

ردت رهف ولم تحاول النظر لهما وما زالت تنظر أمامها: «**هل أنتِ سعيدة، سلمى، مع معاذ؟**».

دُهشت الفتاتان من هذا السؤال الذي في غير محله:

فردت سلمى بعد أن أشارت لحنين بعدم التدخل: «**ما هذا السؤال الذي يسأله لي الجميع؟! هل لا تظهر عليَّ السعادة، رهف؟!**».

أكملت رهف وهي على نفس حالتها: «**هل أنتِ سعيدة لأنكِ ستمضين معظم الوقت دون زوجكِ؟! هل أنتِ سعيدة وأنتِ تعلمين أنه مع أخرى؟!**».

قالت حنين تحاول تدارك الموقف: «**ماذا تقولين، رهف؟! لا يصح هذا الحديث**».

لتكمل رهف ما بدأت: «**هل مقتنعة أن تتزوجي شخصًا بغرض الإنجاب؟ هل فكرتِ إذا أنجبتِ وأخذ الطفل لتربيه زوجته الأولى وحبيبة عمره؟!**».

صمتت سلمى أمام قسوة كلام رهف، ولم تستطع الرد، فصاحت بها حنين: «**اخرسي، رهف. أنتِ مؤكد أصابكِ شيء**».

قالت رهف بثورة: «**لا، حنين، أنا أقول ما تحاولون جميعًا تجاهله. من منا لا يعرف حب معاذ لرحمة؟! فتح لها شركة تحمل اسمها، جعلها تشارك أعز وأنجح أصدقائه، معاذ يعيش من أجل تحقيق أحلام رحمة فقط؛ فهل هذا الزوج يقبل بسهولة الزواج على زوجته؟! أم هناك أسباب أخرى؟!**».

صاحت بها حنين: « **أية أسباب، أيتها البلهاء؟! اخرسي، رهف**».

نزلت حنين من السيارة لتفتح الباب بجوار سلمى التي ظلت مصدومة تنظر أمامها وكأن الدماء هربت من وجهها، لتقول لها بقلق وهي تحركها: «**سلمى، ماذا بكِ؟ تكلمي، حبيبتي، لا تصمتي هكذا**».

لتكمل رهف كلامها وكأنها لم تسمع شيئًا: «**أنتما تعيشان في وهم، وهم الحب؛ لا يوجد حب، حتى ولو كان تزوجكِ لأنه يحبكِ فسيكون خائنًا لزوجته التي أحبته، أنانيًّا يبحث عن السعادة على حساب قلبها**».

في هذه الأثناء رن هاتف رهف لترد بغموض: «**نعم، نحن بجوار سور النادي**».

كل ذلك وباسم يقف بعيدًا يشاهد ما يحدث بتردد؛ هل هن يتشاجرن؟ ماذا يحدث؟ أيجب عليه التدخل؟

ليتفاجأ بسيارة من سيارات الدفع الرباعي سوداء اللون تقف أمام سيارة الفتيات، نزل منها ثلاثة رجال ضخام وكأنهم خارجون لتوهم من إحدى المسابقات القتالية، وفي لحظة أخرج الرجال زجاجات صغيرة رشوا بها على وجوه الفتيات ليغبن عن الوعي فورًا، وبسرعة حملهن الرجال للسيارة، وقبل وصول باسم لهم كانت السيارة تنطلق ومعها الثلاث فتيات.

الفصل السادس والعشرون

دائمًا ما تجد هناك الشخص الخائن والنذل، الحاقد والحاسد، وللأسف دائمًا ما يستغل الساذج والضعيف؛ إنها النفس الأمارة بسوء، حقيقة حولنا لا ينكرها أحد.

أسرع باسم لسيارته ليقودها بسرعة محاولًا اللحاق بتلك السيارة، يحاول أن يستوعب ما حدث وكيف اختُطفت الفتيات أمام عينه، حتى الفتيات الثلاث لم يكن لهن فرصة الصراخ ولا الاستنجاد بأحد، ليقول لنفسه: «**مدبر، واضح أن كل شيء مخطط له**».

أمسك هاتفه وما زال يحاول اللحاق بالسيارة يخشى اختفاءها من أمامه في أي لحظة، ليقول وهو ينهج: «**يحيى، اسمعني جيدًا. الفتيات في خطر**».

«**عمَّن تتحدث، باسم؟! لا مجال للهراء الآن، ليس عندي وقت لمزاحك**».

ليرد باسم بجدية محاولًا إنهاء الحوار حتى لا يفقد تركيزه في الطريق: «**يحيى، هذا الكلام ليس فيه مزاح، رهف وسلمى وحنين خُطفن من سيارتهن أمام النادي، ثلاثة رجال قاموا برش مادة مخدرة عليهن. أنا كنت أنتظر رهف عندما شاهدتهم، الأمر حدث في ثوانٍ وكأنه مرتب. أنا خلفهم بالسيارة الآن**».

لم يرد عليه يحيى بغير الصياح فيه، فأوقفه باسم وهو يقول: «**يحيى، لا وقت لعدم التصديق والجدال، تحرك وأبلغ الشرطة، سأرسل لك خريطة الموقع، أخبر معاذًا وتحرك؛ واضح أنهم يذهبون باتجاه مكان ناءٍ، أنا أحاول ألا يلاحظني أحد. تحرك؛ لن أقدر عليهم بمفردي**».

أغلق باسم الخط وفتح خريطة التتبع في هاتفه؛ فهذا أفضل حل لكي يستطيعوا الوصول إليه، وأرسلها ليحيى.

أما يحيى فقد خرج من مكتبه يسارع الزمن يحاول استيعاب ما قاله باسم، واتصل فورًا بأحد أصدقائه من ضباط الشرطة ليخبره ما حدث، والذي بدأ على الفور بإعداد قوة للاتجاه لنفس المكان، وبالطبع أبلغ يحيى ما حدث لمعاذ الذي لم يقل رد فعله عن يحيى، والذي قام بدوره بالاتصال بمعارفه.

أما باسم فقد رأى السيارة تستقر أمام أحد المنازل في أطراف المدينة بالقرب من الطريق السريع، حاول الوقوف بعيدًا بقدر الإمكان حتى لا يلاحظه أحد، فرآهم ينزلون من السيارة حاملين الثلاث فتيات لداخل المنزل، كاد يجن أمام هذا المنظر وهو مشلول الحركة، إن حاول اللحاق بهم بمفرده فمؤكد سينتهي أمره وأمرهن، ظل يراقب المكان من بعيد ولم تمر ثانية دون استقبال مكالمة سواء من يحيى أو معاذ؛ فقد كاد الاثنان يصيبهما الجنون.

داخل المنزل

أفاقت حنين بعد فترة قصيرة لتجد ثلاثتهن ملقيات على أرض غرفة نوم واضح أنها لأحد المنازل الشعبية، وسلمى ورهف بجوارها غائبتان عن الوعي، أصابها الذعر وهي تهزهما لتفيقا: «**سلمى، رهف، بالله عليكما ردا عليَّ. أين نحن؟! يا ألله!**».

بدأت الفتاتان في استعادة وعيهما، ليصيبهما الرعب وهما تحاولان تذكر ما حدث. ظللن ثلاثتهن يرتجفن خوفًا مما قد يحدث، ينظرن تجاه الباب خوفًا من الآتي.

دفع رجل باب الغرفة ليدخل ووراءه رجلان آخران، جذبهن الثلاثة للخارج وسط صرخاتهن المفزوعة غير مستوعبات ما يحدث لهن، لتكون المفاجأة برؤية أمجد يجلس بأريحية شديدة على أريكة ممددًا قدميه أمامه باستلقاء، وما إن رأته حنين حتى صرخت فيه باحتقار: «**أيها الحقير، أوصلت بك الدناءة لهذا الحد؟!**».

رد بابتسامة عريضة تحمل من التشفي والشماتة الكثير: «**لا يا حلوة، أنتِ هنا في عريني؛ فاحترمي نفسكِ ولا داعي لطول اللسان حتى لا تندمي**».

ليطلق ضحكة مستفزة ويكمل: «**رغم أنكِ في كل الأحوال ستندمين عمركِ كله، أنتِ وحبيب القلب**».

قالت رهف بصدمة واضحة: «**أ.. أنت.. ألست صديق يحيى؟ ألم تخبرني بخوفك عليه؟! أنا لا أفهم شيئًا!**».

التفتت لها حنين بشك: «**كيف عرفتِه؟ إنه ليس صديق يحيى، إنه حقير حاول الاعتداء عليَّ من قبل. كيف عرفتِه؟! انطقي**».

وضعت رهف يدها على وجهها لتتحدث بندم وقد استوعبت المكيدة التي أوقعها فيها هذا الوغد، لتقول وهي تبكي: «**خدعني. أنا السبب في ما أنتما فيه الآن**».

ظلت تبكي بحرقة، وما كان منه إلا أن ظل يضحك وهو يصفق: «**هذا المشهد أعجبني صراحة. ما رأيكِ، حنين؟ أنا أوفيت بوعدي**».

نظرت سلمى بشك لرهف لتجذبها وهي تقول لها باستنكار: «**كيف أنتِ السبب؟ هل اتفقتِ معه، رهف، علينا؟! انطقي. ماذا فعلتِ بنا؟**».

ظلت رهف تبكي بقهر لتتذكر ما حدث:

منذ مدة في النادي

«ما الأمر من فضلك بسرعة؟».

«أنا أريد مساعدتكِ في كشف أمر خطير بخصوص يحيى، ألا يهمكِ أمره؟».

استطاع جذب اهتمامها، فأكمل: «هناك مؤامرة تحاك ضده من معاذ وزوجته».

«ماذا تقول يا هذا؟! معاذ رفيق يحيى منذ الصغر، كيف تجرؤ على قول ذلك؟!».

«اسمعيني أولًا، أيعقل أن امرأة كرحمة توافق على زواج زوجها بهذه السهولة؟!».

لم ترد، ليكمل قائلًا: «إنها خطتهما للاستيلاء على الشركة بأكملها؛ فبزواج معاذ من سلمى يستطيع لَيَّ ذراع يحيى ليترك الشركة لرحمة مقابل ترك سلمى».

ليكمل بخبث أمام عينيها اللتين توترتا – فقد أوشك على الوصول لهدفه –:

«أتعلمين ماذا ينويان بعد إتمام الزفاف؟ تخيلي ما يمكن أن يحدث لابنة خالتكِ. أتعرفين؟ سيأخذ الطفل ليعطيه لزوجته حبيبة عمره بعد أن يرمي قريبتكِ في أول فرصة».

اهتزت رهف أمام ما قاله، لتقول بتشنج: «وماذا بيدي أن أفعل؟».

«أبدًا، أريد أن أتمكن من الحديث مع سلمى وحنين لأكشف أمامهما الأمر؛ فيحيى مستحيل أن يصدق شيئًا عنه، معاذ يؤثر عليه بدهائه وخبثه الذي يعرفه الجميع».

أنهت رهف تذكر ما حدث ودموعها تنهمر إدراكًا لمدى سذاجتها وما آلت إليه، نظرت سلمى إليه باشمئزاز وهي تقول: «**لو كنت رجلًا لما كنت تكالبت على ثلاث فتيات، لو كنت لا تخشانا لما كنت لجأت لهؤلاء المأجورين لحمايتك منا**».

استمر في ضحكه المستفز باستمتاع، ليقول: «**صراحة، يحيى ربى ثلاث قطط مفترسات ولكن مثيرات**».

تحرك تجاههن بنظرات وقحة وهو يقول: «**لا تتخيلن سعادتي بجلسة الاعترافات هذه لأنها تجعلني أتخيل شكل رجلكن الشجاع وأنتن تقصصن عليه ما حدث معكن**».

ما كان من سلمى إلا أن بصقت عليه، فجرها من شعرها وهو يصفعها على وجهها قائلًا: «**واضح أنكِ متعجلة ما سيحدث معكِ لتبدأ الحفلة بكِ**».

حاولت حنين ورهف تخليصها من يده، ولكن تكالب عليهما رجاله، فأخذ يقترب منهما بوقاحة لتصرخ به رهف وسط بكائها لتقول بارتجاف: «**اتركهما أرجوك، انتقم مني أنا، صَفِّ حساباتك معي أنا؛ ليس لهما ذنب**».

نظر لها بوقاحة وهو يقترب قائلًا: «**صراحة أعجبتني فكرتكِ؛ أنا لا أفضل المتزوجات**».

ظل يضحك أمام ذهولهن وجحوظ عيونهن، ليكمل: «**ولكن اعذرنني؛ فقد وعدت الرجال بحرية الاختيار بينكن**».

حاولت الفتيات التمسك ببعضهن البعض بخوف، ليكمل وهو ينظر لحنين: «**ما رأيكِ؟ أنا أثق في رأيكِ. هل أعجبتكِ هذه اللعبة؟ الكل يخطف واحدة، وأنا خطفت ثلاثة! ضربة واحدة ستؤلم، ما بالكِ بالثلاثة؟ إنها في مقتل**».

قالت حنين وقد بدأت في فقد أعصابها تحاول التماسك حتى لا تغيب عن الوعي: «**هل تعتقد أن يحيى ومعاذًا سيتركانك؟! هل تعتقد أنك لن تحاسَب؟!**».

رد بسخرية: «**وهل تعتقدين أنتِ أن شيئًا كهذا غاب عني؟! لا تقلقي يا حلوة، فطائرتي باقٍ عليها ثلاث ساعات**».

ليقترب منها بخطر وهو يقول: «**سأنهي الأمر معكن وأطير؛ فلا يوجد ما أبكي عليه هنا، فقد طردني والدي بفضلكِ**».

أخذ يضحك أمام صدمتهن وقد نجح في إفقادهن آخر أمل لهن بالنجاة من براثنه، وقال لأحد رجاله وهو يشير إلى رهف: «**أدخلها الغرفة وقيدها في السرير، فأنا أعلم حركاتهن جيدًا، لنبدأ بها الحفلة**».

ليظل يضحك وسط صرخات الفتيات ومحاولتهن العابثة أمام هذه الحيوانات البشرية لإنقاذ رهف من يده، ولكن بسهولة جذبها الرجل للداخل.

وقف أمجد يشعر بالانتصار على يحيى الذي كان دائمًا وأبدًا حاقدًا عليه وعلى حب الجميع له، رغم محاولاته جذبه لطريق اللهو ولكنه فشل. ظل ينظر لحنين زوجة غريمه التي كانت السبب في طرده من جنة والده ليعايره بما وصل إليه يحيى وما لم يصل هو له، لتزداد نظراته وقاحة، ابتسم وهو يستوعب أنها لم تعد تستطيع المقاومة ليجذبها من شعرها وهو يقول: «**جاءت لي فكرة أجمل من الأولى. ما رأيكِ أن تشاهدي ما سيحدث لتقصيه جيدًا على زوجكِ؟**».

حاولت سلمى تخليص حنين من يده، ولكن منعها الرجلان لينهالا عليها ضربًا محاولين الاعتداء عليها بعدما جذب أمجد حنين للداخل، لتجد رهف وقد قيدها هذا الكلب في الفراش ويحاول التهجم عليها قبل دخول أمجد وسط توسلاتها لهذا الفظ، فصرخ أمجد فيه: «**اذهب الآن وانتظر دورك**».

ليخرج الرجل من الغرفة بقنوط، وأمام صراخ حنين فيه ونعته بأبشع الصفات انهال عليها ضربًا محاولًا التهجم عليها وهو يقول: «**أعتقد القليل منكِ لا يمنع**».

إلى أن وصلت لدرجة أنها لم تعد تستطيع الصمود، وسقطت أرضًا غائبة عن الوعي، فاتجه لرهف التي أغمضت عينيها من شدة الخوف وقد سلمت أمرها لله.

أما سلمى التي تكالب عليها الرجلان بالخارج، فقد كانت أقواهن لتظل تصرخ تحاول الخلاص منهما.

في نفس الوقت خارج المنزل

وصل معاذ ويحيى وقابلا باسمًا، ليقفوا دقائق قليلة لم يستطيعوا فيها السيطرة على أعصابهم، فقد ثار يحيى على صديقه الضابط عبر الهاتف: «**كيف أنتظر، مصطفى؟! كيف تطلب مني الصبر؟ أتفهم؟! زوجتي وأختاي بالداخل مخطوفات وأنت تطلب مني الانتظار حتى وصولكم! لن أنتظر أكثر من ذلك**».

وقبل أن يغلق الهاتف كان قد تحرك ثلاثتهم باتجاه المنزل، فلم يعد الأمر يحتمل الانتظار. وما إن اقتربوا من المنزل وسمعوا صراخًا من الداخل، حتى صاح معاذ بذعر: «**إنها سلمى، إنه صوت سلمى**».

لم يشعر ثلاثتهم بأنفسهم إلا وهم يتكاتفون على الباب لكسره، ليقابلهم أحد الرجال وقد أفشى فيه الثلاثة غليلهم، فما كان منه إلا أن هرب بعد إدراكه مصير الآخرين. وبمجرد دخولهم المنزل، شاهدوا أبشع منظر ممكن أن يتخيله رجل، فقد تكالب الرجلان على سلمى، ولحسن حظها قد وصلوا في الوقت المناسب، لينهال عليهما الثلاثة ضربًا. صرخت بهم سلمى وهي لا تستطيع أن تقف على قدميها، تستجديهم الإسراع: «**رهف... رهف وحنين بالداخل**».

سبقهما باسم للداخل، ليظل يحيى ينهال ضربًا على أحد الرجال الذي لم يتمكن من الهرب، ليتركه لمعاذ الذي تركه أرضًا لا يستطيع التحرك، وأخذ سلمى بين ذراعيه بعد أن خلع سترته ليضعها عليها.

دخل باسم الغرفة ليُصدم بأمجد وأنه وراء كل ما يحدث، جذبه من عنقه كثور هائج عندما شاهده يحاول التهجم على رهف، وانهال عليه ضربًا: «**أنت السبب في كل ذلك، أيها القذر! تنتهك الأعراض يا عديم الشرف!**».

وما إن دخل وراءه يحيى وشاهده حتى اكتملت أمامه الصورة، وبكل شراسة أسد جريح يثأر لنفسه ولعرضه كاد يموت في يده، يصرخ به بكل ما أوتي من ألفاظ وضيعة لأمثاله.

أتت الشرطة بالخارج وقد قبضت على الرجلين، ولم تستطع اللحاق بالثالث الذي نجح في الهرب، وخلصوا أمجد من يد يحيى قبل موت محقق كان في انتظاره.

اتجه باسم لرهف الملقاة على الفراش يحاول فك قيودها وهي ترتجف في حالة يرثى لها مغمضة العينين لا تحاول فتحهما.

دخل معاذ يحتضن سلمى ليرى هذا المشهد المُريع؛ فقد كانت حنين على الأرض غارقة في دمائها، جلس على قدمه يقيس لها النبض، ليصرخ في يحيى الذي ترك أمجد أخيرًا لرجال الشرطة، فقد كاد أن يودي بحياته، ووقف يدور حول نفسه بعدها في الغرفة بذهول، ينظر لزوجته على الأرض غارقة في دمائها، وها هي سلمى تلتصق بالحائط تحتضن نفسها بذعر لا يظهر وجهها من قسوة ما واجهه، وخلفه رهف يفك باسم قيودها، تكاد تكون غير واعية لما يحدث، ممزقة الثياب، دقائق قليلة رأى فيها يحيى أبشع ما يمكن أن يتخيله.

وأمام هذه الحالة التي انتابته من الذهول والإحساس بالعجز، صرخ به معاذ: «**أفق، يحيى، لا وقت لما أنت عليه. إنها تنزف**».

ليصرخ بصوت مرتفع: «**إسعـــــــاف. يحيى، تحرك وإلا حملتها أنا. لا وقت لذلك؛ واضح أنها كانت حاملًا**».

وقبل وصول الإسعاف، كان يحيى قد أفاق من حالته التي كان عليها، ليخلع سترته ويعطيها لباسم ليضعها على رهف، وقد ظل باسم يحاول طمأنتها من دون فائدة.

«**رهف، أنتِ بخير، افتحي عينيكِ، أنتِ بخير، كلنا هنا بجوارِكِ، لا تخافي. رهف، انظري لي، أنتِ بخير**».

حمل يحيى زوجته ليذهب بها للخارج، وخلفه معاذ وقد أخذ سلمى بين ذراعيه وهي تتشبث بصدره.

وصلت سيارة الإسعاف التي استقبلت حنين ليدخل معها يحيى السيارة، وقبل أن يغلق بابها وقف مصطفى حزينًا على حال صديقه، ليقول: «**مفاتيح سيارتك، يحيى**».

أعطاه يحيى المفاتيح دون أن ينطق بكلمة، وانطلقت سيارة الإسعاف.

وخلفها سيارة معاذ: «**سلمى، هل أنتِ بخير؟**».

هزت رأسها وسط انخراطها في البكاء، ولم تقل سوى كلمة واحدة: «**حنين**».

فقال وهو يأخذ نفسه براحة: «**لا تخافي، إنها بخير. الحمد لله، كلكن بخير، الحمد لله**».

أما رهف فقد ظلت على حالتها المذعورة تخشى فتح عينيها وكأنها لا تسمع ما يدور حولها، اضطر باسم أن يحملها على يديه إلى أن وصل إلى سيارته ليريحها على الكرسي بجوار عجلة القيادة وقد فرده لها، ودار حول السيارة ليجلس بمكانه وهو ما زال يحاول إخراجها من هذه الحالة، وأخذ يسكب المياه على وجهها ويخبط بأصابعه على وجنتها: «**رهف، افتحي عينيكِ، أنتِ بخير، والله بخير. أنا باسم، هل تعرفينني؟ انظري لي فقط، افتحي عينيكِ، رهف. انتهى الأمر، صدقيني**».

ظلت كما هي ترتجف مغمضة العينين.

«**رهف، سيقف قلبكِ هكذا رعبًا. بالله عليكِ**».

بدأت تستجيب له بخوف، وما إن فتحت عينيها ورأته أمامها حتى رمت نفسها بين ذراعيه وقد استجابت عيناها أخيرًا لتجهش بالبكاء. وأمام صدمته من رد فعلها، ربت على كتفها وحاول إبعادها عنه بهدوء؛ فمهما كانت حالتها لا يصح له أن يستغل الموقف. ابتسم لها يطمئنها، وقاد السيارة باتجاه المشفى للاطمئنان على حنين، لتظل هي جواره ترتجف باكية تصرخ كل لحظة.

وبعد وقت ليس بالكثير، وقف يحيى أمام غرفة العمليات بالمشفى وما زال عليه علامات الذهول، ليقول معاذ بمواساة: «**ستصبح بخير، يحيى. لا تخف، الحمد لله، قدر ولطف**».

نظر له يحيى بعينين بلون الدماء وهو يقول: «**لمَ كل هذا؟! ماذا فعلت به لينتهك عرضي بهذا الشكل؟!**».

«اهدأ، يحيى، سيأخذ جزاءه. الحمد لله الذي أرسل باسمًا في الوقت المناسب».

ليكمل يحيى وهو يمسك برأسه كأنه لم يسمع شيئًا: «**ماذا كان سيحدث لو تأخرنا؟ لا لا، ماذا كان سيحدث لو لم يرَ باسم ما حدث؟! رحمتك يا ألله! رأسي سينفجر**».

«**استغفر الله، يحيى. الحمد لله؛ إنها رحمة ربك**».

جلس يحيى يردد: «**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**».

في هذه الأثناء كانت سلمى ورهف بداخل إحدى حجرات المشفى ومعهما الطبيبة تقوم بعمل الإسعافات اللازمة لهما، فاتجه معاذ للغرفة ليجد باسمًا واقفًا أمام باب الغرفة: «**كيف حال حنين الآن؟**».

رد معاذ بإرهاق: «**ما زالت في غرفة العمليات**».

وصمت قليلًا ليقول: «**شكرًا، باسم**».

رد بصدق: «**على ماذا تشكرني؟! حتى لو لم أكن أعرفهن كنت سأفعل نفس الشيء**».

ربت معاذ على كتفه وهو يقول: «**أثابك الله، باسم**».

دخل معاذ الغرفة ليجد سلمى تحتضن رهف، فقال: «**سلمى، هل أنتِ بخير؟**».

ردت سلمى بوهن: «**الحمد لله... الحمد لله**».

لينظر لرهف التي لم تحاول رفع نظرها له: «**رهف، كيف حالكِ الآن؟**».

لم تنطق رهف بكلمة وأجهشت بالبكاء، ليقول لها معاذ بقلق: «**رهف، هل بكِ شيء؟ هل أستدعي الطبيب؟**».

ظلت تبكي وتخفي وجهها منه، فنظر معاذ لسلمى وقد بدأ يشك في أمرها:

«**سلمى، ماذا أصابها؟ انطقي. هل مسها شيء؟**».

ردت سلمى بهدوء: «**اطمئن، معاذ، هي بخير**».

نظر لها معاذ بشك، فقالت: «**المهم الآن أن نطمئن على حنين**».

«**سأعود لأطمئن عليها، قبل مجيئي هنا كانت لا تزال في غرفة العمليات**».

وقبل أن يغادر الغرفة، وقفت رهف لتقول: «**أريد أن أذهب إليها**».

وأمام غرفة العمليات، انضمت لهم رحمة التي علمت ما حدث في الهاتف من معاذ، دقائق وخرج الطبيب ليطمئنهم:

«**الحمد لله، هي بخير. بالطبع فقدت الجنين، واضح أنها تعرضت لضغط عصبي شديد**».

قالها بعملية شديدة وانصرف. ربت معاذ على كتف يحيى وهو يقول: «**عوض الله عليك. الحمد لله أنها بخير**».

صرخت رهف بهستيريا: «**أنا السبب... أنا السبب**».

انتبه معاذ ويحيى لما قالت رهف، ليقول يحيى وهو ينظر لها بحدة وقد ضاقت عيناه توقعًا لمَ هي السبب: «**أطمئن على حنين أولًا، وبعدها أرى كيف كنتِ السبب**».

الفصل السابع والعشرون

خرجت حنين من غرفة العمليات، وظل يحيى جوارها إلى أن استفاقت واستوعبت ما حدث، أجهشت بالبكاء بقهر بين ذراعيه وهي تضع يدها على بطنها وتقول: «**كان عندي طفل، كان هنا طفل**».

قال لها بألم يحاول إخفاءه للتخفيف عنها: «**حمدًا لله على سلامتكِ، حبيبتي. الحمد لله أنك بخير ولم يمسسك سوء. لله حكمة**».

«**كنت أنتظره، يحيى. لماذا حدث لي ذلك؟!**».

«**حبيبتي، عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم**».

ليكمل وهو يحاول الابتسام مخففًا عنها: «**غدًا نأتي بغيره. حبيبتي، اهتمي أنتِ بصحتكِ ولا تحملي هم هذا الأمر واتركيه لي**».

دخلت الفتاتان الغرفة للاطمئنان على حنين، ابتسم يحيى للجميع، فمهما حدث فهو ممتن لله على سلامتهن، وقف يحيى ليأخذ سلمى ورهف بين ذراعيه ويقبل جبهتيهما، وقال لهما بابتسامة: «**أخرجاها مما هي فيه بأي شكل. هل سمعتما؟**».

ظل معاذ وباسم بالخارج، وبمجرد دخول الفتاتين قال باسم لمعاذ بأسف: «**حذرت منه سابقًا. أنا أعرفه أكثر منكم، وأعرف أنه لن يترك الأمر ينتهي بهذا الشكل. إنه يتعاطى منذ سنين، وكثيرًا ما يكون غير مدرك لما يفعل**».

ليقول معاذ: «**وهل تخيل أحد أن تصل به الحقارة لهذه الدرجة؟ هل تعرف كيف عرف رهف؟ إنها هنا منذ فترة قصيرة. كيف عرف بوجودها؟!**».

قال باسم بدهشة: «**ماذا تقصد؟**».

«**واضح أنه عرف مكانهن عن طريقها**».

رد باسم بأسف: «**مؤكد يوم عقد قرانك على سلمى**».

معاذ بغير استيعاب: «**كيف وهو لم يحضر من الأساس؟!**».

ولكن رد باسم موضحًا له كيف سار الأمر بهذا الشكل: «**لا، معاذ، لقد حضر بعد ظهور رهف في الحفل، عندما صعد الجميع للاطمئنان على حنين؛ فقد تركتم الباب مفتوحًا بعد دخول رهف، وواضح أنه دخل والجميع مشغولون، فلم يرَه أحد**».

قال معاذ وقد بدأ يتوقع ما حدث: «**لهذا ظللت موجودًا ولم تغادر**».

«**أجل، معاذ. حاول الحديث مع رهف فجعلتها تصعد لكم، وتشاجرت معه بعدها لكي يرحل. كان قد أتى ينوي استفزاز الجميع**».

في هذه اللحظة خرج يحيى وترك الفتيات معًا بالغرفة، وقف قبالة باسم ليقول له بامتنان: «**لن أنسى أبدًا ما فعلته، جميلك على رقبتي طوال العمر**».

رد بصدق: «**لا تقل هذا الكلام. لم أكن لأسامح نفسي لو كان حدث لهن مكروه**».

رن هاتف يحيى ليجد المتصل بالتأكيد والدته، بالطبع قلقت على الفتيات، وبالتأكيد اتصلت على هواتفهن التي مؤكد في السيارة أمام النادي.

ليرد عليها متظاهرًا بالهدوء: «**اطمئني، حبيبتي، هن معي أنا ومعاذ، لا تقلقي. مؤكد الهواتف نسينها في سيارة رهف**».

ليدخل الغرفة وهو يتحدث بالهاتف ليشير لسلمى: «**خذي سلمى، هي بجواري الآن**».

أخذت سلمى الهاتف محاولة جلي صوتها قبل أن ترد: «**بخير، أمي، فقط نسينا الهواتف في السيارة. حتى رحمة ومعاذ معنا، سنعود بعد قليل**».

أغلقت سلمى الهاتف وقد دخل الجميع الغرفة للاطمئنان على حنين، ليوجه معاذ حديثه ليحيى: «**بعد إذنك، يحيى. سلمى ستعود معي اليوم، لن أستطيع تركها بهذه الحالة، ولا أريد أن تراها خالتي بهذا الشكل**».

هز يحيى رأسه بالموافقة، ليقول: «**المشكلة ماذا سنقول لوالدتي والفتيات بهذا الشكل، وخصوصًا حالة حنين**».

رد معاذ بسرعة وكأنه فكر في هذا الأمر: «**سنقول الحقيقة، يحيى، أنها أجهضت أثر حادث، ولكن لا داعي لذكر ما حدث معهن، فقط حادث سيارة**».

ليصمت قليلًا وينظر لرهف التي أبعدت نظرها عنه غير قادرة على مواجهته، ليكمل: «**حادث سيارة تسببت به رهف**».

بعد الاطمئنان على حنين التي كتب لها الطبيب الخروج، غادر معاذ مصطحبًا سلمى ورحمة التي رحبت بدورها بعودة سلمى معهما!

ظل باسم يقف مترددًا خارج الغرفة يريد الاطمئنان عليها قبل مغادرته ولا يعرف كيف يفعل ذلك، ليظل أمام غرفة حنين ينتظر خروجهم جميعًا ليغادر هو الآخر، ليس أمامه سوى هذا الحل، ليجد من حسن حظه رهف تخرج من الغرفة لتترك حنين مع زوجها لتستعد للمغادرة، وبمجرد أن رآها اتجه لها بابتسامة هادئة:

«**كيف حالكِ الآن، رهف؟**».

هزت رأسها ولم تحاول الكلام ولا رفع نظرها له، كل ما يجول بخاطرها في هذه اللحظة كيف رآها بهذا المنظر، وكيف سيفكر فيها بعد الآن.

«**أنا لم أُرد الذهاب إلا بعد أن أطمئن عليكِ. رهف، إن احتجتِ أي شيء فأنا موجود، لا تترددي**».

ظلت صامتة تنظر أرضًا، لا يعرف ما يجول بخاطرها في هذه اللحظة، ولكنه قرر ألا يضغط على أعصابها، فيكفي ما هي فيه، ليقول محاولًا فتح حديث: «**أرسلت صديقًا لسيارتكِ ليتأكد من إغلاقها، وغدًا بإذن الله سأحضرها لكِ أمام المنزل، حقائبكن وهواتفكن في السيارة، لا تقلقي**».

ظلت أمامه هكذا لا تحاول الكلام ولا النظر، وقد لاحظ محاولتها كبت دموعها، ليقول لها بحنو محاولًا التخفيف عنها: «**أتعلمين؟ كنت لن أسامح نفسي أبدًا لو مسكِ أي سوء، وكأن قلبي ما جعلني أنتظركِ اليوم أمام النادي**».

رفعت رأسها تنظر له بشك، تحاول أن تتأكد مما قال، فابتسم بسعادة لتجاوبها أخيرًا معه ليكمل: «**أعلم ذهابكِ للنادي كل يوم في نفس الموعد، أراكِ دائمًا هناك، واليوم انتظرتكِ أمام النادي، والحمد لله الذي أرسلني في الوقت المناسب**».

وضعت يدها على وجهها تحاول كتم شهقاتها، فها هو غباؤها جعلها تضيع اللحظة التي انتظرتها كثيرًا.

«**رهف، لماذا البكاء الآن؟ جميعكن بخير، الحمد لله**».

وجد نفسه دون أن يشعر يجذب يديها يبعدهما عن وجهها، وظل ممسكًا بهما لتقف عن البكاء أمام مفاجأتها مما فعله، فقال لها بابتسامة أسرتها وهو ما زال ممسكًا بيديها: «**أريدكِ أن تعودي كما كنتِ، منطلقة تملئين الدنيا حولكِ بالبهجة. أفهمتِ؟**».

فتح يحيى باب الغرفة ليخرج بصحبة حنين، فترك باسم يدَي رهف، والتي لم تحاول جذب يديها منه، ولا يعلم هل بسبب حالتها أم ارتاحت يدها في يده كما ارتاح هو، ابتعد عنها متجهًا ليحيى قائلًا: «**هل تريد أي مساعدة، يحيى، قبل أن أغادر؟**».

«**شكرًا، باسم، يكفيك هذا اليوم. اذهب لترتاح ولنا كلام غدًا**».

بعد فترة في منزل كريمة، وبمجرد دخول يحيى الذي حمل حنين للصعود بها للغرفة وبجواره رهف تخفي نفسها في سترته، قالت كريمة بذعر وهي تصيح به: «**ماذا حدث؟ ماذا أصابهن؟ انطق، يحيى. أين سلمى؟**».

«سلمى حدثتكِ، أمي، وهي بخير، فقط عادت مع زوجها، لم يُرد تركها اليوم. هل أمنعه من أخذ زوجته؟!».

«ماذا حدث لهن، يحيى، دون مراوغة؟».

قالتها وهي تصعد خلفه تحتضن رهف بقلق، ليكمل وهو في طريقه لغرفته يحمل حنين: «**حادث سيارة، أمي. الحمد لله، هن بخير، وسلمى لو كان بها مكروه فبالتأكيد لم أكن لأتركها تبيت بعيدًا عني**».

وصمت وهو يفكر كيف سيخبرها بأمر حنين، دخلت رهف غرفتها بسرعة وكأنها تخشى الآتي. ودخل يحيى غرفته ليضع حنين برفق على الفراش وهي لا تحاول التحدث بأي كلمة، وبمجرد أن وضعت رأسها على الوسادة أغمضت عينيها بهدوء، جلس يحيى جوارها ونظر لوالدته التي تقف أمامه بريبة ليقول: «**حنين كانت حاملًا، أمي، وحدث لها نزيف بسبب الحادث**».

«**لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. عوضكما الله خيرًا منه، بنيَّ**». قالت كلماتها وهي تحاول كتم شهقاتها لتجلس بجوار حنين التي لم تحاول فتح عينيها، لتحتضنها، وظلت تربت عليها محاولة تخفيف ما بها.

اطمأن على حنين مع والدته وغادر الغرفة، وذهب لرهف ليعرف ما حدث. طرق باب غرفتها لتفتح له بعد فترة بتردد وخوف، تعلم ماذا يريد.

في منزل رحمة، دخلت سلمى بارتباك لا تعرف كيف ستمر هذه الليلة معهم، تندم على موافقتها العودة مع معاذ رغم أنها كانت تحتاج وجوده جوارها، الموقف محرج ولكن لم يكن أمامها مجال للاعتراض؛ فهو زوجها، ويحيى نفسه لم يرفض.

أما رحمة، فقد وقفت تحسب بداخلها ألف حساب وألف تساؤل رآه معاذ بعينيها رغم محاولتها الظهور طبيعية، ولكن واضح أن معاذًا رتب لكل شيء هذه المرة ليقود هو الدفة، بالتأكيد لم يكن يستطيع ترك سلمى بعد ما حدث.

نظر معاذ لكلتيهما نظرة مطولة، ولم يستطع نسيان منظر سلمى وسط هؤلاء الكلاب تصرخ باسمه وباسم أخيها، بكائها وارتجافها، اقترب منها يضمها لصدره يحاول إطفاء هذا الحريق الهائج بداخله، وأخذ رحمة تحت ذراعه الأخرى. وأخيرًا بعد كل هذا الصمت الذي لعب بأعصابهم جميعًا، قال وهو ينظر لسلمى: «**آسف، لا بد أن تكوني أمام عيني اليوم**».

نظر لرحمة وهو يقول: «**خذي سلمى إلى غرفتكِ تأخذ حمامًا وتبدل ثيابها، لا أريد رؤية هذه الثياب مرة أخرى، واعتنيا ببعضكما البعض الليلة، سأنام في الغرفة الأخرى**».

أنهى كلامه وابتعد، أما هما فقد تقبلتا الأمر براحة شديدة، فواضح أن كلتيهما كانت تنتظر لحظة مبيته مع الأخرى، فمهما كان حدود قبولهما للوضع فالأمر في الواقع أصعب بكثير.

ولكن أتى معاذ بهذا القرار الذي كان أكثر صوابًا وأخف وقعًا على كلتيهما.

دخل يحيى غرفة رهف التي ترددت في فتح بابها خوفًا من مواجهته، وقد أبدلت ثيابها، فشكر الله على ذلك، فلم يكن يتحمل رؤيتها بهذا الشكل مرة أخرى، ولم تحاول النظر إليه خجلًا من نفسها ومنه.

جلس يحيى على حافة الفراش دون أي حديث، وظل ينظر لها وهي واقفة أمامه بارتباك، جلست أخيرًا بتردد مبتعدة قليلًا عنه على غير عادتها تنتظر ثورته، لومه، أي شيء، ولكنه لم يتحدث، فقالت بانكسار:

«**آسفة، أعلم أني أخطأت. أنا مهما قلت فلن يعوضك طفلك، ولن تنسى حنين وسلمى ما حدث**».

أطلقت العنان لشهقاتها لتكمل دون أن يسألها، وما زال ينظر إليها نفس النظرة الجامدة الخالية من أي تعبير منذ دخل الغرفة، ولا تستطيع تفسيرها: «**بعث رسالة لي على الهاتف، أخبرني أنه يريد مقابلتي في النادي، ظننت أنه باسم بعدما توقف عن إرسال الزهور، ذهبت إلى النادي لأجده ليس باسمًا، عرفته لأني رأيته يوم عقد قران معاذ وسلمى، وأخبرني أنه صديقك**».

لتكمل وهي تبكي بقهر: «**أقسم لك إني كنت سأرحل لولا أنه أصر أن الأمر يخصك وأن معاذًا ورحمة يدبران لإذلال سلمى من أجل تنازلك عن الشركة، وإن أنجبت سلمى فسيأخذ معاذ الطفل منها ليعطيه لزوجته، فهي الوحيدة التي يحبها**».

ظل يحيى صامتًا لم يحاول التحدث، لتكمل أمام صمته الذي زادها توترًا: «**خفت عليك وعلى سلمى. والله هذا ما حدث**».

ليقول أخيرًا قاطعًا صمته: «**كيف عرف بنزولكن اليوم؟**».

قالت وقد بدأت ترتعش وأصابعها تتشابك بتوتر: «**أقنعني أنك لن تصدق شيئًا عن صديقك، وأنه لا بد أن يخبر حنين وسلمى؛ لذلك أخبرته بموعد ذهابنا إلى النادي**».

زاد بكاؤها لتنظر إليه بتوسل وخوف من رد فعله وهي تكمل: «**والله هذا كل ما حدث، صدقني. والله توسلت له ألا يلمسهما، أن ينتقم مني أنا ويتركهما**».

رق لها قلبه أمام كلماتها الموجعة، وقال وهو يجذبها إليه: «**كيف تتصورين أنكِ أقل منهما أهمية بالنسبة لي؟!**».

انخرطت في نوبة بكاء شديدة وهي تتمسك بقميصه بشدة وتحاول أن تستمد منه الأمان، ليتذكر شكلها وهي مقيدة اليدين على الفراش ترتجف بخوف تنتظر مصيرها. أغمض عينيه يحاول نسيان ذلك المشهد البشع، ضمها له بشدة يطمئنها، هي لا تتحمل أي عتاب الآن، هي فقط تحتاج أن تشعر بالأمان، يكفي ما مرت به اليوم، فهو ليس هينًا على أي فتاة. أخذ يملس على شعرها الذي زاده ما حدث اليوم تمردًا، ليقول وهو يغمس يده في شعرها كأنه يريد الوصول لرأسها:

«**وهل غباؤكِ الذي أقنعكِ بمخطط معاذ ورحمة هو نفسه الذي أقنعكِ أنكِ لست مهمة بالنسبة لي لأضحي بكِ بسهولة؟! يا غبية، أنتِ ابنة خالتي قبل أن تكوني أختي بالرضاعة. أنتِ من دمي، رهف، أختي فعلًا بدليل أنكِ محرمة عليَّ. هل تتخيلين أني أقبل أن يمسكِ سوء؟!**».

أخذ نفسًا يحاول به إخراج الشحنات الغاضبة بداخله، ليكمل: «**انسي الأمر، رهف. الحمد لله، ثلاثتكن بخير. الطفل يُعوَّض، المهم أنكن بخير**».

مسح دموعها وهو يبتسم بصدق لتتفاجأ به يحملها ويضعها على الفراش لتنام وهو يُحكم عليها الغطاء ويقول: «**نامي الآن ولا تفكري في أي شيء. هيا، سأظل جواركِ إلى أن تنامي**».

احتضنته بشدة، قبل جبهتها بود وهو يقول: «**سأجعل أمي تنام معكِ الليلة، ولكن احذري من التخريف بأي شيء أمامها وأنتِ نائمة**».

ابتسمت وأغمضت عينيها لتجده يقول: «**اعلمي أن لنا كلامًا آخر بخصوص موضوع باسم**».

أغمضت عينيها بشدة ولم تحاول الرد، فابتسم أمام تصرفها الطفولي وظل جوارها إلى أن تأكد من نومها، ثم غادر.

أعطت رحمة أحد ملابسها البيتية لسلمى، فابتسمت لتقول لها بامتنان: «**شكرًا، رحمة، أنتِ حقًّا شخصية جميلة**».

صمتت قليلًا قبل أن تكمل بانكسار: «**هل تعتقدين أن ما حدث لي اليوم هو ذنبكِ؟**».

الفصل الثامن والعشرون

دُهشت رحمة بشدة مما لفظت به سلمى، وقالت: «**اعقلي يا فتاة! ما هذا الهراء الذي تقولينه؟ ذنب من؟!**».

بدأت سلمى في البكاء وهي تقول: «**لم أتذكر لحظتها غير أني استغللت الفرصة لأتزوج من أحب، حتى ولو كان على حساب مشاعركِ**».

اقتربت منها رحمة لتضمها بشفقة -فهي تشعر بقسوة ما تعرضت له-، وقالت: «**لا داعي لهذا الكلام، سلمى. يعلم الله أني أعتبركِ أختي، زواجك من معاذ كان برضائي وكامل إرادتي، وحتى لو لم يكن كذلك فمستحيل أن أتمنى لك السوء. والحمد لله، أنتِ وأختاكِ بخير، وهذا يكفي كي ننسى ما حدث ونصلي لله شكرًا**».

ردت عليها سلمى بعينين دامعتين لتصدمها أكثر: «**أتعلمين؟ بقدر دعائي وقتها أن ينجيني الله، واطمئناني عندما رأيت معاذًا ويحيى أمامي؛ كان قهري وإحساسي بالإهانة أن يراني زوجي بعد أسبوعَي زواج في هذا الموقف؛ أشعر أني جُرحت أمامه، رحمة، أشعر بالإهانة**».

ردت رحمة بصدمة مما وصل له تفكيرها: «**ماذا تقولين بالله عليكِ؟! مؤكد كل الأفكار السلبية ستأتي بعقلكِ اليوم بعد ما مررتِ به. دعينا نتفق ألا نتحدث في شيء اليوم إطلاقًا، سنخرج الآن نتناول أي شيء لنعود وننام. اتفقنا؟**».

لتكمل وهي تغمز بعينها: «**أم تريدين النوم في أحضان شخص آخر؟**».

ابتسمت سلمى بود وهي تقول: «**كل يوم أتأكد أنكِ تستحقين حبه بهذا الشكل**».

جذبتها رحمة من ذراعها للخارج، لتجدا معاذًا طلب بيتزا وقد وصلت بالفعل، وظل جالسًا ينظر للطاولة دون أن يتحرك. جلس الجميع لتناول الطعام، ولكن على غير عادة لم يحاول معاذ أن يأكل شيئًا، ولم يحاول الحديث، فحاولت رحمة الحديث لكسر حاجز الصمت، ولكنه لم يتجاوب، فوقفت سلمى قائلة بانكسار:

«**أحتاج النوم، عن إذنكما**».

بمجرد دخول سلمى الغرفة، نظرت رحمة لمعاذ بعتاب وقالت: «**لماذا، معاذ؟!**».

قال بألم: «**لم أستطع النظر إليها؛ كلما نظرت إليها تذكرت ما حدث**».

لتقول له بضيق: «**لم أعهدك أنانيًّا ولا بهذه القسوة. ما ذنبها؟! وما رد فعلك لو كان حدث لها شيء بالفعل؟! وما دام هذا شعورك لماذا أحضرتها إلى هنا؟! كنت تركتها لأخيها يواسيها**».

أنهت كلامها وكادت أن تقف، فأمسك يدها ليُجلسها مرة أخرى وهو يقول: «**أشعر أن لي يدًا في ما حدث لها، أنا من قصرت بحقها، لم يمر أسبوعان على زواجي منها ليحدث أبشع ما يمكن أن أتخيله. أتتخيلين شعوري وأنا خارج المنزل أنتظر مجيء الشرطة؟!**

أتتصورين ماذا كان بداخلي عندما سمعت صراخها؟! أتتخيلين إحساسي عندما شاهدتهم...؟!».

قطع كلامه ليأخذ نفسًا عميقًا ويكمل: «**لم أتعمد إشعارها بشيء، أنا فقط أشعر بالإرهاق**».

ردت عليه بشفقة محاولة إعطاءه الفرصة للتحدث مع سلمى: «**اذهب لها، معاذ، طمئنها بوجودك جوارها. ولكن لا تتأخر بالداخل من فضلك، وتذكر أنها غرفتي أنا**».

أنهت كلامها بابتسامة هادئة، ابتسم لها معاذ بود وقبل جبهتها، ليذهب لسلمى التي ما إن دخل الغرفة حتى وجدها منكمشة في الفراش تضع الوسادة على رأسها وتبكي، جلس جوارها ليرفع الوسادة عن رأسها، وجذبها لتجلس وقربها إلى صدره وهو يقول: «**لا أريد أن أرى الدموع في عينيكِ مرة أخرى. حبيبتي، الحياة مليئة بالصدمات، وعلينا اجتيازها ما دمنا نحن معًا وأحباؤنا بخير**».

وقبل أن يكمل كلامه رفعت نظرها إليه ليجدها مبتسمة وكأنها لم تبكِ، فقال وقد ارتفع حاجباه بدهشة: «**ما هذا التحول؟!**».

ردت بسعادة: «**أول مرة تقول لي: 'حبيبتي'!**».

شعر معاذ بالاختناق؛ ألهذا الحد يجرحها دون أن يشعر؟! لهذه الدرجة تُسعدها أبسط الكلمات؟!

«**إذًا، حبيبتي، لا بد أن تنامي الآن. وأنا سأذهب لأنام أيضًا لأن هذا المكان خاص بأخرى، يجب علينا احترام مشاعرها، وأنا هكذا سأتهور**».

قالها وقبل جبهتها وغادر.

نامت رحمة وسلمى في هدوء، ليدخل معاذ الغرفة محاولًا ألا يُصدر صوتًا؛ فقد شعر بحاجته للاطمئنان عليهما، أو ربما أراد أن يراهما نائمتين فعلًا بجوار بعضهما البعض، ليظل ثوانيَ ينظر إليهما قبل أن يجذب الباب ويغلقه مرة أخرى، ويذهب للنوم وهو يقول لنفسه: «**هل أنا أستحقهما فعلًا؟**».

بعد يومين، وبعد أن تحسنت حالة سلمى، أعادها معاذ لمنزل والدتها وهو يعدها بحل لهذا الوضع في أسرع وقت.

بعد مرور عدة أيام وتحسن حالة حنين، وقد بدأت رهف في استجماع قواها مرة أخرى، تذكرت كريمة حديثها مع عفاف عن سليم، والذي لم يعد أحد يعرف عنه شيئًا، فقد تخيلت أنه سيحاول استرجاع ابنته، فهي دائمًا كانت له كأملاكه لا يحق لأحد الاقتراب منها، ولكنه لم يظهر. ظلت كريمة تنتظر يحيى عند عودته من العمل، وبمجرد دخوله المنزل قالت: «**يحيى، لقد انشغلنا بأمر الحادث وحالة حنين، ونسينا السؤال عن عمك**».

وضع يحيى يده على رأسه وهو يقول: «**فعلًا، أمي، نسيت الأمر تمامًا، رغم أني كنت قد وعدت حنين بزيارة والدها**».

«**إذًا، بنيَّ، ابحث وراء عمك؛ فالأمر غير مطمئن**».

«**غدًا بإذن الله، أمي، أول شيء سأفعله الذهاب له**».

قبل رأس والدته واتجه للسلم ليصعد لغرفته، وفي منتصف السلم وجد أمامه رهف تقف بالأعلى، دُهش من انتظارها له؛ فقد حاولت

بقدر الإمكان الأيام السابقة تجنبه، فتركها لتأخذ وقتًا لنسيان الأمر، وجدها الآن تقف في انتظاره بجوارها حقيبة سفرها! استمر في صعود السلم حتى وقف قبالتها ليقول بغضب: «**ما هذا، رهف؟!**».

ردت بهدوء مستفز: «**سأعود لأبي. هذا أمر طبيعي؛ فوجودي هنا ليس له مبرر**».

هتف بها بحدة: «**هل أصابكِ الجنون؟! منذ متى تسافرين دون إذني؟! هل الآن تفضلين العيش هناك؟! وكيف وجودكِ هنا ليس له مبرر؟!**».

ردت بهدوء: «**من البداية كان وجودي بينكم خطأ. الصواب هو وجودي مع أبي وتأقلمي مع وضعي، وليس الهروب عندكم وتحميلكم همومي**».

صرخت كريمة التي سمعت ما دار، وصعدت السلم خلف يحيى لتقول: «**أي هموم يا رهف؟ ماذا أصابكِ؟! وما الداعي لهذا الكلام؟! طوال عمركِ تعيشين معنا، ابنتي، مثلكِ مثل حنين وسلمى، يعلم الله أني لم أفرق يومًا بينكن**».

بدأت كريمة في مسح دموعها، حاولت رهف الحديث ولكنها صاحت بها مرة أخرى لتقول: «**أنا لي فيكِ أكثر من أبيكِ نفسه، أنتِ قطعة من أختي التي انفطر قلبي عليها شابة ليعوضني الله بكِ تكبرين أمام عيني، ترضعين مني وتكونين قطعة مني كما أنتِ قطعة منها**».

حاول يحيى تهدئة والدته، فقال: «**لم تقصد ما وصل إليكِ، أمي. مؤكد تعاركت كالعادة مع حنين أو سلمى، سأتحدث معها قليلًا وأعدكِ ألا تسمعي منها هذه السخافات مرة أخرى**».

نظر لرهف بغضب وجذبها من يدها ليُدخلها غرفتها ويغلق الباب خلفهما بقوة، وجدها ترجع بظهرها برهبة وخوف وكأنها تخشاه. كذَّب نفسه وحاول الاقتراب منها مرة أخرى، فوجدها تخفي وجهها بيدها، فقال بصدمة: «**هل تخافين مني، رهف؟! أنا لم أمد يدي عليكِ من قبل؛ ماذا حدث؟**».

لتقول وصوتها يرتجف بخوف: «**حدث أني أصبحت غير مرغوب فيَّ، حدث أني أضعت حلم حنين في إنجاب طفل، حدث أني فقدت ثقة سلمى بعد شكي في زوجها، حدث أني خيبت ظنك بي، حدث أني خسرت الشخص الوحيد الذي دق قلبي له، فقدت الإنسان الوحيد الذي أحبني**».

مسح يحيى على وجهه يحاول استيعاب ما قالت؛ مؤكد حالتها النفسية وما مرت به هو الذي جعلها تصل لكل هذه التخيلات.

«**رهف، ما كل هذا السواد الذي في الحياة؟! من قال لكِ كل هذا؟!**».

قالت وقد بدأ صوتها يعلو بانفعال: «**الكل يتجنبني، حنين لا تخرج من غرفتها، سلمى لم تحاول الحديث معي، حتى أنت**».

«**رهف، لم يحدث أي شيء من ذلك؛ حنين حالتها الصحية لا تجعلها تتحرك كثيرًا، ومؤكد حزنها على الجنين يجعلها منعزلة قليلًا، وكان يجب عليكِ أنتِ وسلمى إخراجها من هذه الحالة، ولكني راعيت ما أنتما فيه. أما سلمى، فالأمر ليس له علاقة بكِ نهائيًّا؛ هي فقط تحتاج زوجها ولا تستطيع أن تطلب منه ترك رحمة. أما بالنسبة للإنسان الوحيد الذي أرادكِ، فهو – وسبحان الله! – ما زال الإنسان الوحيد المتمسك**

بكِ، والأغرب أنه – وبعد أن كان يتسم بالبرود – أصبح وكأنه أمسك بسلك كهربائي أعاد شحنه ليصبح كتلة نشاط!».

ظلت تنظر له بدهشة وهي تهز رأسها بعدم فهم، قائلة: «**كيف؟!**».

ابتسم يحيى بحنو بعد تغير حالتها بمجرد الحديث عن باسم، ليقول: «**أخيرًا، وبعد ذهاب وإياب وسفر وترحال، عاد لأرض الوطن سالمًا وقرر العمل معي من أجل صاحبة العينين الكحيلتين**».

أنهى يحيى كلامه وغمز لها، وقبل أن يتركها التفت لها قائلًا: «**أعيدي حقيبتكِ، ولا أريد سماع هذا الهراء مرة أخرى**».

تركها في حالة عدم استيعاب، وغادر هو لطائره الجريح.

دخل غرفته ليجد حنين على حالتها السابقة كما تركها، اتجه لها قائلًا: «**حبيبتي وحنين قلبي، هل ستظلين على هذه الحالة كثيرًا؟**».

لم ترد عليه، فجلس جوارها وضمها إلى صدره وقال لها بدفء: «**أتعرفين، حنين، قصة العبد الصالح؟ مؤكد تعرفينها، ولكن ركزي بها هذه المرة؛ عندما وجد غلامًا فقتله، سأله موسى – عليه السلام –: 'أتقتل نفسًا بغير حق؟'، أخبره العبد الصالح أن الله أعلمه أن الغلام سيصبح كافرًا إذا كبر وأن والديه صالحان، وأراد الله أن يموت الغلام ليرزق أهله خيرًا منه، ولهذا قتله. هل فهمتِ شيئًا، حنين؟ لله حكمة في أمره؛ لعله لم يكن خيرًا لنا، حبيبتي**».

هزت حنين رأسها ولم تحاول التحدث، فقال: «**عديني أن ينتهي الأمر الآن، وألا أراكِ هكذا مرة أخرى**».

ابتسمت وهي تقول: «**أعدك، يحيى**».

فقال لها بمشاغبة كعادته معها: «**أوعدٌ كهذا يمكن أن يكون من دون أي إمضاءات؟! ألا يكفي انتظارنا إعادة التشغيل؟**».

أنهى كلامه وغمز لها، فاحمر وجهها خجلًا ليقول لها بدهشة: «**أنا لا أصدق أنكِ ما زلتِ تخجلين مني، حنين. أتعلمين كم مضى على زواجنا؟!**».

ردت عليه بابتسامة: «**لأنك تزداد وقاحة، يحيى**».

رد عليها بثقة: «**وهذا شيء يسعدني، لعلمكِ**».

استيقظ يحيى على مكالمة من معاذ، فرد مدهوشًا: «**أهلًا، معاذ. صباح الخير**».

«**صباح الخير، يحيى. آسف على الاتصال الآن**».

«**ما الأمر، معاذ؟ هل اتصلت بي خطأ بدلًا من سلمى؟**».

«**أبدًا، يحيى، أردت التحدث معك قبل أن ننشغل في أعمالنا**».

«**خير؟ ما الأمر؟**».

«**رحمة ترفض تواجدها معكم في غير وجودي، وصراحة أنا لا أريد الضغط عليها ولا ترك سلمى كل هذه الفترة. أعلم أنها ليست سعيدة. أشعر بها، يحيى. ماذا أفعل، صديقي؟**».

«**اترك لي أمر رحمة. سأتحدث معها اليوم**».

أجَّل يحيى ذهابه لعمه ليذهب للشركة أولًا، وبالتأكيد أول ما فعله أن ذهب لرحمة في مكتبها ليقول لها بعملية: «**كيف حالكِ، باش مهندسة؟**».

ابتسمت رحمة وهي تقول: «**بالتأكيد حدثك صديقك مبكرًا**».

جلس أمامها إلى المكتب يقول: «**ها شريكتي العزيزة، ما المشكلة؟**».

ردت باتزان: «**يحيى، الأمر سيكون محرجًا، صدقني. أنا لا أمانع وجودي بينكم، بالعكس، يكفي أن يكون لي مكان بينكم عندما أحتاج ذلك؛ كل واحدة لا ترتاح إلا بمنزلها**».

ابتسم يحيى وهو يقول: «**مقنعة، رحمة، كعادتكِ. ولكن لن يقبل معاذ مبيتكِ بمفردكِ، وخاصة بعد ما حدث**».

«**فكرت في الأمر وتوصلت إلى أن أبحث عن سيدة تكون محل ثقة لمساعدتي في المنزل والمبيت معي؛ حتى يطمئن معاذ أني لست بمفردي**».

وقف يحيى وهو يقول: «**كالعادة، تخططين لكل شيء. حسنًا، رحمة، المهم هو راحتك**».

وبعد إنهائه لبعض الأعمال بالشركة، انصرف ليذهب لشركة عمه كما وعد والدته. وبدخوله الشركة، تفاجأ بهدوئها النسبي عن ذي قبل، وأخبرته السكرتيرة أن عمه لم يدخل الشركة منذ فترة.

«**ماذا تقولين؟ كيف لم يخبرني أحد؟! وكيف تسير أمور الشركة؟!**».

لترد عليه الواقفة أمامه بخوف: «**من فضلك، أستاذ يحيى، أنا لم أرَك إلا مرة واحدة، ولا أعرف كيفية الاتصال بك. سليم بيه أنهى معظم التعاقدات، وأي أوراق تحتاج التوقيع أو الاطلاع ترسل إليه في المنزل**».

غادر يحيى الشركة على عجل، يشعر بتأنيب الضمير؛ كيف يترك الرجل دون السؤال عنه بعدما أخبره عن حالة ابنته؟! ومباشرة اتجه لمنزل العائلة الكبير. دخل يحيى المنزل الذي كان في يوم يشع بهجة وحياة، ليجده مظلمًا كمقبرة كبيرة لا يوجد بها أي حياة. قابلته صباح بترحيب: «**أهلًا بك، باش مهندس. أنرت المنزل**».

ليقول بذهول: «**أنرت ماذا، صباح؟! ما كل هذا الظلام ونحن ما زلنا ظهرًا؟! افتحي النوافذ. أين عمي؟!**».

قالت صباح بتوتر: «**بالأعلى في غرفته... هو... هو من أمرني بعدم فتح النوافذ؛ فهو لا ينزل إلى الأسفل نهائيًّا، حتى الطعام يأكله في الغرفة**».

صعد يحيى السلم دون أي حديث آخر، ليتجه للغرفة التي يعرف مكانها جيدًا. طرق الباب عدة مرات، ودخل بعد فترة بتردد دون أن يؤذن له بالدخول، وهو يخشى لأول مرة ما سيراه وكيف هو وضعه.

الفصل التاسع والعشرون

دخل يحيى غرفة عمه برهبة، ليجده جالسًا على كرسيه بجوار النافذة. تفاجأ بمظهره وكأنه ظهر عليه علامات السن فجأة؛ ذقنه غير المهذبة، شعره وكأن فجأة غزاه الشيب بعد أن كان يسعى لإخفائه، جسده زاد نحافة وأصبح هزيلًا. وقف يحيى خلفه ولم يحاول عمه الالتفات وكأنه لا يهتم لدخول أحدهم الغرفة.

«**عمي، ماذا يحدث لك؟ لماذا تفعل ذلك؟**».

رد عليه سليم دون أن يلتفت: «**وهل يهمك أمري؟!**».

«**بالطبع، عمي، هل عندك شك في ذلك؟ وحتى لو لم يهمني أمرك فهو يهم زوجتي، ابنتك**».

ضحك بسخرية ليرد عليه بهدوء: «**ابنتي التي لم تجد الأمان بجواري، ابنتي التي تعرضت لمحاولة اعتداء وهي في حمايتي، مرة واثنتين وأنا لا أشعر؟! أم ابنتي التي تزوجتها بالتهديد بفيديو فاضح، ابنتي التي هربت مني لتذهب إليك؟!**».

«**المهم أنها بخير، هنا أو بأي مكان، هي بخير**».

ليقول الرجل بنفس الوهن والنبرة المنكسرة: «**وكيف أسامح أنا نفسي بما وصلت إليه، وبعدما ابتعدت عني ابنتي الوحيدة التي عشت عمري كله لأجلها؟!**».

رد يحيى بهدوء محاولًا إزالة أي ضغينة بداخله تجاه هذا الرجل – فمهما كان فهو عمه –: «**إنه قدرها، عمي؛ أن تمر بكل ما مرت به**».

«**كنت أظن أني أقوى من أي أحد، ولكنها قصمت ظهري. أنت نجحت، ربحت في النهاية لتكون هي الجائزة، أنا جعلتك تفوز بالشركة أيضًا. ألم يكن حلمك هذه الشركة؟ ستجد توكيلًا عامًّا مع محامي الشركة باسمك، خذها كما أخذت حنين، ولا تشغل بالك بي. أنا سأسافر؛ لم أعد أحتمل البقاء هنا**».

اقترب يحيى ليجذب كرسيًّا ويجلس أمام عمه الذي لم يحاول النظر له طوال حديثه، ليقول له بصدق: «**أخذتها زوجة وليست صفقة أو ربحًا؛ حنين بالنسبة لي حياة روحي في جسد آخر، لم يكن يومًا وجودها بيننا تخليص حسابات، وإلا لما كانت تمر سنوات وهي بعيدة عني دون أن أحاول استغلالها ضدك. أما الشركة، فستظل شركتك أنت ووالدي، لم أكن أطلب يومًا أكثر من حقي، تعلم ذلك، وأنت من رفضت إعطائي هذا الحق. ومع ذلك، تركتك ولم أقف أمامك، أنت من تعمدت كسري**».

ليقول سليم بوهن: «**وهل تتخيل أني لو كنت أكرهك أو لا أريد وجودك معي كنت تركت كل شيء كما هو إلى الآن؟!**».

تساءل بعدم فهم: «**ماذا تقصد؟**».

«**أنا أعلم جيدًا أنك سترثني آجلًا أو عاجلًا، كل شيء سيئول لك أنت وحنين، لو كنت لا أريد وجودك لكنت منعت هذا الميراث من أن يصل لك وكتبت كل شيء لحنين، ولكني – ورغم رفضي زواجها منك – كنت أعلم أنك حمايتها في هذه الدينا من بعدي، حتى وإن كانت قد**

تزوجت غيرك، أعلم أنك سوف تحمي مالها ولن تطمع به، ولكنك غبي؛ فضلت العيش بدور الضحية، وها هي النتيجة».

ظهر على يحيى علامات الدهشة؛ فلأول مرة يسمع هذا الكلام من عمه. هل ما حدث كسره بهذا الشكل؟! أم أضعفت السن من قواه ليستسلم في النهاية؟!

نظر له عمه نظرة مطولة، وأكمل قائلًا: «**أتعلم، يحيى؟ زواجك منها أراحني**».

ابتسم يحيى بسخرية وهو يقول: «**أراحك بعد الشريط الفاضح الذي تتحدث عنه؟!**».

رد سليم بتهكم: «**لم أزوجها لك بسبب تهديدك الغبي؛ أنا علمت يومها من صباح ما حدث، فلقد سمعت ذلك الحقير في الحديقة، ورغم أنه آلمني عدم إخبارها لي، فقد آلمني أن تكون أنت أمانها أكثر مني، إلا أني ارتحت لوجودها معك، زوجتها لك لتحميها، لم أجد من أأتمنه عليها سواك، أعلم أنها ضعيفة لا تجيد التصرف، هشة تنكسر بسهولة**».

سكت سليم قليلًا لينظر ليحيى بأسى رجل هزمته السن وانكسر كبرياؤه: «**كنت أتركها معك في بيت واحد ولم أقلق عليها، كنت أجعلك أمينًا عليها في ذهابها إلى أي مكان، لم أسألك يومًا عن تأخير أو سفر؛ ألم تسأل نفسك لماذا؟!**».

لم يرد عليه يحيى، ليكمل: «**لم يكن عدم اهتمام بها يا غبي؛ كان ثقة بابن أخي، ثقة في تربية هذا البيت. ولكن طيشك هو ما صوَّر لك غير ذلك**».

ليقول يحيى بحسرة: «**الحنان، عمي، هو ما بخلت عليها به. بخلت حتى بمعرفتي ما تقوله لي الآن. القسوة هي ما جعلتنا نقف عند هذه النقطة لنحاسب أنفسنا من المخطئ في حق من، قسوتك ما جعلتها تهرب لتبحث عمَّن يحنو عليها. أمام جفائك لم يفكر أحدنا في ما تفكر به أنت**».

وقف يحيى يربت على كتف عمه، وأكمل قائلًا: «**اخرج، عمي، من حجرتك. عد للشركة، أنا لا أريد لها أن تنهار. دعنا نعود كما كنا لننسى ما مضى. حنين بخير وهذا ما يهم**».

ليجد عمه يقول بنفس الهدوء: «**وهل سلمى بخير؟ زوجت أختك دون علمي، يحيى! زوجتها صديقك المتزوج!**».

أغمض يحيى عينيه ليقول مدافعًا: «**نعم، هي بخير وسعيدة مع زوجها، هي من اختارت واقتنعت ورضيت. عمي، أنت تعرف معاذًا جيدًا؛ لا داعي لأي تهكم أو تشكيك، ليست ظروفنا جميعًا متشابهة**».

«**أحضرهم جميعًا هنا، يحيى. أنت من غادرت من البداية، لم أطلب منك الرحيل. ومع ذلك أقول لك عد؛ فهذا المنزل لك فيه أنت وأختك مثلي. أنا سأسافر؛ فلا تشغل نفسك بوجودي، إنه مؤقت**».

«**أين ستسافر؟! ولماذا؟**».

«**اعتبرني قررت الاستجمام، أعطيت الشركة أكثر من اللازم، أخذتني حتى من ابنتي، لم أعد أطيق العمل. لك الشركة والمنزل، افعل ما تشاء. ولك ابنتي، حافظ عليها؛ فأنا لن أقبل أن تتزوج عليها كصديقك**».

غادر يحيى منزل عمه ليركب سيارته متجهًا لمنزله وهو يفكر في ما قاله عمه، هذا الحديث الذي لم يتخيله أبدًا عندما وطئ بقدمه أرض هذا المنزل، ليجول بخاطره الكثير من الأسئلة: هل سهل الاعتراف بالخطأ؟ هل ما زال هناك وقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؟ كيف برجل كان بهذا الجبروت أن يصبح على هذا القدر من الضعف؟ أهي السن ما تفعل بنا هكذا؟ أم الضمير؟ ربما يكون الخوف من الوحدة؟ أم الإحساس باقتراب الأجل؟ لا يهم السبب، المهم أنه قبل فوات الأوان.

دخل يحيى المنزل ومعه باسم، ليرحب به قائلًا: «**دخول البيت من بابه أفضل من الانتظار على الطرقات، سيد باسم**».

ابتسم باسم وهو يقول: «**كنت راضيًا بالزهور، ولكن أنت من منعتها**».

رد يحيى وهو يجلس أمامه وعلى وجهه ابتسامة رضا: «**أتعلم أني أشكر الله على أنه ألهمني منعك من إرسال الزهور؟!**».

قال باسم بدهشة: «**يا رجل! ولِمَ هذه السعادة؟!**».

«**ببساطة لولا ذلك لما كنت انتظرتها أمام النادي**».

هز رأسه وهو يقول: «**معك حق**».

قال يحيى وهو يقف: «**سأصعد لأحضرها يا روميو. وتذكر هذا الجميل، وأني سمحت لك بالحديث معها ولم تكن تحلم بذلك**».

«شكرًا لسيادتك على هذا الكرم. وهيا اذهب؛ هل أتيت إلى هنا لأتحدث معك؟!».

ابتسم يحيى وقال بمشاكسة: «**أخبرني أولًا، ماذا ستقول لها؟**».

رد باسم محاولًا كبت غيظه من هذا الذي يلعب بأعصابه: «**اجلس معنا أفضل، يحيى**».

أشار له يحيى بيده بعلامة الموافقة وهو يقول: «**حسنًا، فكرة جيدة**».

وقف باسم ليغادر، ولكن دفعه يحيى في كتفه ليسقط جالسًا على الأريكة وهو يقول: «**اجلس هنا ولا تتحرك. هل تتخيل خروجك من هنا سهلًا؟!**».

ذهب يحيى لغرفة رهف وكان قد أقنعها بتجهيز نفسها للخروج معه، وجدها على غير عادتها من دون عدسات لاصقة ولم تعد تحاول صبغ شعرها، تركته كما هو متمردًا، فقال: «**من هذه؟ أين رهف؟**».

ردت بحزن: «**ألهذه الدرجة شكلي من دون زينة سيئ؟ أخبرتني خالتي أني إن تركت نفسي من دون تغيير فسأشبه أمي**».

اقترب منها، فهو يعلم أنها في الفترة الأخيرة أصبحت حساسة لأبسط الكلمات، وقال: «**بالعكس، هذه هي رهف، أختي الصغيرة البريئة ذات الشعر المتمرد وعينَي المها، أنتِ هكذا أفضل؛ لأنكِ هكذا رهف. أفهمتِ؟**».

ابتسمت بسعادة لتجده يجذبها من يدها لتسير بجواره، وما إن نزلت معه السلم حتى تفاجأت بوجود باسم أمامها. بمجرد أن رآها

وقف بابتسامته، يتأملها لأول مرة من دون أي اضافات كما كانت تفعل، يرسمها بعينيه، أجل هذا من حق قلبه.

ابتسم يحيى؛ فكم أسعدته نظرات الاثنين وما تحمله من حب! كم يُذكره ذلك بحنين قلبه ليقول قاطعًا الصمت: «**هل ستظلان كثيرًا هكذا؟! سينتهي الموعد المحدد لكما. مسموح لكما بنصف ساعة فقط، وذلك إلى أن يتم عقد القران**».

أنهى يحيى كلامه وغادر. أفاق باسم من حالته ليبتعد بنظراته عنها، وجلس ليترك لها فرصة التحرك دون حرج. جلست أمامه وبالطبع لم تحاول الكلام، ليبدأ هو: «**كيف حالكِ، رهف؟ أراكِ أفضل مما سبق**».

«**الحمد لله**».

ردت باقتضاب، فقال بعتاب: «**سمعت من يحيى أنكِ أردتِ السفر!**».

أخذت نفسًا عميقًا لترد بخجل: «**أجل، شعرت أن وجودي هنا ليس له مبرر**».

«**وهل أنا لست مبررًا؟**».

لم تدرك ما قاله وهزت رأسها بعدم فهم، فأكمل: «**أبعد أن وجدتكِ تتركينني؟**».

لم تستطع الكلام، فقد كان صريحًا وسريع الرد على غير ما توقعت، ليكمل: «**اتفقت أنا ويحيى أن يكون عقد قراننا بعد الاتفاق مع والدكِ على موعد لحضوره**».

رفعت رأسها بمفاجأة لتقول بغضب وقد تبدل حالها: «**وهل تتفقان من دون إخباري؟! ولماذا فرضت قبولي بهذه السهولة؟! أساسًا أنت كيف تقبل بي بعد ما حدث؟!**».

ابتسم باسم وكأنه توقع ردها؛ فقد أخبره يحيى بما تمر به منذ الحادث: «**اتفقنا لأنه كما قال يحيى يجب دخول البيت من بابه. وقبل سؤالكِ يجب أن أطلب يدكِ من والدكِ، هذا حقكِ وحقه. أما بالنسبة لفرضي قبولكِ، فهذا ليس فرضًا، هذا تأكيد من قلبي**».

توترت رهف لما يرمي إليه كلامه، لتقول بكبرياء أنثى محاولة التماسك: «**وما الذي جعلك متأكدًا هكذا؟!**».

ابتسم بخبث وهو يقول: «**صراحة، منذ يوم الحادث قد تأكد قلبي وعقلي من ذلك**».

ردت بانكسار قائلة: «**فرضت موافقتي لما أصابني من إهانة. أليس كذلك؟ مؤكد بعد ما حدث لي سأوافق حتى من دون أخذ رأيي!**».

رفع حاجبيه بدهشة مما وصل إليها، يعلم أن الأمر كان قاسيًا، ولكنه لم يتخيل أن تظن فيه ذلك، فقال بعتاب: «**أتعتقدين أني أستغل الظروف؟ هل هذا رأيكِ بي؟!**».

لم تحاول الرد، وأبعدت نظراتها عنه وانسابت عبراتها، وقف باسم يأخذ نفسًا عميقًا، تخيلته سيغادر فزادت دموعها، لتتفاجأ به يجلس بالقرب منها قائلًا: «**ما حدث ليس لكِ يد به، ولا لأي واحدة منكن. والحمد لله، ثلاثتكن بخير وأفضل حال، وهو ينتظره أشد عقاب؛ ارتكاب جريمة كالخطف ليس بالهين، وهو يستحق ما سيتلقاه من عقوبة، يعلم الله أن إحساسي حينها لم يقل عمَّا كان به يحيى ومعاذ، ولم أكن**

لأسامح نفسي أبدًا لو حدث لواحدة منكن مكروه لا قدر الله. أما بالنسبة لقصدي منذ يوم الحادث، فصراحة لا أعرف هل تتذكرين شيئًا أم لا».

نظرت له بعدم فهم وهي تقول: «**أتذكر ماذا؟**».

ابتسم بتلاعب؛ فقد قرر أن يشاغبها قليلًا ليخرجها من هذه الحالة المملة: «**ألم تتذكري كيف خرجتِ يومها من المنزل؟**».

حركت عينيها يمينًا ويسارًا محاولة تذكر ما حدث؛ فهي منذ ذلك اليوم لم تفكر في ما مرت به حتى مع نفسها، ولكن كلامه جعلها تشك، فقال بدهشة: «**ألم تعرفي أني من أنقذتكِ؟**».

أغمضت عينيها وقد ارتبكت؛ هي فعلًا حاولت تناسي ما حدث، ولكن... حملها أحدهم... وإلى هذه النقطة فتحت عينيها باتساع وهي تنظر أمامها، ليعلم أنها بدأت تتذكر ما حدث، وقالت مدافعة عن نفسها: «**حملني يحيى**».

ضحك وقد أعجبته اللعبة، ليقول: «**ألم يكن يحيى مع زوجته في الإسعاف؟**».

أغمضت رهف عينيها مرة أخرى بصدمة، وقبل أن تتكلم قاطعها قائلًا: «**مؤكد ليس معاذًا؛ فقد كان مع زوجته. وصراحة لم أكن أقبل أن يحملكِ؛ فأنا أولى**».

وضعت يدها على عينيها بخجل، ليضحك ويكمل لعبه بأعصابها: «**حملتكِ حتى سيارتي، ولم أتحرك بالسيارة إلا عندما اطمأن قلبي عليكِ، وصراحة كان أجمل اطمئنان**».

نظرت له بشك من مقصده، تعرف أنه يتلاعب بها، ولكنها فعلًا بدأت تتذكر ما حدث، لتقول: «**أيكفيك لعبًا بي؟ وإلا فسأغادر الآن وأخبر يحيى أنه فهم موافقتي خطأً**».

ليقول وهو لا يحيد بنظره عنها يحاول حفظ تفاصيلها وردود أفعالها: «**وإن كان يحيى فهم موافقتك خطأ، فأنا لم أفهمها خطأ**».

قالت تدافع عن كرامتها من ثقته الزائدة: «**ومن أين لك هذه الثقة؟!**».

شعرت رغم عدم اقترابه منها أنه يكاد يدخل في أعماقها بهذه النظرات التي تخترقها، لتجده يقول: «**عندما يكون الإنسان في أصعب وأشد موقف ممكن أن يتعرض له، ويريد الإحساس بالأمان، ماذا يمكنه أن يفعل عندما يجد شخصًا يمثل له الأمان أمامه؟**».

لم تحاول الرد، ولكنها كادت تعتصر ذاكرتها لتحاول الوصول لما يقصده وهي تحرك عينيها في كل اتجاه إلا اتجاهه، ليكمل: «**هل من الممكن أن ترمي نفسكِ بين ذراعَي أحد لم تشعري معه بالأمان؟**».

أغمضت رهف عينيها بشدة وقد فهمت مقصده، ليزداد وجهها خجلًا وهو يكمل بصوت خافت اهتز له كيانها: «**لو لم يكن بقلبك لي مشاعر، ولو لم يكن وجودي جواركِ وقتها أشعَركِ بالأمان بعد كل الرعب الذي عشتِه، لكان أبسط شيء أن تبتعدي عني خائفة، وليس العكس**».

أدارت رأسها بعيدًا عنه، ولم تحاول النظر له مجددًا، وقد علم أنها تذكرت ما حدث ليقرر الاكتفاء بهذا القدر من مشاكستها ويتحدث بما أتى من أجله، ولم يحاول النظر لها مرة أخرى لتستطيع أخذ أنفاسها، ليقول ناظرًا أمامه:

«**منذ أول مرة رأيتكِ فيها هنا أدركت أنكِ أنتِ من أبحث عنها، طلبت يديكِ من يحيى مع أول باقة زهور وصلت لكِ**».

انتبهت لما قال محاولة بتردد النظر له، وساعدها على ذلك أنه ظل يتحدث وهو ينظر لهاتفه، ليعطيها فرصة للهدوء بعيدًا عن نظراته: «**اتفقت مع يحيى أن نؤجل أي ارتباط رسمي لحين استقراري في عمل؛ فقد رجعت من السفر منذ وقت قصير، ولم أكن قررت البقاء هنا بعد. كنت أراكِ باستمرار في النادي، وبعدها أذهب لأرسل لكِ الزهور، إلى أن طلب مني يحيى عدم إرسالها مرة أخرى. وصراحة فكرت في الأمر، ووجدت أن معه حقًّا**».

دُهشت رهف من بساطة سرده لما حدث وكأنها ليست المرة الأولى التي يتحدثان فيها عن قرب، لتقرر قطع صمتها وخجلها وتسأله بصوت هامس: «**لماذا أنا؟**».

رد ببساطة أكثر دون تفكير: «**أتبحثين عن سبب للحب؟!**».

حركت رأسها يمينًا ويسارًا بعدم استيعاب؛ هل هو اعترف بحبه لها بهذه السهولة؟! لم يستطع مقاومة ضحكاته أمام رد فعلها، فوقف وناولها كوب الماء الموضوع أمامهما على الطاولة، لتأخذه بتلقائية وتشربه وتعيده له مرة أخرى، وهو يحاول كتم ضحكاته أمام تصرفاتها الطفولية التي جعلته يخرج عن كل ما رتب له، ليقول: «**أهدأتِ الآن؟**».

ابتسمت بخجل، ليجلس ويقول لها بصوت رخيم: «**أتعرفين، رهف، بماذا فكرت عندما أخبرني يحيى أنكِ أردتِ السفر وأنه منعكِ في آخر لحظة؟ قارئة الفنجان**».

هزت رأسها بعدم فهم، ترمش بجفونها التي تصيبه في مقتل، ليقول: «**ألا تعرفين من قلبت فنجان نزار؟**».

ضحكت رهف بشدة بعد فهمها ما يقصد، لتقول: «**وما دخلي أنا بها؟**».

صمت لحظات يجمع فيها شتات نفسه على أثر ضحكتها الساحرة، ليقول: «**ألا تعرفين ما دخلكِ؟! لقد وصفكِ نزار قبل أن تولدي، رهف**». ظلت صامتة بذهول ليكمل: «بحياتك يا ولدي امرأة عيناها سبحان المعبود، فمها مرسوم كالعنقود، ضحكتها أنغام وورود.. والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا».

صمت قليلًا يضحك من رد فعلها، فقد فتحت فمها بصدمة: «**أنت تتحدث عمَّن؟!**».

فأكمل: «ستفتِّش عنها يا ولدي في كل مكان
وستَسأل عنها موج البحر وتسأل فيروز الشطآن».

صاحت به رهف: «**باسم، كفى. أنت تمزح**».

رآها وقد بدأت تتلألأ الدموع في عينيها، فوقف وهو يقول:
«فحبيبةُ قلبك ليس لها أرض أو وطن أو عنوان
ما أصعب أن تهوى امرأةً يا ولدي ليس لها عنوان».

غادر بعدها ليتركها مع صدمتها وأحلامها التي تفتحت على يده، تركها تحاول لملمة مشاعرها التي بعثرتها كلماته ليرن بداخلها لحن القصيدة وكلماتها ولكن بصوته هو، الحبيب الذي انتظرته سنين ليظهر فجأة أعلى من سقف أحلامها البسيطة.

الفصل الثلاثون

عاد الجميع لمنزل العائلة الكبير، ورغم الشوق لأيام هذا المنزل كان داخل كل منهم الخوف. دلفت حنين للمنزل تتذكر كيف خرجت منه وهي تتمنى ألا تعود له مرة أخرى، لم تُدهش لعدم وجود والدها في استقبالها، فقد تعودت منه على الجفاء. رحبت بهم عفاف بشوق؛ فقد عادت بمجرد علمها برجوعهم.

جذب يحيى حنين من يدها ليصعد بها باتجاه غرفة والدها، حاولت الوقوف أكثر من مرة ولكنه كان مستمرًّا في طريقه وهو يجذبها خلفه. طرق الباب ليأذن له بالدخول، وبمجرد أن فتح يحيى الباب، تفاجأت بما وصل له حال والدها لتنساب دموعها أمامه، ظل ينظر لها ينتظر منها المبادرة، ولكن أي أساس بُني بينهما لتكون منها المبادرة؟

اقترب منها سليم ببطء وهو يقول بانكسار: «**أعلم أني قسوت عليكِ كثيرًا، ولكن كان خوفًا عليكِ، ابنتي. لم أكن أتخيل يومًا أن يؤذيكِ أحد وأنا على قيد الحياة، ولكني اكتشفت أن وجودي في حياتكِ هو ما أضرك**».

ظلت دموعها تنهمر أمامه، ولم تقوَ قدماها على التحرك. جذبها يحيى لذراعه؛ فقد خشي انهيارها، وقال: «**حنين، هل أنتِ بخير؟**».

لم يجد منها أي رد، فاقترب والدها وقد هزه وقوفها أمامه بهذا الشكل، يحاول كبت دموعه حتى لا يهد آخر نقطة كبرياء بداخله أمام ابنته وابن أخيه: «**سامحيني، ابنتي**».

رفع سليم يديه تجاهها بارتجاف خوفًا من رد فعلها. وما إن حاول جذبها إليه بكلتا يديه حتى تفاجأ بها ترتمي بين أحضانه، تطلق العنان لشهقاتها لتغسل بداخلها كل ما مضى، فمهما كان فهو والدها، ومهما فعل بها فهذا الحضن هو الأمان، حصنها المنيع، أمان مختلف مهما عوضها الزوج والحبيب.

وقف يحيى صامتًا يشعر بالرهبة؛ فقد كان خوفه من لحظة انهيارها أكثر منها ومن عمه، كان يخشى العودة لنقطة الصفر من جديد. وبعد دقائق، ما إن هدأ الجميع حتى نظر سليم ليحيى وهو يقول: «**ما دام بداخلي أنفاس في هذه الدنيا، لن أسمح بانشغالك عنها. إياك أن تخذلها يومًا؛ هي أمانة في رقبتك. تركت بيدك كل شيء من أجلها؛ فقدر هذه الأمانة**».

اقترب يحيى من عمه الذي ما زال يحتضن ابنته، ليقول: «**سأفهم أكثر إن عانقتني أنا أيضًا**».

رفعت حنين رأسها لهما لترى والدها يحتضن ابن اخيه، فجففت دموعها وكأنها تبدلت لتقول بقوة لم تتحدث بها من قبل وهي تنظر لوالدها بتحدٍّ: «**ولكني لن أقبل أن تسلمني له مع أملاكك، لن أقبل أن تعطيه مفاتيح قفصي الذهبي ليكون سجاني بعد أن كان ملاذي**».

نظر لها يحيى بعدم فهم، وقال: «**ماذا تقصدين، حنين؟**».

لم يحاول سليم الحديث حتى يعلم مقصدها، لتكمل قائلة بنفس نبرة الاعتراض: «**هل لا قيمة لي بالحياة لهذه الدرجة؟! أين أنا من خططكما المستقبلية؟ وبأي حق تنظمان مستقبلي؟! هل سألني أحدكما ماذا أريد؟ بماذا أحلم؟ هل تريده نسخة أخرى منك؟**».

ليقول يحيى وقد أصبحت عيناه بلون الدماء، لا يصدق ما تفوهت به للتو هذه المجنونة: «**ماذا تقولين، حنين؟! وهل طلبتِ مني شيئًا ولم أحققه لكِ لكي تقولي ذلك؟!**».

ليخرج سليم عن صمته وهو يقول: «**انتظر لحظة، يحيى، لنعرف ماذا تريد. وعدتكِ، بنيتي، ألا يتكرر ما حدث مرة أخرى، وأنا لن أسمح له بذلك أبدًا**».

اعتدلت حنين في وقفتها، فقد تأكدت أن والدها في هذه اللحظة سيحقق لها أي شيء مهما كان ليكسبها مرة أخرى، ونظرت ليحيى بتحدٍّ وكأنه غريمها، وقالت وهي تنظر لأبيها: «**أريد أن أدير الشركة معه، أليس هذا حقي مثله؟ ألم ترفض دخولي كلية الفنون الجميلة وأدخلتني كلية التجارة لهذا السبب؟ أنا أريد العمل، أريد أن أنجح كما نجحتما، لن أقبل أن أكون ضعيفة مرة أخرى أترك حياتي تحركها الرياح كما تشاء**».

ابتسم والدها بسعادة وكأنه كان يتمنى ما تقوله، ونظر لها بإعجاب، وربت على كتفها وهو يقول: «**لم تطلبي شيئًا صعبًا، فعلًا إنه حقكِ، وأنا لا أمانع أبدًا**».

ونظر ليحيى الذي جمدت ملامحه من دون أي تعبير، ليكمل قائلًا: «**سيكون لحنين حق إدارة نصيبها، يحيى، ولن أقبل النقاش**».

نظرت حنين ليحيى بنصر وتحدٍّ، ليقابل نظرتها بجمود ويغادر الغرفة دون أي رد فعل، كادت أن تناديه ولكنها تراجعت وقررت التمسك برأيها لتستأذن والدها وتغادر غرفته. وقفت بالخارج تفكر أين ستذهب، هل غرفتها أم غرفة يحيى؟! ولكنها قررت الذهاب لغرفتها؛ فهي تخشى رد فعله بعد ما قالته أمام والدها.

بعد مرور عدة أيام، كانت سلمى قد استقرت في شقتها مع وجود سيدة ترعاها كما حدث مع رحمة، فقد توصل الجميع إلى أن هذا هو الحل المناسب الذي يرضي كل الأطراف، على أن تكون غرفتها في بيت العائلة جاهزة لاستقبالها في أي وقت.

رن جرس الباب، بالتأكيد الطارق رحمة؛ فهي تنتظرها منذ فترة، فتحت الباب وجذبتها من يدها للداخل بسرعة: «**ماذا بكِ، سلمى؟ لماذا أصررتِ أن أترك الشركة وآتي إليكِ بهذه السرعة؟ ألا تعلمين أني أصبحت المسئولة عنها بعد تفرغ يحيى لشركة عملكِ؟! أنا تركت كل ما ورائي وجئت خوفًا من أن يكون معاذ قد أغضبكِ في شيء؛ فأجدك تستقبلينني بابتسامة؟!**».

ابتسمت سلمى بسعادة وهي تقول: «**أعلم أن أخي لن يتركك في حالكِ، وأن الشركة أصبحت فرعًا للشركة الكبيرة. أعلم كل ذلك، فلا تشغلي بالكِ الآن وركزي معي**».

«ماذا حدث؟ لا تقلقيني أكثر من ذلك. ماذا فعل معاذ؟».

ضحكت سلمى بشدة وهي تقول: «**دائمًا أشعر أنكِ والدته. ماذا ستفعلين إن أغضبني؟ هل ستشدين أذنه؟!**».

ضحكت رحمة قائلة: «**بالطبع أفعلها، ألم تجربي من قبل؟ ماذا بكِ، أخبريني؛ توترت**».

لتقول سلمى بارتباك: «**صراحة أنا أشك في أمر، وقررت إخباركِ قبل أي أحد**».

ابتسمت رحمة بسعادة وشعرت أن أنفاسها كادت تقف، لتسألها قائلة: «**تشكين أنكِ حامل، سلمى؟**».

هزت رأسها بابتسامة ودمعت عيناها أمام رد فعل رحمة؛ فقد أصرت على إخبارها بنفسها لترى تأثير الخبر عليها: «**نعم، رحمة**».

احتضنتها رحمة تبكي وهي تقول وقد اختنق صوتها: «**سلمى، هل ستتركينني أحمله؟ هل... هل ستوافقين أن يناديني بأمي؟ سلمى، أرجوكِ دعيني أراه دائمًا... أرجوكِ أخبريه أن يقول لي أمي**».

ردت سلمى بألم لحال هذه الفتاة الجالسة أمامها – أي وجع هذا الذي تتحمله؟! وأي قلب هي لتفرح لها بهذا الشكل؟! –: «**لهذه الدرجة أنتِ سعيدة، رحمة؟!**».

بكت رحمة كما لم ترَها سلمى من قبل وهي تقول: «**إنه ابن معاذ، حتى وإن كان من غيري، قطعة منه، حلمه وسيتحقق، حتى وإن لم أستطع أنا تحقيقه، حلمت معه بأبناء يحملون اسمه، يشبهونه. سأحمل ابنه، سلمى. أليس كذلك؟**».

شعرت سلمى بالرهبة أمام ما تقوله، وأمام كل الحب الذي بداخل هذه المرأة، لتقول وهي ترتجف: «**بل ستكون فتاة، وسأسميها رحمة؛ لتصبح مثلكِ بكل هذا الحب النابع من قلبك، رحمة**».

بعد فترة غادرت رحمة وهي متعللة بالعمل؛ رغم محاولات سلمى معها كي تنتظر عودة معاذ، فقد قررت بداخلها أنها لا بد ألا تكون أنانية لتترك فرصة لسلمى أن تعيش هذه اللحظة مع زوجها.

ركبت رحمة سيارتها وظلت دموعها تنهمر من دون توقف، راضية هي عمَّا اقترفت، وغير نادمة على تفريطها في حبيب عمرها؛ تنازلت عن حقها الكامل به ليحصل على حق هو يستحقه، أن يكون أبًا، غير نادمة على اختيارها سلمى، فهذه الفتاة تستحق أن تكون أمًّا لطفل يحمل اسم معاذ. هذه هي السعادة، رحمة؛ أن يكون كل من حولكِ سعداء.

عاد معاذ من العمل في موعده، فوجد سلمى تنتظره أمام الباب وواضحة عليها آثار الدموع، ليقول بقلق: «**ماذا بكِ، سلمى؟ ماذا حدث؟**».

ابتسمت له بحب وهي تقول: «**لا عليك من هذه الدموع، إنها لحظات تأثر. هيا لتبدل ثيابك. أريد إخبارك أمرًا هامًّا**».

جذبته للداخل أمام دهشته وهو يحاول فهم هل هي سعيدة أم حزينة: «**سلمى، ماذا بكِ؟! أنا لا أفهم، أنتِ غير طبيعية**».

«**أجل**».

رفع حاجبيه وهو يقول: «**بهذه البساطة أجل؟!**».

بعد أن بدل ثيابه وأصرت هي أن يأكل أولًا وظلت تتأمله وهو يأكل، ليقول: «**هل أوحشتكِ لهذه الدرجة؟!**».

ابتسمت بهدوء وهي تهز رأسها بإيجاب، وبعد أن أنهى طعامه وقفت قبالته تفكر كيف ستخبره بالأمر، فكل ما خططت له لا تستطيع تنفيذه:

«**معاذ، أنا لم أطلب منك أن تقبلني من قبل. أليس كذلك؟**».

ابتسم معاذ وهو يقترب منها: «**هل كل ذلك وكل هذه المقدمات لطلب قبلة واحدة، سلمى؟**».

لتبتسم وهي تقول: «**عندك حق؛ خبر حملي يستحق أكثر من ذلك**».

ظل معاذ صامتًا لحظات ليقول بعدها بتردد: «**ماذا؟ خبر ماذا؟! سلمى، أنتِ حامل! هل ما سمعته صحيح؟!**».

أنهى كلماته وهو ينهج وكأنه في سباق، فردت عليه بابتسامتها الساحرة: «**وهل هذا رد الفعل فقط؟! رحمة عندما علمت احتضنتني وقبلتني، وأنت تقف مكانك هكذا؟!**».

ليقول بشك وقد لاحظت ظهور الدموع في عينيه: «**سلمى، أنتِ تتحدثين بجدية... أنتِ فعلًا حامل... أ...أقلتِ رحمة علمت؟**».

«**أحلف لك مثلًا لتصدق؟!**».

تفاجأت به لم يخجل من ظهور دموعه وهو يحمد الله شكرًا، هذا الرجل الذي طالما كان أمامها قويًا، دائمًا ما كان يصعب عليها فهم تعبيرات وجهه، يتأثر بهذا الشكل أمامها! اقترب منها ليحتضنها

بشدة، فلم يعد يستطيع الكلام، كل ما استطاع فعله هو إعطاؤها من حبه وامتنانه ما تستحق، أكثر بكثير مما طلبت.

بحث يحيى في المنزل عن حنين فلم يجدها، دُهش لأنها لم تخبره بخروجها، فرغم الأيام الماضية وتجنبها مواجهته لتظل في غرفتها وهو في غرفته، وبرغم ضيقه مما قالت، لم يتخيل أن تظل في غرفتها، وكأنهما برجوعهما إلى هذا المنزل عادا كما كانا من سنين ونسيت أنها تزوجته، ولكنها لا تعرف أنه لم يمضِ يوم دون أن يطمئن عليها، فبمجرد دخوله المنزل تبحث عيناه عنها من دون إرادته، ورغم نظرات الحزن بعينيها فإنه تركها لتتحمل نتيجة ما قالته، لم تكن تعرف هي أنه يوميًّا يدخل غرفتها بعد نومها ليطمئن عليها قبل أن ينام.

ولكنه قرر اليوم الاكتفاء بهذا البعد، فهو يعلم صغيرته؛ لن تستطيع تحمل ضغوطه كثيرًا مهما حاولت إظهار غير ذلك، وقبل أن يسأل نفسه أين هي اتجه للحديقة، ليجدها كما توقع أمام حوض زهورها خلف المنزل: «**حنين، ماذا تفعلين؟!**».

نظرت له وهي تبكي: «**زهوري ماتت**».

ابتسم وهو ينظر للزهور، ودون أن يتحدث ابتعد عن المكان لتجده يعود بعد دقائق يحمل أدوات الزراعة وخرطوم الري، وأخذ يقلم الزهور ويقص كل الأطراف الجافة، ثم أخذ يسقيها.

جذبها من الأرض لتقف أمامه، ليقول: «**لن يفيد البكاء بشيء، ما دام بداخلنا أنفاس وإرادة نستطيع أن نعيد كل شيء كما كان. الزهور**

ذبلت بسبب عدم الاهتمام، ولكنها لن تموت مرة واحدة، ظلت تجف جزءًا جزءًا لعل صاحبها ينقذها ويعود يهتم بها، هناك أجزاء صغيرة بداخلها يوجد بها حياة، ستكبر وتنمو وتعيد لكل المكان الحياة مرة أخرى».

تعلقت حنين برقبته كطفلة فرحت لحل أبيها مشكلتها، لتبتعد عنه قليلًا وهي تنظر له بخجل قائلة: «**آسفة... أنا....**».

قاطع يحيى كلامها وهو يضع أصبعه على شفتيها، ليقول: «**لا ترجعي في قرار أخذتِه**».

نظرت له بعدم فهم لتقول: «**ألم تغضب لأني أردت العمل بالشركة و...؟**».

قطع كلامها مرة أخرى وهو يقول: «**لم أغضب لأنكِ تريدين العمل يا غبية. تخيلت أنكِ ستفهمين، ولكن واضح أني سأعيش عمري كله أشرح لكِ حتى في الشركة!**».

حركت أهدابها بسرعة تحاول الاستيعاب وهي تقول: «**هل لا تمانع نزولي الشركة معك؟!**».

«**قلت لكِ مئة مرة إنكِ غبية، وها أنتِ قلتِ: 'معي'؛ أي ستظلين معي حتى بالعمل لتشبع عيناي بكِ في كل مكان**».

لتقول وما زالت غير مستوعبة: «**ولكن ما الذي أغضبك؟**».

نظر لها بلوم وهو يقول: «**أحزنني أن يكون هذا رأيكِ بي، أحزنني أن تفكري في هذا الأمر ولا تناقشيني فيه، لأتفاجأ وكأنكِ تضعينني أمام الأمر الواقع، وكأنك تتوقعين رفضي، أن تتخيلي أني سأمنعكِ من العمل بشركة والدكِ وأن أسلبكِ هذا الحق وأعطيه لنفسي!**».

تعلقت حنين برقبته بسعادة قائلة: «**آسفة، والله آسفة، كنت سآتي لك وأخبرك أني لا أريد أي شيء سواك... فقط لا تغضب مني**».

أبعدها قليلًا ليرى وجهها، ليقول: «**قلت لكِ من قبل إياكِ والرجوع في قرار أخذتِه**».

ليكمل كلامه بتلاعب: «**ولكن لا يمنع أن ترجعي بعد مناقشتي. وعقابًا لكِ على عدم دخولكِ غرفتي كل هذه الأيام، ومبيتكِ في غرفة لم تعد لكِ منذ يوم زواجنا...**».

حملها فجأة على كتفه.

«**يحيى، ماذا تفعل؟! نحن في الحديقة! أنزلني، لا يصح هذا**».

اتجه بها لمكان المسبح في الجانب الآخر من حديقة المنزل.

أنزلها وهو يقول: «**ما رأيكِ؟**».

أصابها الذهول عندما وجدته قد أعاد صيانة المسبح، وتم تركيب مظلة له ليكون مكانًا خاصًّا لا يمكن لأحد التطفل عليه: «**يحيى، متى فعلت ذلك؟!**».

قال بثقة: «**هل عندكِ شك في قدرات زوجكِ؟ أنسيتِ أنه عملي؟! يوم واحد كافٍ لكل هذا في منزل صاحب العمل**».

احتضنته بسعادة، فجذبها باتجاه المياه فجأة وخلع سترته، ودون أن تعي ماذا حدث وجدت نفسها في المياه معه، قالت ببهجة: «**يحيى، أتلفت ملابسنا**».

ليقول بعدما مسح الماء عن وجهه: «**من أجل هذه اللحظة أدفع ثمن ألف ثوب، حنين**».

احتضنها في الماء ودار بها لأول مرة، ليحقق هذا الحلم القديم. أسعده رنين ضحكاتها في المكان وهي تقول: «**يحيى، لم أنزل الماء منذ آخر مرة نزلت معك أنت وسلمى ورهف، أنا أشعر أنني عدت كما كنت**».

«**لو تعرفين كم تمنيت هذه اللحظة، كم تمنيت أن أكون معكِ بحريتي دون قيود، دون خوف من نفسى عليكِ! لو تعرفين كم كنت أخشى قربكِ، أخشى أن ألمسكِ، أخاف عليكِ من نفسي! آه يا حنين! أصبتِني بالعشق منذ أن عرف جسدكِ سر الأنوثة، وقبل أن تعيها أنتِ نفسك، عندما علمتكِ السباحة لأول مرة، عرفت وقتها أن هناك شيئًا بداخلي لكِ سيكبر كلما كبرتِ وكبر توهجكِ وجمالكِ، لتغني عينيَّ عن كل نساء الدنيا، ليكون طعم الحب معكِ بكل نكهات النساء**».

الخاتمة

بعد خمسة شهور

دخلت حنين مكتب يحيى من دون حتى طرق الباب – فهي الوحيدة المسموح لها بهذا الأمر –، ابتسم قبل أن يرفع رأسه ليراها؛ فبالطبع عرف أنها ساحرة قلبه، فهي منذ أن تدربت معه تحاول أن تثبت له أنها تستحق.

دخلت تحمل أحد الملفات الذي ظلت تتصفحه باهتمام لتضعه أمامه، ودارت حول المكتب لتصبح بجانبه، لتجلس على الكرسي الموضوع مؤخرًا جواره حتى لا تقف وهي تتحدث معه.

جلست بعملية شديدة وفتحت الملف، وأخذت تشرح له إحدى النقاط بتركيز شديد، ورغم تركيز يحيى معها وهي تتحدث كانت عيناه تتمردان عليه وهو ينظر لكل تفاصيلها بإعجاب، يقترب قليلًا لتختلط أنفاسهما، ويعود ويبتعد، رجع للخلف قليلًا بكرسيه ليفرد ظهره وهو يتأملها ويتأمل بطنها المنتفخة أمامها، فيخونه تعبيرات وجهه ليبتسم.

لاحظت حنين نظره لبطنها، فوضعت يدها عليها بتلقائية لتقول بخجل: «**أأصبح شكلي مضحكًا لهذه الدرجة؟!**».

اقترب يحيى منها مرة أخرى ليصبح ملاصقًا لها وهو يضع يده على وجنتها، ليقول لها بحنو: «**بالعكس، إنها تزيدك جمالًا وجاذبية، وتجعلني أريد خطفكِ من هذا المكتب الكئيب لنذهب لمنزلنا فورًا**».

أبعدت يده عنها بخجل لتقول بلوم: «**اتفقنا في العمل ننفصل عن حياتنا، أليس كذلك؟ وأنت مصمم على أخذ دور مدير العمل المتلاعب الذي يستغل أي فرصة لمعاكسة الموظفات!**».

ضحك بشدة وهو يقول: «**وهل أجرؤ أنا على معاكسة إحداهن؟! لو حدث لكانت زوجتي قتلتهن واحدة وراء الأخرى، إنهم يخشون النظر لي منذ عملتِ معي، وإلى الآن لا أعرف السبب!**».

لاحظ أنها لم تضحك أو تتجاوب معه، فأمسك يدها وهو يقول: «**تعاندين نفسكِ، حنين، قلت لكِ ألف مرة نقلل العمل قليلًا حتى لا يصيبكِ مكروه، وحتى تلدي، ولكن ها أنتِ ترفضين حتى الاعتراف بالإجهاد**».

قالت وهي تحاول مقاومة ظهور إرهاقها: «**أخشى أن أفقد حماسي بعد أن بدأت في فهم أمور كثيرة، لا أريد أن أخذلك وأخذل والدي**».

«**وأنا لم أطلب منكِ ترك العمل، ولكن قليلًا من الراحة من أجل طفلنا. كم دعونا الله أن يرزقنا إياه! نحافظ عليه، حبيبتي**».

وفجأة وجدها تفتح عينيها باتساع وتضع يدها على فمها حتى لا تصرخ في الشركة، واليد الأخرى على بطنها، فأرعبه منظرها ليقول: «**ماذا حدث؟ ماذا بكِ؟**».

قالت بتشتت: «**لا أعرف، هناك شيء بالداخل**».

«**كيف هناك شيء؟! مؤكد حنين هناك شيء! ما الغريب؟!**».

جذبت يده لتضعها على بطنها وتضع يدها فوقها وهي تقول: «**هنا.. وكأن أحدًا يطرق الباب!**».

استوعب ما يحدث بعد لحظات ليضحك وهو يقول: «**لا فائدة بكِ! ستوقفين قلبي في مرة! طفلنا يعلن عن وجوده، حنين، إنه يلعب قليلًا. ألم تخبرنا الطبيبة أنكِ ستشعرين به الفترة القادمة؟!**».

نظرت له بخجل من سذاجتها ككل مرة، وقالت: «**إنها أول مرة؛ لقد ارتعبت!**».

«**ولن تكون الأخيرة، حبيبتي؛ فمؤكد ابني سيكون مثلي شقيًّا**».

قالت له باعتراض: «**ولماذا لا تكون ابنتي وتصبح مثل أمها رقيقة؟! أنت السبب في حيرتنا الآن، أنت من أردت ألا تخبرنا الطبيبة عن جنس الطفل**».

ضمها بين ذراعيه وهو يقول: «**أريدها مفاجأة. صدقيني سيصبح الأمر أجمل**».

بعد أن تم عقد قران باسم ورهف بعدة أيام، بدأ الاثنان في تجهيز منزلهما معًا بكل تفاصيله بسعادة، حب يكبر بداخلهما مع كل خطوة في بناء حياتهما القادمة، وقد اقترب موعد الزفاف. دخل باسم الشقة يحمل الكثير من الحقائب ووراءه رهف تضع أصبعها في فمها وتفكر بقلق، ليقول: «**ماذا بكِ؟ تخيلت أنكِ ستكونين سعيدة بعد اجتياز هذا اليوم الشاق بنجاح!**».

ردت وعلى وجهها علامات الحزن مما أقلقه، وقالت: «**لقد نسيت بعض الأشياء**».

رمى باسم الحقائب من يديه وهو يقول بذهول: «**نسيتِ ماذا، رهف؟ بعد كل هذه المشتريات؟! لقد تعبت! بالله عليكِ كيف لا يمل جنسكن من الشراء؟!**».

تحدثت بنفس الحزن الظاهر عليها وهي تقول: «**هناك أشياء تعتقدون أنتم أنها غير مهمة، رغم أنكم تحتاجونها وتستعملونها، ومع ذلك لا بد من الاعتراض كما تفعل أنت الآن!**».

«**مثل ماذا، رهف؟ وما المشكلة أن يأتي يوم زفافنا ونتزوج دون هذه الأشياء؟ هل سوف نستخدمها كلها أول يوم؟!**».

لتقول بتأكيد: «**بالطبع. افترض احتجت لأي منها منذ أول يوم!**».

اقترب منها باسم بهدوء كثعلب يستعد أن ينقض على فريسته، ودون أن تشعر، لتجده فجأة يحاوط خصرها بيديه ويقربها منه وهو يقول: «**أحب أن أطمئنكِ أنا لا أنوي أن تحتاجي أي شيء منذ أول يوم، صدقيني لن تحتاجي غيري ولن تفكري في أي شيء غيري. وهذا وعد**».

رفعت يدها لتضعها على كتفه رغم خجلها وهي تقول: «**لا يوجد في تفكيرك إلا شيء واحد، حبيبي، رغم كل ما أفعله بك كل يوم**».

نظر لها بشك وهو يقول: «**إذًا أنتِ تعلمين أني أتحمل وتستغلين الفرصة**».

قالت بشقاوة: «**بالطبع، فهي فرصتي؛ فأنا أعلم أن الرجال بعد الزواج لا يلبون طلبات زوجاتهم كما يفعلون قبل الزواج؛ ولذلك فضلت شراء أشياء لسنة قادمة**».

أنزل باسم يده عن خصرها مصدومًا مما اعترفت به وهو يقول: «**سنة قادمة؟!**».

هزت رأسها إيجابًا ببراءة، فضيق عينيه وهو يقول: «**أتعلمين عاقبة تلاعبكِ بي؟**».

وضعت أصبعها في فمها بتردد وهي تحرك عينيها يمينًا ويسارًا وهو يقترب منها ويضم خصرها مرة أخرى ويقول: «**كما خططتِ أنتِ واعترفتِ، صراحة خططت أنا أيضًا، أعترف أني انتظرت هذه اللحظة وطاوعتكِ من أجلها**».

قالت بعدم فهم: «**لحظة ماذا؟**».

ضمها أكثر بجرأة وهو يقول: «**أن تأتي معي هنا بمفردكِ. وأخيرًا صبرت ونلت هذه اللحظة**».

وقبل أن تحاول الرد، رفعها عن الأرض بعدما حاوط خصرها وذهب بها للأريكة، لتجلس ويجلس جوارها، وظل ينظر إليها وعلى وجهه ابتسامة تسلٍّ، وقرر التلاعب بها قليلًا حتى لا تفكر هي في التلاعب به مرة أخرى، فجذب يدها التي تضعها على شفتيها وقربها من فمه ليقبل باطن أصابعها ويعود ليضعها على فمها مرة أخرى، فأنزلت يدها برعب وهي تنظر لها بذهول، فجذب يدها الأخرى وفعل بها نفس الأمر وهو يقول لها بسعادة: «**هكذا لم يعد لكِ يدان تضعينهما على شفتيكِ لتخفيهما عني**».

زاد خجلها وتوترها وكادت تبكي، فأشفق عليها أخيرًا ليجذبها إليه وهو يقول: «**أعتقد أن علينا أن نغادر الآن، ذلك أفضل، وإلا فسنبدأ في استخدام مشترياتكِ!**».

في غرفة في إحدى المستشفيات، جلس معاذ يحمل طفلته التي جاءت للدنيا منذ دقائق، وبجواره رحمة التي تمتلئ عيناها دموعًا وهي تنظر لمعاذ بسعادة، لتسأله كريمة التي تجلس بجوار ابنتها تنتظر إفاقتها: «**ماذا قررت تسميتها، معاذ؟**».

ابتسم معاذ بود وهو يقول: «**والدتها من ستسميها**».

لتعود سلمى للوعي بعد دقائق، فوقف معاذ بطفلته ليضعها في أحضان والدتها وهو يقول: «**فتاة كالقمر، تشبهكِ، حبيبتي**».

فقالت حنين التي تجلس بجوار يحيى بتوتر من رهبة الموقف تضع يدها على بطنها: «**أخبرينا يا قمر ماذا ستسمينها، فلقد رفض معاذ أن يخبرنا اسمها، ويوهمنا أنه لم يعرف، وأنه يترك تسمية الطفلة لكِ!**».

ابتسم معاذ وهو يجلس بجوار سلمى الجهة المقابلة لوالدتها وهو يقول: «**ولماذا أنتِ واثقة بأني أعرف الاسم؟**».

رد هذه المرة يحيى وهو يقول: «**بكل بساطة حنين اختارت إلى الآن ثلاثة أسماء فتيات وثلاثة أسماء أولاد**».

ضحك الجميع، ونظرت له حنين بعتاب ليرفع يدها يقبلها.

قالت سلمى أخيرًا بخفوت وقد لاحظت عدم محاولة رحمة الحديث: «**رحمة الوحيدة التي تعرف الاسم**».

نظرت رحمة لها بشك وقد بدأت دموعها تزداد، فأكملت سملى:

«**وأنا واثقة أن معاذًا يعرف هو أيضًا الاسم**».

ابتسم معاذ ومال ليقبل جبهتها، لتقول أخيرًا: «**سأسميها رحمة؛ لتصبح كرحمة الكبيرة، قلبها نقي، جميلة وقوية رغم كل شيء. سأجعل رحمة تربيها معي؛ لتصبح مثلها ناجحة مميزة، أريدها شمسًا صغيرة تبث من حولها الطاقة. ستكون رحمة معاذ**».

انتهت الرواية ولم تنتهِ القصة،

قصة قلوب أحبت وقلوب عرفت التضحية،

حين تقرر الحب تتنازل بلا قيود، وحين تضحي لا تنتظر المقابل.

الحب قرار، وفي الحب قرار، وبيدك الاختيار؛ إما أن تقرر أن تنهي حبك، وإما أن يستمر الحب والعطاء برضا واقتناع بأنك اتخذت القرار الصائب.

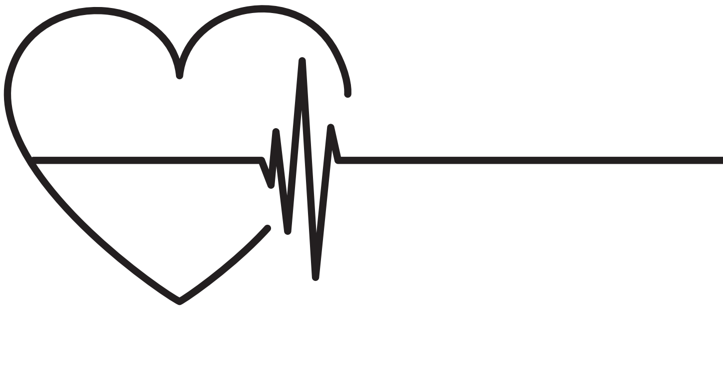

المحتويات

إهداء	٥
قوة الأناناس	٩
الفصل الأول	١١
الفصل الثاني	٢٣
الفصل الثالث	٤٤
الفصل الرابع	٥٧
الفصل الخامس	٦٨
الفصل السادس	٨٠
الفصل السابع	٩٢
الفصل الثامن	١٠١
الفصل التاسع	١١٢
الفصل العاشر	١٢٤
الفصل الحادي عشر	١٣٦
الفصل الثاني عشر	١٤٧
الفصل الثالث عشر	١٥٩

الفصل الرابع عشر	١٧٢
الفصل الخامس عشر	١٨٣
الفصل السادس عشر	١٩٤
الفصل السابع عشر	٢٠٣
الفصل الثامن عشر	٢١٥
الفصل التاسع عشر	٢٢٧
الفصل العشرون	٢٣٩
الفصل الحادي والعشرون	٢٥٢
الفصل الثاني والعشرون	٢٦٣
الفصل الثالث والعشرون	٢٧٥
الفصل الرابع والعشرون	٢٨٨
الفصل الخامس والعشرون	٣٠٠
الفصل السادس والعشرون	٣١٢
الفصل السابع والعشرون	٣٢٥
الفصل الثامن والعشرون	٣٣٥
الفصل التاسع والعشرون	٣٤٥
الفصل الثلاثون	٣٥٧
الخاتمة	٣٦٩

كاريزما
للنشر والتوزيع